

بقلم

الدكتور محمد رجب البيومي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين
مع الأبطال


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



بقلم

الدكتور محمد رجب البيومي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

طَبْعَةُ دَارِ القَلَمِ الأُولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣



المقدمة

كتب التاريخ أكثر من أن تحصر، وأعظمها أثراً ما صور نواحي البطولة، فرسم للرجولة صوراً شاهدة، وأقام على خلودها دلائل ماثلات.

وبين يدينا الآن كتاب يصور بطولات سابقة لأعلام تتألق في سماء الإسلام فينقل إلينا عبر القرون المتراخية ساحات القتال المترامية وما شاهدت من صيال مرير، وكفاح دؤوب حتى انتصر الحق في أكثر أحيانه، أو تراجع مضطراً في فترات الضعف بعد أن أدى ضريبة الكرامة دماً يتدفق، وذكرى تفوح.

وقد اخترت أن أتحدث عن عصور التاريخ الإسلامي من خلال أبطاله، ليكون المثال الحي ناطقاً بأعماله، ملهماً شتى العبر لمن يتدبر عن ثقة ممن كان له قلب فألقى السمع، وكان من السهل الهين أن يدور الحديث عن الواقع لا عن الأشخاص ولكن مجال القدوة في بني الإنسان أكثر وضوحاً وأقرب نفاذاً، وليس معنى ذلك أن هناك وقائع بلا أشخاص.. فهذا ما يستحيل بداهة، ولكن معناه أن تأثر القارىء بشخصية البطل الجريء، ومتابعته المخلصة لأدوار حياته، ومرهقات عسره، ومرتفعات مجده، مما يملؤه ثقة واعتزازاً، ويدفعه إلى التعلق بأهدابه، ومحاولة محاكاته إن استطاع.

ولم نزعم لأكثر من خصصناهم بالحديث عصمة ومثالية تتجافى عن الضعف الإنساني، ولكننا أظهرنا جوانب الضعف مع ظواهر القوة. فلم نغمض عيناً عن مؤاخذة البطل حين تجب المؤاخذة، ومن الذي ترضى سجاياه حتى نملأ عنه الصفحات بالتحميد والإطراء..!

قد تكون في بعض هؤلاء الأبطال حقيقة من لم تعثر له على عيب واحد كنور الدين في مثاليته، والمثنى بن حارثة في بطولته، وعبد القادر في استبساله، ولكن بين

هؤلاء من انتقد بعض المنصفين أعمالهم كموسى بن نصير والظاهر بيبرس. . ! وشرعة الحق أن نذكر لكل بطل ما له وما عليه، ومجال الأسوة الحسنة متحقق في الحالتين: في حالة السمو: إذ يدفع القارىء إلى الاقتداء بذوي التحليق فيستعير جناحاً يرفعه نفسياً إلى قممهم الشماء، ويريه من بواهر الضياء في ارتفاع الأوج واتساع الأفق ليعود على شخصيته بالتسامي المشرئب، والطموح الوثاب، كما أن مجال القدوة متحقق في حالة الهبوط، إذ تنفجر الهوة أمام القارىء فيضيق بها ويحاذر أن يبتعد عنها جهده، وربما تغلغل الشعور بها في نفسه فدفعه إلى مجافاة كل بغيض. . ! وذلك كسب كبير لنفسه في دنيا السلوك، كما هو كسب لعقله في مضمار النقد والترجيح.

وقد اعتاد المتحدثون عن أبطال الفتح الإسلامي أن يسهبوا في الحديث مبتدئين بسعد بن أبي وقاص، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وأبي عبيدة الجراح، ولكن تكرار الحديث عن هؤلاء الأعلام هو الذي سوَّغ لي أن أبتدىء بالمثنى بن حارثة، ولست بذلك أجحد قليلاً ما اضطلعوا به من أعباء ثقال! ولكني أُحيد في اجتنابهم عن الذائع المعاد.

وكما ألمعت إلى أبطال الفتح، فقد أشدت بأبطال الدفاع في عصر الحروب الصليبية، وفي العصر الحديث، لأن واقعنا العربي الإسلامي يتطلب الإشادة بمن سطعوا كالكواكب في عهود الاحتلال الغاشم، فاستطاعت عزائمهم المثابرة أن تكون أشعة وضيئة تكتسح الظلمات. . !

لقد كان عبد القادر الجزائري والإمام شامل القوقازي وعمر المختار أبطالاً عظاماً في زمن ضعف المسلمين، وقد استطاعوا بأسلحتهم البدائية أن يهزموا الجيوش الغربية الجرارة المدججة بأحدث ما أبرزه العلم المعاصر من مبيدات ساحقة.

ولعل هناك من المشابه ما تتعدد ألوانه بين عصر الحروب الصليبية والعصر الحديث، إذ إن تكالب الغرب على الشرق العربي لا يزال يتحين الفرص اللئيمة للعبث بمقدسات العروبة والإسلام، وقد أوجد إسرائيل الحقيرة لتكون معبرهُ الدنيء إلى السيطرة والاحتلال ، ولكن الشعور العربي المتأجج يمنع أن يتاح لهؤلاء اللصوص بعض ما يأملون من اغتصاب. وكذلك كانت عصور الحروب الصليبية مجالاً لعدوان الغرب وطغيانه، وميداناً لظهور أبطال صناديد من أمثال عماد الدين،

ونور الدين، وصلاح الدين، وقطز، والظاهر بيبرس، وبجهودهم جميعاً خابت آمال المعتـدين الفجرة في إذلال الشرق، واحتلال أرض العرب، وترديد بطولات هـؤلاء المجاهدين مما يدفع الثقة القوية إلى نفوسنا في معركة اليوم بين التحرر والاحتلال، لذلك كان الحديث عن عمالقة المسلمين في الحروب الصليبية حديث الأمس واليوم معاً.

فإذا استطاع هذا الكتاب أن يعيد مجداً، ويُحيـي شعوراً، ويبعث أملاً، ويوجه ركباً، فذلك حسبه في دنيا التأليف، وإني لأثق أكبر الثقة في نبيل رسالته، وشريف هدفه، وجزيل جدواه.

محمد رجب البيومي

المثنى بن حارثة

بطل الإسلام في فارس

لا أدري لماذا يتردد اسم المثنى عالياً في العراق، وخافتاً في شتى العواصم العربية، ألأنه الفارس البطل الذي ضم ما حول الفراتين إلى الإسلام، فحق له أن يذكر هناك بالمحمدة والثناء؟ ولكن عمر وخالداً، وسعداً وأبا عبيدة تتردد أسماؤهم رنانة في كل مكان يشيد بالفتح العربي والتاريخ الإسلامي.. أيكون المثنى أقل منهم كفاحاً، وأهون استبسالاً؟ إن تاريخه ليشهد بأنه قريع هؤلاء الأبطال ونظيرهم همة وشجاعة وتمرساً بالخطوب والأهوال. وما قرأت وقائعه المجلية إلا عجبت كيف لا تفرد الكتب الخاصة بتحليل روائعه، وهأنذا أشير إليه من بعيد، راجياً أن أوفق إلى رسم خطوط واضحة عن بطولته الشماء!

لقد انحدر المثنى بن حارثة الشيباني من قبيلة بكر بن ربيعة ذات الأنفة والعزة والاستعلاء، وتاريخها في الجاهلية عبق فواح يتأرج بعبير العزة والحرية، إذ إن ربيعة انفردت بين القبائل بمنازلة الفرس، وتحدي آل ساسان ومن شايعهم من بني المنذر بن ماء السماء! فكانت غاراتها المتتابعة لا توجه إلى الأعراب من بني القربى وذوي الرحم، بل تهدف في صميمها إلى منازلة الأعاجم ممن يبسطون سيطرتهم على العرب في تغطرس وخيلاء، حتى لقد عرفت ربيعة بين القبائل بربيعة الأسد، وربيعة الفرس، رمزاً لشجاعتها وعلو همتها في مصاولة الأكاسرة العتاة، وبنو شيبان من ربيعة في الذروة والسنام، إذ كانوا قادة المعركة في يوم ذي قار، حتى ضرب بهم المثل فقيل: كاثر بشيبان وحارب بشيبان..!

وقد نشأ المثنى بن حارثة في هذه القبيلة الباسلة، تجري في عروقه دماء العزة والأنفة، وتفور نفسه حفيظة أن يسيطر على قومه أعجمي يستعين عليهم بالأساورة والمرازبة والدهاقين..! فوقف يوم الفرات - أحد أيام العرب في الجاهلية - على رأس المقاتلين من بني شيبان ونازل الأعاجم بسيفه حتى شردهم أباديد، وغرق مئات

الأساورة في الفرات، وساق أنعامهم وخيولهم وأموالهم نهباً مقسماً لربيعة الأسد، حتى أرّخت ربيعة بيوم الفرات، كما أرّخت قريش بيوم الفيل. . !

وحين أشرق نور الإسلام كان المثنى مع قومه على شواطىء الفرات، لا يعلم كثيراً عن حقيقة الدعوة الإسلامية، فالأنباء تصله من مكة والمدينة متضاربة متناقضة لا ترسم لعينه طريق الهداية على وجهه الصحيح، فرأى أن يتريث حتى يستيقن، وبعث بمن يجمع له الحقائق عن قريش بمكة، والأنصار بالمدينة، وأخذ يوازن ويعلل، حتى اهتدى إلى الدين الصحيح، فأسرع بالرحيل إلى المدينة، وبايع الرسول الأعظم على الإسلام في السنة التاسعة، ورجع إلى مقره، مطمئناً واثقاً بدينه الجديد. . !

وكان يخلو إلى نفسه فيتذكر جهاد المسلمين في بدر وأُحد والخندق وخيبر، ومؤتة، وتبوك، فيستشعر أسفاً يضيق به إذ ابتعد عن شرف هذه المعارك، وهو البطل الفارس، ومن له أن تعود الغزوات من جديد ليقف إلى جوار رسول الله ﷺ بسيفه وبسالته جنباً إلى جنب. . ! قد فاته الشرف الأسنى، إذ تقاعس معذوراً عن ميدانه الأصيل في حمى المسلمين! وليت الأيام تفسح المجال من جديد!.

وكأن الأقدار قد سايرت هواه، فلم تلبث حروب الردة أن نهضت بعد وفاة الرسول ﷺ على قدم وساق، وسارت الجيوش الإسلامية من المدينة تصاول أعداء الله من المتنبئين، ومن لف لفهم من المؤلفة قلوبهم والمنافقين، ووقفت القلة المؤمنة أمام الكثرة المرتدة ومعها إيمانها الراسخ، ويقينها الأكيد، فسارع المثنى مشوقاً إلى أداء واجبه في هذه المعمعة الخطيرة، وقاد كتائبه من ربيعة وشيبان حتى التحق بعلاء بن الحضرمي قائد جيوش المسلمين بالبحرين، فأسهم معه إسهاماً باسلاً، وأخذ يواصل القتال متبعاً كتائب الكفر والمروق حتى استولى على القطيف، وتابع الزحف إلى دلتا الفرات حتى أشرف بجيشه على أرض السواد، وتمت كلمة الله بانتصار الإسلام. فرجع المثنى بقومه سعيداً منتشياً دون أن يعرفه أبو بكر خليفة المسلمين. . ! وأخذ يحس بفرحة تغمره، لأنه بدأ الجولة الأولى من جولات الإسلام، وطالما وازن بين شعوره بالنصر في معركة الردة، وشعوره بالنصر قبل ذلك في معارك الجاهلية، فرأى أن المعركة الأخيرة ذات طعم هنيء لذيذ، فأجرها العظيم مدخر عند الله في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، أما معارك الجاهلية فذات طنين يدوي في القبائل دون أن يكون له رصيده الضخم من رضوان الله. . ! وشتان ما بين الناحيتين من فروق،

ومن ثم فقد عزم عل مواصلة الجهاد تحت لواء الإسلام، ليضيف إلى سعادته الراهنة فيضاً من السعادات!!

وكان مما يأكل قلب البطل منذ نعومة أظفاره خضوعُ القبائل الضاربة حول الفرات لسلطان العجم، وخضوعُ الحيرة بملوكها وأمرائها لكسرى وذويه، فلماذا لا يحشد جهوده لحرب هؤلاء المتسلطين تحت راية الإسلام، لقد كانت العروبة وحدها تلهب أحاسيسه فتدفعه إلى منازلتهم برغم ضآلة ما يمتلك من سلاح وعتاد! أما الإسلام اليوم فقد أصبح دافعاً قوياً لهذه الحرب الضروس، وإذا كان هذا الدين القيم عربيَّ النشأة فلا بد أن يمتد حتى يشمل هؤلاء الذين يدينون بتفاوت الطبقات في فارس، ولا يعلمون ما علّمه الإسلام لأبنائه من أن الناس سواسية كأسنان المشط، لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بتقوى الله والجهاد..!

إن هذه المشاعر الإسلامية الجديدة تفتح منافذ جديدة في أحاسيسه، وتغمره بقوة لا تنفد، فتدفعه دفعاً إلى منازلة الفرس، ودعوتهم إلى الدين الجديد، وقد شاء أن ينهض لذلك الأمر بنفسه دون أن يرجع إلى خليفة المسلمين خشية أن يجد لديه ما يخالف رأيه في هذا الميدان الرهيب، فتتفرق كلمة بني شيبان وربيعة تفرقاً لا يرضي البطل الكبير، ومن ثم فقد أعلن الحرب على العجم، وقاد الجيش الإسلامي من ربيعة إلى ميادين رائعة نازل بها فريقين مجتمعين: فريق الأساورة الفرس ممن تعاظمهم أن يقف القائد العربي أمامهم بشجاعته الباسلة، وفريق العرب من أتباع كسرى وخُشاة بأسه ممن يستكثرون على أنفسهم منازلة طاغية جبار يسيطر على الشرق منذ أحقاب طوال، وإذا كان الأعمال بالنيات فقد استطاع المثنى، ومعه أخواه البطلان الباسلان: المُعنّى ومسعود، أن يهزم كتائب الفرس حين تحرك شمالاً على رأس قوة من رجال القبائل مساحلاً الخليج الفارسي حتى بلغ مصب نهري دجلة والفرات، فأدار المعركة الأولى بعد الإسلام إدارة المنتصر الباسل. وتردد نجاحه الرائع في آفاق أرض الإسلام حتى جاء أبا بكر بالمدينة فدهش كثيراً حين علم، وأخذ يسأل أصحابه: من هذا الذي تأتي أخبار وقائعه قبل معرفة نسبه؟، فرد عليه قيس بن عاصم المنقري: «هذا هو المثنى بن حارثة الشيباني رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد! إنه المثنى!».

كانت جيوش الخلافة الإسلامية، تتجه بكتائبها المحتشدة لغزو الروم في ديار

الشام، ولم يكن ليجول بخاطر أبي بكر أن يبعث رجاله إلى فارس، والروم منذ غزوة مؤتة في تربص وتأهب لملاقاة المسلمين، وقد كان اتجاه الرسول إلى غزوهم بالشام مبعث ثقة وإيمان في النفوس، فكل مجاهد ينهض لهؤلاء إنما يحقق رغبة نبيه، ويتابع خطته مطمئناً إلى نجاح العاقبة بإذن الله، أما الفرس فقوم صلاب شداد سار لهم في العرب ذكر مَهيبٌ مخوف، والتفكير في منازلتهم مظنة خطر بعيد، إذ إن أفيالهم الكثيرة تتقدم جيوشهم الظافرة فتُغْنى غَناء أبشعَ الأسلحة فتكاً، وأعتى الذخائر إبادة، فكيف يلبي أبو بكر دعوة المثنى إلى نضال آل ساسان؟! لو كانت دعوته تلك قد سبقت أوانها قبل أن تتحرك الجيوش إلى قتال الروم لأمكن الخليفة أن يوحد جبهة القتال، فيجعلها في الشرق مع فارس دون أن يتشعب الجيش الإسلامي إلى فرقتين متباعدتين! الحق أن المأزق حرج، ولا بد للخليفة أن يتبصر مواطىء أقدامه قبل أن يصدر قراره النهائي..! فلبث حيناً لا يدري ماذا يصنع.

ولكن المثنى العظيم يصل إلى المدينة بنفسه، فيقابل خليفة رسول الله، ويهون من شأن الفرس، إذ يبسط أمامه سجل حروبه معهم في الجاهلية والإسلام، ثم يتشعب الحديث، فيناقش أبا بكر في قراره الذي اتخذه بشأن المرتدين بعد أن رجعوا إلى الإسلام، إذ شاء أبو بكر أن يحرمهم الجهاد في الفتح الإسلامي، ليقصر شرفه على الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه من الوفاء للدين والثبات عليه! فكان من رأي المثنى أن يرجع أبو بكر عن قراره.. ليتيح لهؤلاء سبيل التوبة الحقيقية، إذ يمتشقون الحسام دفاعاً عن دين الله، وتكفيراً لما أسلفوا من حرب الإسلام..! وكان للبطل منطقه السديد ورأيه النافذ، فاقتنع أبو بكر بوجهة نظره ودعا المسلمين عامة إلى البلاء في الغزو، فسنحت الفرصة أمام هؤلاء النادمين ليقوموا بما يكسبهم شرف الرجولة فينسخوا ليل الماضي بصباح الغداة، وما أعظمها من خطة جعلت كتائب المجاهدين تتدفق من كل مكان راغبة في الجهاد عن طواعية وترحاب، وسالت الشعاب المنفرجة في بطن الجزيرة هاتفة بالغزو، مدوية بنشيد الجهاد: الله أكبر الله أكبر..! غير أن التفكير كان متجهاً بهؤلاء إلى الروم لا إلى فارس، ولكن المثنى الباسل يعتلي المنبر ليهون من شأن المجوس، وليسترعي الأنظار إلى الميدان الجديد، وقد شاء الله أن يختار أبا بكر إلى جواره الكريم قبل أن يصدر قراره النهائي فاستدعى رضي الله عنه عمر بن الخطاب في مرضه الأخير ليقول له في إصرار: «اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به، إني لأرجو أن أموت من يومي هذا، فإذا أنا مِتّ فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى،

وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس معه، ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم، ووصية ربكم، وقد رأيتَني مُتوفًى رسول الله وما صنعتُ، ولم يُصَبِ الخَلْقُ بمثله».

مات أبو بكر..! فبايع الناس عمر، وكان أول ما بدأ به أن ندب الناس مع المثنى قبل صلاة الفجر من هذه الليلة نفسها، وقام المثنى فخطب الناس بعد البيعة قائلاً: «أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجد، فإننا قد تبجحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شِقَّي السواد وشاطرناهم، ونلنا منهم، واجترأ من قلّبنا عليهم، ولها إن شاء الله ما بعدها..!» ثم تحدث المثنى عن جهاد خالد معه في حرب العراق، وكان أبو بكر رضي الله عنه قد أمده به ليحمي العرب على شواطىء الفرات فقط، دون أن يدور بخلده امتداد القتال إلى بطن فارس، فأبلى خالد أحسن البلاء مع المثنى وانتصر القائدان في مواقع ذائعة نذكر منها «الولجة» و«ذات السلاسل» و« الأنبار » ثم جاء أمر أبي بكر بانتقال خالد إلى كفاح الروم في اليرموك، مكتفياً بتأمين الحدود الشرقية..! فأسف المثنى أسفاً زائداً لمحاولة انتهاء المعركة مع فارس على هذا النحو المفاجىء، وجاء بشخصه إلى المدينة ليعلن تصميمه على مواصلة القتال، والحق أنه نجح في مسعاه أكبر نجاح، إذ أقنع أبا بكر وعمر، وخطب الناس بالمدينة فثبت يقينهم وهون عليهم أمر المجوس..! فسارت الكتائب مَشُوْقَةً للصراع..

على أن عظمة المثنى الباهرة تتخطى الحدود المعقولة، حين نجده يتناسى شخصه، فيقبل بارتياح تام أن يكون الأميرُ المسلمُ على الجيوش غيرَه، وهو الذي ذلل عقبات النصر، وفتح باب الهجوم على الأساورة متحدياً جميع الصعاب مهما تجمعت من حوله، وتذاءبت عليه! فحين جاء خالد بن الوليد إلى الحيرة سارع فانضوى بجنده تحت لوائه، وأبدى من الجهاد والبسالة ما تعجب له خالد وأكبره.. وحين همّ بالرحيل إلى اليرموك شد على يد المثنى وقال في اعتزاز: ارجع إلى إمارتك منصوراً سيداً كما كنت، وقد يكون خالد أعرف الناس ببسالة صاحبه، كما يكون المثنى أكثر ميلاً إلى الانضواء تحت رايته من غيره، إذ إن كفاح سيف الله في حرب الردة قد جعل القيادة من حقه في معتقد بعض الناس، أما الذي يثبت العظمة النفسية على وجهها الصريح للمثنى فهو قَبوله إمارة أبي عبيد بن مسعود الثقفي حيث أَمّره ابن الخطاب دون المثنى..! ولم تكن له من السابقة الذائعة ما يقنع المثنى بكفايته عن يقين، ولكن المثنى كان أطوع له من بنانه، وقد أخذ يبصره بمواقع الأمر تبصير من يرجو على يديه

النجاح والظفر! وكان في أبي عبيد الثقفي إيمان وإخلاص، ولكن الدربة الحربية كانت تعوزه وهي وحدها وسيلة الانتصار، فحين تجمعت الجموع الفارسية في معركة الجسر وقد حشد لها رستم مئات المهرة من القواد وعشرات الآلاف من الجنود مصمماً على أن يقذف بالعرب نهائياً من أرض العراق، أقول: حين حشد رستم جموعه الكثيفة خلف الأفيال والخيول والسلاسل، ونظر المثنى فعلم أن الجيوش العربية ستطوق تطويقاً حاصداً بهذا الجمع الهائل المديد أشار على أبي عبيد بالانسحاب من الحيرة إلى خفان، ليستطيع أن يجد في الصحراء الممتدة ملاذاً للفرار إذا ضاق به المأزق، وتلك خطة سديدة إذ إن سياسة الاحتفاظ بالأماكن المحتلة كثيراً ما تجلب الوبال على المحتفظين بها وقد قبل أبو عبيد مشورة صاحبه، فانكفأت الجيوش متراجعة إلى خفان.

وحانت الساعة الفاصلة أمام جسر الفرات، فرأى المسلمون على الضفة المقابلة من الطوفان الفارسي الزاحف ما لا يُحصي عدده غير الله من الجنود والخيول والسلاح، وبعث «جاذويه» قائد الفرس رسوله إلى المسلمين يسأل من الذي يعبر الجسر من المقاتلين ليلتحم النضال، وكان من رأي المثنى أن يعبر الفارسيون ليكون أمام المسلمين متسع من البادية إذا حان خطر شديد، وصمم أبو عبيد على أن يعبر المسلمون لتشتد حماستهم الدافعة، وتكون الثقة الحية في نفوسهم كفيلة بالتقدم فالاكتساح. وقد أطاع المثنى أمر القائد المسلم كارهاً غير راغب، وزحفت الجيوش الإسلامية لترى كوكبة من الأفيال تبعث الرعب في النفوس، وقد سارع أبو عبيد إلى الفيل الأكبر فضرب خرطومه بسيفه ضربة لم تصب مقتله فهجم عليه ووطئه بخفه فسقط شهيداً، ودب الرعب في نفوس المسلمين وهموا بالانسحاب إلى الجسر، ولكن أحد المتحمسين من المسلمين قد ارتكب خطأ فاحشاً حين هدمه ليمنع الفرار.. ونظر المثنى فإذا الحرب بعد سقوط الجسر تصبح حرب إبادة واستئصال للمسلمين، فتقدم مضحياً بنفسه مع لفيف من قومه الأشداء، وتصدى صابراً لهجمات الفرس ثم بعث بمن يعيدون بناء الجسر فأمكنهم في ظل هذه المؤخرة الصامدة الثابتة التي دفعت باستبسالها المستميت كل زحف أن يقوموا برسالتهم فنهض الجسر كما كان، وانسحب الباقون إلى حيث كانوا من قبل، ولولا وقفة المثنى وجماعته لكانت موقعة الجسر موقعة إبادة واستئصال للمسلمين! ولكن الله قد أيد البطل بروح من عنده فلم يتوان لحظة في مأزقه مع ما صوب إلى جسده من النصال..!

ولو أن جيوش (جاذويه) تتبعت فلول المنهزمين إثر معركة الجسر لاندحر المسلمون اندحاراً يتغير معه وجه التاريخ، ولكن الخلاف حول الحكم في المدائن بين رستم والفيرزان قد وجد سبيله إلى الجيش الفارسي، فلم يغتنموا الفرصة السانحة وأضاعوا النصر الساحق لأمر قدره الله، فأخذ المثنى يجمع الفلول المتناثرة، ويرسل إلى العرب في القبائل البعيدة يدعوهم لنصرة إخوانهم المستبسلين، وأمده عمر بن الخطاب بكتائب جديدة تعوض بعض ما ضاع يوم الجسر من آمال، ثم احتشد بجموعه بالبويب قريباً من الكوفة، وشهد الفرات مرة أخرى جيشين يتقابلان على ضفتيه وليس بينهما غير الجسر، فبعث مهران، القائد الفارسي الجديد، رسوله يسأل من الذي يبدأ بالعبور، وكان المثنى هو القائد دون سواه فلم يقع في خطأ أبي عبيد، وطلب من الجيش الفارسي أن يجرب دوره في العبور، ثم استعد بأبطاله ليقابل المندفعين إليه كالطوفان المزبد يملؤون الأرض عجيجاً وجلبة، وقد وجد المسلمين يتنكبون الفيلة خائفين، فتجرأ على منازلتها بالسيف عن خبرة واقتدار، وقد سبق أن عرف مقاتلتها في معركة بابل، وطار له معها بين المسلمين حديث سجله الفرزدق بعد عشرات السنوات حين قال:

ومنا المثنى قاتَلَ الفيلَ وحدَهُ ... ببابلَ إذ في فارسٍ حكمُ بابل

أجل هجم المثنى على الأفيال جريئاً غير هياب، وهجم أخواه المعنّى ومسعود معه في ساحة الموت مستبسلين، ونظر المسلمون فإذا آل حارثة الشيباني يتوسطون النار الملتهبة مغامرين، فغمرت الناس حماسة لا تعهد، واندفعوا وراء الأبطال وكأنهم فقدوا عقولهم، فلم يفكروا في خطر الأفيال والسيوف والرماح، ونظر المثنى فإذا صفوف بني عِجْل تتقهقر، فترك مكانه ليصرخ في وجوههم: يا بني عجل. اتقوا الله حق تقواه، ولا تفضحوا المسلمين. ثم عاد إلى مكانه فوجد أخاه مسعوداً قد استشهد، فخاف أن يزعزع مصرعه بعض الناس، فكظم حزنه الأليم وصاح: «يا بني الإسلام لا يزعجكم مصرع أخي فهكذا مصارع الأخيار» واندفع إلى الميدان مجلجلاً بالتبكير، وكان البطل قد جمع إلى جيشه في معركة البويب طائفة من نصارى العرب يقاتلون حمية لإخوانهم في الدم لا في الدين، فلما طال القتال واشتد أراد أن يلهب حمية المسلمين فتقدم إلى أنس بن هلال النمري وقال له: إنك امرؤ عربي وإن لم تكن على ديننا، فإذا حملتُ على قائد العجم فاحمل معنا، فأطاعه أنس مع نفر من قومه،

وحملوا على القائد فقتله غلام نصراني من تَغْلب. . ورأى المسلمون ذلك فاستبسلوا مستميتين، حتى انكشف الأعداء وقد اهتبل المثنى الفرصة فتقدم إلى الجسر وأسقطه لينتقم للمسلمين من المعركة السابقة، وخفّ المنهزمون من الفرس إلى الجسر فلم يجدوه، فتتبعهم المسلمون قتلاً واستئصالاً وصاروا بين قتيل وغريق. . وقرّ المثنى عيناً بالنجاح. .

وهال يزدجرد ملك الفرس ما حل بقومه بعد معركة البويب فاستعد لموقعة تكون في رأيه معركة الحياة أو الموت، وجاءت النذر للمثنى بما ينتويه صاحب الفرس، فكتب إلى عمر بن الخطاب يسأله المدد الحفيل، فأرسل سعدَ بن أبي وقاص على رأس جيش كبير إلى المثنى، وقد شاء الله ألا يتقابل البطلان، فقد مات المثنى متأثراً بجرح أليم أصابه يوم الجسر فظل يهادنه مستعيناً بالصبر حتى انتفض عليه فجأة، فأسلم الروح شهيداً أبياً ذا همة وعزة وإيمان، وحين تيقن الموت دعا كاتبه يملي عليه كتاباً إلى القائد الجديد ضمنه خلاصة تجاربه، وزبدة نصائحه، فضرب بذلك أرفع الأمثلة في الإخلاص لعقيدته، والحرص على انتصار ذويه، وإن كان النصر على يد غيره من اللاحقين. . . مات المثنى فبكته البطولة والكرامة، وجاء سعد بن أبي وقاص ليلتقي بجيوش فارس في القادسية، وقد تكاثرت الفيلة تكاثراً عنيفاً بسطوتها القاهرة على المسلمين، ففرّ كثير من المسلمين مذعورين، ورأت سلمى زوجة المثنى ـ وسعد من بعده ـ ما كان، فصاحت في غضب: وامثناه! ولا مثنى للخيل بعد المثنى! فخجل الفارّون خزياً ورجعوا إلى الحومة مستبسلين حتى كسبوا النصر، وقال قائلهم في إكبار: رحم الله المثنى، فقد نفعنا حياً بجهاده، وميتاً بذكراه.

النعمان بن مقرّن

بطل نهاوند

بيت النعمان بن مقرن من بيوت الإيمان. هكذا قال عبد الله بن مسعود، وقد صدق فيما قال، فقد قدّم هذا البيت إلى الإسلام سبعة صناديد أشاوس أقبلوا على رسول الله ﷺ في غيرة وإخلاص، وعرفتهم معامع القتال فرساناً مغاوير، يجودون بأرواحهم في سبيل العقيدة المؤمنة دون أن يدخروا وسعاً في الجهاد والجلاد، وبأمثالهم من الصفوة المختارين خفقت راية الإسلام على آفاق مترامية، وسارت مسير الشمس في كل مكان.

وقد كان النعمان يعيش في قبيلة «مُزينة» جنوب يثرب حين انتقل إليها رسول الله ﷺ مهاجراً إلى ربه، وتطايرت إلى الرجل أنباء الدعوة الجديدة فأخذ يفكر فيما يسمع حتى أشرق قلبه بالإيمان، وعزم على أن يشخص مع قومه إلى المدينة، وكانت السنة مجدبة قفراء، وليس لقبيلته من الزروع والثمار ما يحملونه إلى المدينة قربة خالصة حين يقدمون مؤمنين، فاعتذر قومه بما لحقهم من جدب وإمحال، أما النعمان وإخوته فكانوا أكبر من أن يخضعوا لفاقة مُمْحِلة، فجمعوا ما حول أخبيتهم من غنيمات، وما بداخلها من حَبّ وثمر، وساروا به إلى رسول الله منكرين أن تكون وفادتهم الأولى عارية عن معونة صادقة، تنبىء عن إخلاص وإيثار، وقد تقبل رسول الله هداياهم المتواضعة أطيب قبول، وزكاها القرآن تزكية طاهرة، إذ قال الله عز وجل عن النعمان وإخوته: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم﴾ [التوبة: ٩٩].

وقد انتظم النعمان وإخوته في صفوف المجاهدين، فشهد المواقع الأولى للإسلام، وقام في حفر الخندق بنصيب ممتاز، كما أسهم في النصر بسيفه وعقله، وحين تمت كلمة الله بنصر الإسلام وتقدم الرسول ﷺ لفتح مكة كانت قبائل «مزينة»

تختال في عددها الكثير، وقوتها العظيمة وقد حمل رايتها النعمان وتقدم في الطليعة يثبت ما لدى الإسلام من شكيمة وبأس، وكان يوماً أغر سجلت فيه «مزينة» اعتزازها بالإسلام وسبقها الحميد.

وجاء الامتحان العنيف بعد وفاة الرسول ﷺ في حروب الردة، فقد سار أبو بكر الصديق بنفسه لمهاجمة المرتدين، وكان النعمان صاحب ميمنته، وأخواه عبد الله وسويد على الميسرة والساقة، فقد آثر الفرسان الثلاثة أن يتزعموا كتائب الإسلام في أحرج مواقفه، وأضيق مآزقه، وأبدوا من الجلاد والكفاح ما تفيض به النفوس المؤمنة، وكان النعمان أبرزهم موقفاً، وأشدهم شكيمة، فاتجهت إليه الأنظار، ونيطت به الآمال العريضة بكفاحه ونضاله، فخلّفه أبو بكر بعد الموقعة الظافرة قائداً على الكتائب المتخلفة، ورجع إلى المدينة يفخر بأبطاله الأشاوس، وفي طليعتهم بطل «مزينة» العظيم، وقد رعى النعمان حقوق القيادة، فآثر واستشار، ورسم ونفذ حتى أطفأ الجمرة المشتعلة، ورجع إلى المدينة يحمل ألوية الفوز، ويردد أهازيج الانتصار. .

ولئن كان من لوازم البطولة العربية الساحرة أن يصحبها لسان ذرب وعقل رزين، لتبلغ بصاحبها الأوج في تاريخ العظمة والخلود، فقد رزق النعمان لساناً فصيحاً يجادل به في حومة الإقناع، كما يجالد بسيفه في حومة القتال، ويرسل خطبه الحماسية وشوارده البليغة، فيدفع الجنود إلى التضحية والفداء، وقد أدت بلاغته العالية رسالتها الناجحة، فجادل أعداءه بالبرهان الناصع، وحفظت له كتب الأدب نماذج مختارة من البيان الرفيع. . !

ثم جاء دور الفتح في فارس، فتسابقت القبائل العربية إلى تسجيل أمجادها العريقة، وطبيعي أن تكون «مزينة» في طليعة الغزاة الفاتحين بما قدمت من أسود وأشبال، فانتقلت من جنوب المدينة، إلى أرباض الكوفة وأصبحت تحتل الصفوف الأولى في معركة الكفاح الإسلامي، وتهيأ سعد بن أبي وقاص لقيادة المعركة، وهو يعلم ما سيقدم عليه من ابتلاء رهيب، إذ يرمي بكتائبه المحدودة في متاهة واسعة من السيوف والحراب، ويجالد قوماً تأثل تاريخهم الحربي قروناً عدة، وعقدت لهم الزعامة العالمية في دنيا الصيال والقتال! موقف خطير رهيب يتطلب الحكمة العاقلة بجوار البطولة الباسلة، فاستشار سعد رجاله، ورأى أن يبعث وفداً عربياً إلى يزدجرد قبل المعركة، فيبلغه رسالة الإسلام، وكانت مخاطرة جريئة من هؤلاء الوافدين، إذ يتجهون

إلى طاغية متجبر لا يحترم حقوقاً أو يعبأ بتقاليد، فيسمعونه ما يملؤه غيظاً وكمداً، والرجل في سلطانه نافذ الأمر، رهيب الطلب، فما يشير إشارة، حتى تطير الرقاب، وتتناثر الأشلاء، ولكن الإيمان الحق لا يبالي بالأهوال فيفترض الفروض، ويتربص المخاوف، بل توجه الوفد الإسلامي إلى «يزدجرد»، وكان أعضاؤه من الشكيمة والعقل والأبهة بمكان يبهر العيون ويأخذ بالألباب، فتقدموا ينبئون عمن خلفوا من الكماة الباسلين، وقبل أن يدخل الوفد على «يزدجرد» شاور النعمان أصحابه في اختيار رجل يتكلم فينوب عن غيره، فأجمعوا أن يكون البطل «المزني» لسانهم الناطق، فاندفع يعلن كلمة الحق في صراحة وقوة، وكسرى يستمع مدهوشاً مأخوذاً من أعراب جفاة تبلغ بهم الجرأة أن يقتحموا عرينه، ويهددوا سلطانه..

وكان لغروره السادر يراهم من الاحتقار بمكان لا يتلفت إليه عظيم مثله.. فبدأ يسأل في غيظ وانفعال..!

ماذا جاء بكم..؟ وما دعاكم إلى غزونا والولوغ ببلادنا؟ أمن أجل أنّا أجممناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟ فانتظر النعمان حتى أفرغ جعبته وأجاب في هدوء:

«إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير، ويأمرنا به، ويعرفنا الشر، وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صارت فرقتين: فرقة تقاربه، وأخرى تباعده، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواص، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث، ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب، وبدأ بهم وفعل، فدخلوا معه جميعاً على وجهين: مكره عليه فاغتبط..! وطائع أتاه فازداد، فعرفنا جميعاً ما جاء به على العداوة والضيق مما كنا عليه؛ ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ونحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسّن الحسن وقبح القبيح، فإن أبيتم فأمر من الشر أهون من آخر شر منه، الجزاء - جمع جزية - فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه، على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم».

ما هذا الذي يسمعه كسرى..؟ صواعق ملتهبة لم يتعود أن تطرق سمعه في جبروته! ونيران مشتعلة تعصف به من كل ناحية فتخرجه عن صوابه ويصيح: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى، ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم، قد كنا

نوكل بكل قرى الضواحي فيكفوننا غاراتكم، لا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان عددكم كثر فلا يغرنَّكم منا، وإن كان الجَهْد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خِصْبكم، وأكرمنا وجوهكم، وكسوناكم، وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم، فأسكت القوم. . !

وإجابة كسرى تصور مدى احتقاره للعرب، وتفصح عن تعاظمه وغـروره، وطبيعي أن تنتهي المحاورة بالفشل، إذ إنه لم يفطن إلى كلام النعمان، ولم يشأ له تعاليه أن يسأل عن حقيقة الدين الجديد وصاحبه، وعن أهدافه ومراميه، وأنّى له ذلك وهو يرى في العرب رعاعاً أوشـاباً يعوون إذا نزل بهم الجدب، وداهمتهم السنون!! ولكنه سمع الردود القوية تقصم ظهره، فطاش حلمه، وأمر بوقر ثقيل من التراب ليحمله أعظم وافد عليه احتقاراً واستهزاءً، حتى يخرج من باب المدائن، وقال في غيظ: ارجعوا إلى صاحبكم فأخبروه أنني مرسل «رستم» حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية، وينكل به وبكم من بعد، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور!! ورجع الوفد إلى سعد يحمل الوقر الثقيل. . ! فقال في تفاؤل واطمئنان: أبشروا فقد أعطانا الله أقاليد ملكهم العريض! .

وهكذا تضيء الحقيقة المؤمنة فتنير طرائق الأمل في غياهب اليأس. . ! وتجعل من التفاؤل قوة ناصرة ذات ذخيرة وسلاح، وقد شاء الله لبشارة سعد أن تتحقق، فقد جمع القائد الفارسي عدته وعديده، وخفّ لقتال المسلمين بالقادسية في معركة تعتبر في رأيه ورأي الدولة الفارسية جميعها معركة حياة أو موت، ولا تسل عما أبدى الغزاة الفاتحون من كفاح واستئصال، فقد كان الظفر بالاستشهاد أحب إليهم من التراجع والنكوص؛ وزادتهم كلمات كسرى المتعاظمة جلاداً واستبسالاً، فاندفعوا مستميتين؛ ليعرف من هؤلاء الذين يتحدث عنهم بمثل هذا الحديث، وقد أُخذ رستم بما شاهد، فأمامه قلة تقتحم الكثرة الطاغية؛ فتنجاب عنها كما ينجاب الضباب في ضوء الشمس الوهاج، وكان ينظر ذات اليمين وذات الشمال فلا يرى إلا شراً مستطيراً يوشك أن ينقض عليه في عرينه، فهؤلاء جنوده يتساقطون ويتخاذلون ومن كانت لديه بقية من شجاعة أسلم ساقه للريح؛ وترك المعركة بما يقر عين الإسلام؛ ويعقب النصر للغزاة الفاتحين، وما زال التطاحن يشتد حتى اندحر المجوس، وتركوا وراءهم من الغنائم ما لم يكن يحلم به المسلمون، فأصاب المسلمون كنوزاً ثمينة، وغنموا سمعة طيبة، وزادهم النصر قوة وإيماناً ثم أدوا ما جمعـوه من النضار على وفرته إلى قائدهم

سعد . . ! فقال كلمته الشهيرة: «والله إن الجيش لذو أمانة، ولولا ما سبق لأهل بدر من المكرمة لقلت إنهم على فضل كفضلهم» وطارت البشائر إلى أمير المؤمنين عمر بالمدينة تحمل أنباء النصر وأوساق الذهب، وكنوز الغنيمة، فعمّ الفرح كل مكان، وسجد المسلمون شكراً لله، إذ أمدهم بتأييده؛ ورزقوا في حروبهم الطاحنة كل هداية وتوفيق . . !

وانقضت حومة القادسية، ورجع النعمان إلى «كسكر» ليتولى خراجها ويقوم بتعهدها، ولكنه بطل فدائي لم يخلق للجباية والتحصيل، فهو يعد نفسه للشهادة في حومة الجلاد، ولم يركن إلى الدعة والراحة، ونوازعه تطير به نحو التضحية والاستشهاد، لذلك أرسل إلى أمير المؤمنين يقول: إن مثلي ومثل «كسكر» كمثل رجل شابّ إلى جنبه مومسة تتلون له وتتعطر، فأنشدك الله لما عزلتني عن «كسكر»، وبعثت بي إلى جيوش المسلمين . . !

ما هذا الإيمان الدافق! ما هذه الحمية الأبية! رجل يتولى الإمارة في بلدة عامرة وافرة الخير تُجبى إليه أموالها، ويكون صاحب الكلمة النافذة في هدوء وطمأنينة بال وامتداد جاه . . ! ثم يستهين بما بين يديه من متع ورغائب، ويود أن ينتقل إلى نيران الحروب فيكابد أهوالاً جسيمة ويتعرض للموت في كل لحظة تمر، وللفزع في كل بارقة تسطع!! إنه الإيمان الصادق؛ قد سما بالنعمان إلى أفق الكرامة والعزة، فاحتقر رغائب الحياة ولذائذ العيش، وتطلع إلى مثل رفيع لا يحلم به غير النادرين من أعلام الدنيا وأبطال التاريخ، وقد توالت الأنباء على المدينة بأن «يزدجرد» قد اعتزم أن يثأر للقادسية؛ فجمع جيوشاً تفوق جيوشها عدة وعدداً، وأخذ لكل خطر أهبته، فحفر الخنادق وأعلى الحصون، وأقام الجسور، وأرسل الأرصاد وهيأ المسرح الحربي لقتال مستأصل، وقد سمع الفاروق بذلك، فالتهب حمية وأنفة؛ وأراد أن يسير بنفسه لقيادة الجيوش، ولكن الإمام علياً رضي الله عنه يرى غير رأيه، ويشير بأن يمكث عمر بالمدينة ويبعث بغيره من الأكفاء، إذ إنّ القائد معرّض للمخاطر؛ فإذا رزق الشهادة فلا بد أن يكون أمير المؤمنين من ورائه يختار خلفه، ويرسم الخطة العليا دون أن يصيب المسلمين وهن أو تضعضع . . ! وقد اقتنع عمر برأي علي ونثر كنانته؛ فاختار القائدَ الباسل «النعمان بن مقرن» ليقوم بدوره الخالد وكان اختياراً موفقاً ضمن الحظوة والنجاح . . !

سار النعمان إلى «نهاوند» وقد انضمت إليه كتائب كثيرة تلقت أمرها من الفاروق نفسه، فكان الجيش يزدان بأبطال كماة من الطراز الأول في النضال، منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وحذيفة بن اليمان، ونعيم بن مقرن، وسويد بن مقرن والقعقاع بن عمرو، وأميرهم من فوقهم يرسم الخطط، ويشير بالأمر، ويطير بأصحابه من نصر إلى نصر، فقد افتتح في طريقه «أريق» ذات الموقع الهام ودلف إلى «السوس» فافتتحها وهو واثق من الفوز النهائي في معركة بدأت مقدماتها السارة في الطريق!

ولم يسكت الفاروق عن النعمان، فقد كانت وصاياه تترى إليه وكلها حث على الجهاد، ودعوة إلى الصبر، وتوجيه إلى ما يجب أن يصنع، وكان مما قاله الفاروق: «من عبد الله أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن: سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فقد بلغني أن جموعاً من الأعاجم قد جمعوا لكم بمدينة «نهاوند» فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله ونصره ومعونته بمن معك من المسلمين ولا توطئهم وعراً، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلنهم غيضة، وإن رجلاً واحداً من المسلمين أحب إلي من مائة ألف دينار والسلام عليك..»! الله أكبر...

رجل واحد من المسلمين أحب إلى أمير المؤمنين من مائة ألف دينار!! أهذا كفاح ينتظر الغنيمة والسلب؛ كما يقول الخونة من المغرضين، أم أنه كفاح العقيدة المؤمنة تتقدم برسالتها الوضيئة إلى غياهب الوثنية ومجاهل الشرك الوبيء؟! وبهذا التآخي الحبيب تجمع المسلمون على قلب رجل واحد، وكانوا في عهدهم الأول يداً واحدة على من سواهم، ومن يعجب لتآزر الإسلام وتسانده في نشأته الأولى فليسمع كلام عمر؛ ليدرك البواعث الأصيلة لهذا الاتحاد المتماسك، وليعلم أي أخوة وافية شرعها الإسلام لأبنائه الغر الميامين.

ولم يقتصر الدفاع على القوة، فهي بالغة ما بلغت لا تغني غناء العقل المدبر، والذكاء اللماح. فليعمل الفكر حيله فيما يجبهه من المعاضل والحروب، لقد رأت الطلائع المتقدمة في طريقها إلى العدو مسامير حادة تملأ الجادة، فتوخز الخيل وتعوق التقدم..! فرجعوا إلى قائدهم يتشاورون فيما يصنعون..! وهنا برز العقل الحصيف بدهائه وحيلته فأجمع الرأي على أن يتظاهر الجيش الإسلامي بالتراجع والتقهقر، وما عهد الفرس به غير الهجوم والوثوب، فيضطرون مخدوعين إلى تتبعه ويقومون بجمع الحسك والمسامير من الطريق، وإذ ذاك تتيسر المهمة للغزاة فينطلقون متدافعين إلى

لقاء العدو. . ! وكانت حيلة قوية أدت إلى نتائجها الظافرة، فصالت الصوافن العربية دون عائق، وظهرت البطولة الإسلامية ظهوراً أخاذاً أعاد إلى المجوس ما تناسوه من الفزع والاندحار؛ فانكفئوا مذعورين. . !

ودارت المعركة الحاسمة في نهاوند. . ! تلك التي عبق بها ذكر النعمان في صحائف الخلود، وقرنت اسمه بها في سطور التاريخ، فقد استمر القتال ثلاثة أيام متتاليات، وأيقن الفرس أنهم أمام هزيمة محققة إذا واصلوا القتال فمددهم الزاخر ينقطع ويتفرق، وغُزاتهم دائبون ملحون يتلمسون المقاتل، وينصبون الفخاخ، ولا يدعون لهم وقتاً للروية والانسحاب، وحين أقبل الليل بجحافله السوداء تسربوا تحت دياجيره إلى الحصون والقلاع، فاحتموا بالآطام والصروح، وانحجزوا في الخنادق لا يريمون مكاناً أو يبتدرون سانحة، والمسلمون على الأبواب يؤسفهم أن تحول دون القتال قلاع ساحقة، وحصون شاهقة، فعقد قادتهم مجلساً حربياً يتشاورون فيما يصنعون، وبسط النعمان الموقف على حقيقته مستشفاً ما تنفتق عنه العقول. وإليك طرفاً مما دار؛ قال عمر بن بني: إن التحصن عليهم أشد من المطاولة علينا، فدعهم أيها الأمير وطاولهم، ولا تخرجهم وقاتل من أتاك منهم!!

وقال عمرو بن معد يكرب: ناهدهم أيها الأمير وكاثرهم، واقتحم عليهم الجدران والحصون. . وقال طليحة بن خويلد الأسدي ـ وكان ذا حيلة وعقل ـ: أرى أيها الأمير أن تبعث خيلاً معها فرسانها فيحدقوا بهم ثم يرموهم بالنبل لينشبوا القتال، فإذا خرج إليهم بعض المتحصنين تقهقروا قليلاً فيطمع المجوس ويخرجون كتائب كتائب ثم يستمر التقهقر حتى يتم خروجهم؛ وتأهُّبهم، فنعطف عليهم بسيوفنا وتجري الأقدار بعناية الله وتوفيقه فنغنم الفوز والنجاح.

فقال النعمان بعد أن ناقش جميع الآراء: لقد أصاب طليحة، وهذا ما نرى فيه الخير والسداد، ثم أمر القعقاع بن عمرو التميمي أن يقوم بالمناوشة مع كتيبة يختار أعضاءها من ذوي ثقته، فصدع بالأمر لوقته، ونهض الأمير الباسل فخطب طويلاً جنوده، وقال: إنكم بين خيرين تنتظرون إحدى الحسنيين من بين شهيد حي مرزوق، أو فتح قريب، وظفر يسير، فإذا قضيت أمري فاستعدوا فإني مكبر ثلاثاً، فإذا كبرت التكبيرة الأولى فليتهيأ من لم يكن قد تهيأ، وإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه، وليتهيأ للنهوض، وإذا كبرت الثالثة فإني حامل إن شاء الله فاحملوا معي، ثم رفع يديه

وقال: اللهم أعز دينك، وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك..! وما كاد الفرس يواجهون العرب بعد أن قام القعقاع بمهمته الدقيقة حتى حمل النعمان رايته وكبر تكبيراته الثلاث، واندفع إلى اللظى المشبوب؛ يحمل معه الويل والرعب، ويترك في أعدائه ما تترك البراكين المروعة من هول وتدمير! وقد خاض فرسه في موج دافق من الدماء بعد أن أطاح برؤوس كثيرة تجمعت عليه من كل صوب دون أن يفقد جنانه الثابت، أو يتزحزح عن عزمه الباسل..! خاض الجواد مندفعاً في لجته الحمراء فزلق زلقة انتهزها أحد الأعداء فبادره بسيفه، فهوى صريعاً في مكانه، وكان أخوه نعيم على مقربة منه فحمل الراية قبل أن تسقط وتوجه بها إلى حذيفة بن اليمان، وقد تواصيا على أن يكتما نبأ استشهاده، كيلا يتطرق الأسف إلى النفوس، واستمرت المعركة الهائلة مشبوبة الجحيم محرقة الشواظ حتى اندحر المشركون؛ فتعقبهم الغزاة بسيوفهم، وكان المجوس قد ربطوا أنفسهم بسلاسل حديدية كيلا يحدث أحد نفسه بالفرار، فأدركهم الفزع والرعب، وأخذوا يتساقطون في الخندق المشتعل يجر كل مقيد زملاءه من خلفه حتى بلغ صرعى الخندق وحده مائة ألف..! غير الذين سقطوا في المعركة وهرب «الفيرزان» قائد المجوس، فتتبعه القعقاع بن عمرو، وتم النصر للمسلمين لولا أن مصرع النعمان قد نسج سحابة مظلمة فوق العيون.. فبكاه المسلمون في فارس والمدينة أمرّ بكاء، وتفجع الفاروق عليه وهو يستقبل الغنائم، ويتلقى أنباء النصر، ثم غلبه الحزن فصعد إلى المنبر ونعى الشهيد الحبيب مؤبناً رجولته وبطولته، فضج الحاضرون بالبكاء أسفاً على البدر الآفل، والنسر الذبيح..

ولقد انتقل النعمان من الحياة، ولكن إلى روضة الشهداء في الجنة، وقمة الخلود في سجل التاريخ..

عقبة بن نافع

فاتح إفريقية

يتدخل الحظ في كتابة التاريخ تدخلاً يدعو إلى الدهشة أحياناً، فقد نجد رئيس قبيلة أو أمير مملكة يأخذ من اهتمام الكتاب نصيباً موفوراً تفصل فيه المواقف، وتحلل الحوادث، ولا تترك له واقعة ما دون إفاضة في سرد البواعث واستخلاص النتائج، وقد يكون صاحب هذا التاريخ الذائع المدوي رجلاً عادياً ورث الملك عن أبيه وجده دون أن تؤيـده بطولة خارقة، أو موهبة عالية، ولكنه لشيء لا نعلمه، ونسميه المصادفة دائماً؛ قد رزق الحظوة والخلود، ودار اسمه على الأحقاب دوراناً لامعاً، وعلى النقيض منه نرى بطلاً عبقري الشجاعة فذّ الموهبة، رائع المغامرة؛ قد كسب لوطنه ودينه مجداً تتألق بواهره، وتتعمق جذوره ممتدة إلى الأغوار، فيتردد حديثه على الألسنة سنوات وسنوات، ثم تجر الأيام ذيولها الطامسة على صداه فلا يهتم بدراسته كاتب منصف إلا نبذاً متطايرة متضائلة هنا وهناك، وما تزال تتناثر وتتناثر حتى توشك أن تبيد، وتسأل نفسك عن سر لهذا الخمول الغريب فلا تجد إجابة شافية غير ما يؤكـد أثر الحظ أو المصادفة في إحياء الدارس، وإعادة الطامس، والحظ أسطورة جذابة يتمسك بها من يتطلب الدليل المقنع فيعييه.

هذا هو عقبة بن نافع، بلغ بجهاده ما بلغ خالد وسعد وعمرو وأبو عبيدة، والدنيا جميعها تدوي بخالد ورفقائه. . أما عقبة فاسم شاحب تنطق به الشفاه في خفوت يشبه الهمس، فإذا حاولت أن ترفع بذكره صوتك الممتلىء أعوزك أن تجد السمع المتيقظ، والانتباه الحافز، إلا ما كان من قلة قليلة ذات بصر بالتاريخ، وهذه القلة الطيبة في حاجة إلى مقدمة تمهيدية توطىء لها سبيل هذا البطل الكبير، فتعرف كيف أدى دوره وفي أي ميدان تألق وبزغ، وأنت محتاج إلى أن توضح ذلك بإيجاز أمين.

لقد انتصرت الجيوش الإسلامية على الدولة الرومانية لأول مرة في مشارف الشام، فذعر الروم ذعراً شديداً وأيقنوا بالخطر الداهم يفاجئهم من حيث لا يتوقعون، في حين

ارتفعت الروح المعنوية للجيوش الظافرة، فاتجهت إلى مصر وتقدم الجيش المسلم إلى وادي النيل فأنقذه مما كان يتخبط فيه من عسف الرومان وجبروتهم، وانتشر لواء العدالة بقيام النظام الإسلامي في مصر، وفاض نور الإسلام على وادي النيل، فأصبحت هذه التبعة من شمال إفريقية إحدى معاقله الحصينة، وتشرّب أبناؤها روح الدين الجديد فاعتصموا بحبله وحفظوا قرآنه، وتحدثوا بلغته، ولم يكن بُد من التطلع إلى إفريقية لتنضم برجالها وحصونها إلى الدولة الإسلامية الناشئة، فاتجهت همة القائد الحكيم عمرو بن العاص إليها، فسار غرباً إلى برقة، وطرابلس فافتتحهما وترك بهما حامية عربية، وفي خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه توجه عامله وأخوه من الرضاع عبد الله بن أبي سرح إلى إفريقية على رأس جيش عربي يبلغ عشرين ألف مقاتل، وقد انضم إليه عقبة بن نافع قائد حامية برقة وخرج البربر والروم للقائهم في جيش كثيف يزيد عن جيش الإسلام بما يقدر بمائة ألف مقاتل، ودارت معارك رهيبة ثبت لها المسلمون برغم ضآلة العَدد والعُدد ثباتاً رهيباً، فدارت الدائرة على أعدائهم وأبلى عقبة في هذه الملاحم بلاء حميداً فتألق نجمه، وعُدّ من قادة الإسلام وحماته الميامين.

كان عقبة بن نافع شجاعاً مقداماً وهو من كرام التابعين الذين أدركوا فضلاء الصحابة وأخذوا عنهم الورع والشجاعة والإيمان، وقد امتلأت جوانحه حمية وبسالة، وسحره ما أبداه أبطال الإسلام من فتوة وتضحية فأعجب بحمزة وعلي، وخالد وسعد، وآلى على نفسه أن يقوم مقام هؤلاء الأبطال ليعلي كلمة الله في بلاد تكتنفها الغياهب ويلفها الظلام.

سار عقبة إلى برقة وأبلى أحسن البلاء في جيش ابن أبي سرح وأخذ يتحرق شوقاً إلى لقاء الأعداء في معارك حاسمة، غير أن الخليفة عثمان كان قد استشهد في داره، ووقعت الفتنة بين المسلمين، فقامت الحروب الداخلية فيما بينهم، ووقف طوفان الفتح ريثما تنجلي الغمّة وتتحد الكلمة، وعقبة في حاميته كالأسد السجين فهو ببرقة يتوق إلى الحرية في ميدان النضال حيث تتصل السيوف وتعج الدماء.

وفي عهد معاوية تحقق ما يبتغيه، فقد ولاه الخليفة القيادة وبعث إليه بعشرة آلاف مقاتل ليواصل الفتح، فاندفع القائد الباسل بجنوده، ونفث فيهم من روحه؛ فتقدمهم في كل موقعة؛ وأصبح موضع الأسوة بمهارته النادرة ونضاله المرير.

وكان عقبة يقف بجيشه المسلم أمام الرومان والبربر معاً، والروم قوم متضلعون بفنون الحرب يعملون الحيلة ويرسمون الخطة، والبرابرة معشر كفاح وجلاد، فقد صهرتهم شمس الصحراء، فتسلقوا الجبال واختبروا الآكام والصخور، ونازلوا الوحوش

في أرباض ملتوية، وأدغال كثيفة، فهم أشبه الناس بالعرب حماسة وقوة؛ لولا أن إيمان المسلمين يدفعهم إلى المهالك ويحبب لهم الاستشهاد، هذا إلى أن البرابرة أصحاب الصحراء يعلمون مخابئها ودروبها، ويعتصمون بقللها وآكامها، والمسلمون غرباء نازحون يجهلون ما يجهل الغريب في أماكن لم تطأها قدمه أو يأته عنها حديث.

كانت الصعاب تكتنف الجيش الإسلامي من كل ناحية، ولكن عقبة يستهين بما يعترضه منها، فعليه أن يتغلب عليها باذلاً جهده وفكره وحيلته، ومن ثم فقد استبسل وجالد ومضى يشق البيد، ويطوي المراحل وينكل بأعدائه الأشاوس حتى خافه محاربوه، وذاق حلاوة النصر في مطلع كفاحه، فوثق به جنده وسيطر عليهم سيطرة الحازم البصير، وعالج بالقوة ما يحدث من شقاق، فأخذ الخونة بالجزاء الصارم ليكونوا عبرة بالغة لمن يظهرون الإخلاص في الوجوه ويبطنون البغضاء في القلوب.

تقدم عقبة بأبطاله فأحرز النصر والكفاح، ثم عمد إلى أجمة عظيمة تسكنها السباع والأفاعي، ويرهب البربر وحوشها الكاسرة وهوامّها المؤذية فأزال أحراجها؛ وأعمل الرماح والسيوف في حيواناتها، ففرت هائمة تلتمس النجاة؛ ثم ابتنى فوقها مدينة القيروان، ورأى البربر كتائب الوحوش تفر هاربة من الغزاة الظافرين، فزادته رهبتهم وعدوا ذلك انتصاراً حاسماً للإسلام تؤيده السماء فأذعن الكثيرون لدين الله، وهبوا يساعدون في بناء القيروان، فشيدوا داراً للإمارة، ومسجداً للصلاة، وبيتاً للناس، وفي فترة يسيرة أصبحت حاضرة المسلمين في إفريقية تتجاوب آفاقها بالأذان، وترتل في جوانبها آيات القرآن.

واصل القائد المغوار زحفه وفتوحه، ولكن النبأ يأتي بعزله على الرغم من انتصاره الساحق، ومجده العظيم، فاكتأب البطل أسفاً وحسرة إذ حيل بينه وبين أمانيه، وضاعف شجونه أن القائد الجديد أبا المهاجر، لم يرع له مكانته؛ فلم يطق صبراً على ما يرى ويسمع، وسار إلى دمشق فأبلغ معاوية ما لحقه من تنقص واستخفاف، ومكث في عاصمة الخلافة وفي قلبه أمل بارق يود أن يتحقق عن قريب.

كان أبو المهاجر ينتهج سياسة المسالمة والأمان، فرأى الملاينة سبيلاً ناجحة إلى تجمع القلوب، وتآلف النفوس، فصانع البربر حتى أمنوا جانبه، واعتنق رئيسهم «كسيلة بن لمزم» الإسلام، فجامله أبو المهاجر وشفعه واجتباه، ثم تقدم قليلاً إلى الغرب دون أن يحرز فتحاً مبيناً، والجيوش المسلمة مشوقة تتطلع إلى قائد مغامر يطير بها من نصر إلى نصر، ويعيد إليها أمجاد عقبة وفتوحه الظافرات.

ولم ترض الأقدار للبطل الأعزل أن ينأى عن مسارح كفاحه، وميادين فتوحه، فمات معاوية وأعاده يزيد إلى مكانه من القيادة، فاستقبله جنوده استقبالاً رائعاً، ورجع البطل إلى مضماره الفسيح والأمل يفسح له الرغائب، وينير في عينه الحياة، ولم ينس ما فعله به أبو المهاجر؛ فكال له صاعاً بصاع وأوثقه في الأغلال ثم حمله مكبلاً في جيشه الفاتح ليرى بعينيه انتصاراته الباسلة، فيتحرق في قيده لهفة وخذلاناً، وليت عقبة قابل السيئة بالحسنة فيسجل له الدهر أخذه بالعفو وإعراضه عن المخطئين.

ولا بد من وقفة منصفة يناقش فيها ما أتاه الرجلان، فقد كان أبو المهاجر على خطأ فادح حين استمع إلى نوازعه المغرضة، فاندفع يرهق عقبة بما أحرج صدره وآد قواه، وكأني به وقد لمس مكانة البطل في جنده، وعلم أنه لا يوزن به كفاية وإقداماً، فخاف على نفسه من مقارنة أكيدة يقيمها الجنود في خواطرهم حين يصمتون، ثم تتهامس بها الأفواه حين يتحدثون، فلا بد من الانتقاص والتهجم، وما زال الضعف الإنساني يحيق بالنفوس، فلا تستطيع له دفعاً! هذا الضعف الذي لم ينج عقبة منه حين أسرف في الانتقام لنفسه إسرافاً لا يجدر بفاتح مترفع كبير.

ومهما يكن من شيء فقد تسلم عقبة الإمارة فوصل ما قطعه من الجهاد؛ واستخلف زهير بن قيس على القيروان، وتقدم بجنوده يخوض المعارك الدامية، ويقتحم الحصون والآكام.

وكان حرّ الهجير يحرق الجلود ويرمض الأحشاء وعوائق الطبيعة من جبال ورياح ومضايق تجثم بأهوالها في الطريق، والأعداء يتجمعون من وراء الكثبان والهضاب والوحوش المتنمرة تتربص مع البربر كل هول محيق، ولكن البطل يستهزىء بالخطوب، ويرسم للفتح خططاً محكمة، فيهجم على (باغاية) ويمزق ما بها من الحشود ثم يطير إلى (الزاب) فتسقط (إربه) منكسرة خاشعة تحت أقدامه، ويفر جنودها إلى الهضاب والتلال بعد تلاحم رهيب، وتأخذ عقبة النشوة فيندفع إلى (طنجة) ويستقبله قائدها مصالحاً مسالماً بعد أن أفزعه الرعب، وتحقق الكارثة الفاجعة لمن هم بمكابرة وعصيان. . ! ويتقدم الجيش ليرى في بلاد (السوس) برابرة كالوحوش الضارية حفاة عراة يرسلون الضفائر، ويتسربلون بالجلود ويرسلون الصرخات المنكرة في آذان لم تسمع من قبل زمجرة الوحوش في أفواه الآدميين؛ وتدور المعارك فيتساقط الصرعى من الجانبين، ويتلاحق الطوفان البربري من كل صوب وحدب؛ ولكن القائد يتقدم ويرمي بنفسه تحت الظبا والأسنة والنبال، وجنوده من ورائه لا يحفلون بشهيد يسقط أو جواد يكبو، ويأذن الله بالنصر لدينه، فتخسر الجموع المتراكبة وتتفرق الوحوش الواثبة وترفرف راية الإسلام،

ويندفع البطل إلى الأمام حتى يبلغ المحيط الزاخر تتلاطم أمواجه وتهدر أواذيه فيقذف بجواده إلى الماء حتى يبلغ صدره، ويرفع يديه إلى السماء ليقول في بسالة وإعذار: اللهم إني أشهدك أن لا مجاز للخيول في هذا الماء، ولو وجدت مجازاً لجزت إلى الغرب في سبيل الله!

قوة عارمة تملأ روح هذا البطل الطموح..! لقد توغل في المهامة الشاسعة الأطراف، والمطارح المجهولة إلى مدى لم يخطر بذهن مسلم حين ذاك، وها هو ذا يرجع أدراجه إلى القيروان، وقد اعتقد أن الطريق ممهدة ذلول، والأوبة هينة مسالمة، ولكن الروم والبرابرة يتحرشون بالفاتحين، وكلاهما في حزن مؤرق ساهد، فالروم يلتاعون لملك فقدوه، وعدو يأخذ عليهم الطريق، والبرابرة قد خضعوا خضوعاً منكراً لزعيمهم «كسيلة بن لمزم» وقد اعتنق الإسلام وشايع أبا المهاجر، ثم نكل به «عقبة» حين رجع إلى القيادة فاستذله في قومه بعد عزة، وهذا خطأ كبير دون شك، وبالغ في تحقيره حتى أجبره على سلخ الشياه وغسل القدور..! فثارت ثائرته وهو السيد المطاع، واندفع إلى محالفة الرومان، ونبذ الإسلام، وهذا متوقع جداً ممن كان في مثل موقفه..! وتلك ثانية نعدها على «عقبة» ونجعلها مدعاة بلاء كارث كان من الواجب تلافيه.

أجل لقد دبر البربر والرومان مكيدة أليمة للجيش الظافر، فوقف الروم أولاً أمام «عقبة»، ولكنه أسرع إليهم ببقايا جيشه ولم يكن يتوقع أن يهاجمه البربر من الخلف بقيادة «كسيلة»..! فما لبث أن وجد نفسه بين المطرقة والسندان فأعداؤه يحاصرونه برماحهم وخيولهم في كل مكان وكان أبو المهاجر العظيم لا يزال مكبلاً بالأغلال، فثارت حمية الإسلام في نفسه، وعزّ عليه أن يجد أبناء دينه ودمه ولغته يتساقطون، فصرخ في الأغلال، واستنجد بعقبة ليفك وثاقه فيقف مع قومه في مأزقهم الكريه، واستجاب عقبة إلى ندائه فخلى عنه، ونسي البطلان ما بينهما من خصام، فتقدما الصفوف معاً في حمية واستبسال، والعدو يبرق ويرعد والثقة من الجنود يتهاوون شهيداً خلف شهيد، ويخلف النصر هذه المرة وعده للغزاة الظافرين، فيستشهد أبو المهاجر في حومة النار بعد أن ضرب المثل الأعلى للحمية العاقلة والرجولة المترفعة عن النزوات، ويتبعه عقبة فيظفر بالاستشهاد وقد بذل المكنون من بطولته وحيلته، ولكن أجل الله قد جاء..

ولا بد من وقفة ثانية نناقش فيها ما أتاه البطلان، فقد سجلنا عليهما في الوقفة الأولى استجابتهما معاً إلى الضعف الإنساني الأليم، ولكننا في هذه المرة نستلهم البيان أصفى مشارعه لنحيي هذين العملاقين، فقد هتف بهما الإيمان الحي أن يتذكرا الإسلام في أحلك المواقف، فينسيا أحقادهما السالفات، واندفع كلاهما في لجب الموت الطائش

يخط مصرعه فوق ركام من جثث الأعداء، حتى إذا ضاق المأزق لقي الله بطلاً باسلاً تفوح أدرانه بالطيب، ويتألق وجهه بالثواب.

لقد أعاد عقبة بجهاده في إفريقية أمجاد اليرموك وحمص والقادسية وبابليون، بل إن الأستاذ محمود الخفيف ليرى أنه قد فاق خالداً وأبا عبيدة بما قام به من نضال، وها نحن ننقل هنا بعض ما قال:

«لقد حارب خالد قوماً هدّهم الغرور والترف، كانوا قبل لقاء المسلمين بأسهم بينهم شديد، فلم يكونوا حين ساقوا جموعهم يدافعون عن عقيدة أو يذودون عن مبدأ، بل كانوا يقفون في وجه عقيدة منبعثة من الصحراء، الموت في سبيلها أحب إلى أصحابها من الحياة، وكان المسلمون تحت راية خالد وأبي عبيدة يقتُلُون ويقتَلُون، وقد باعوا أنفسهم وأموالهم من الله بأن لهم الجنة، كلمتهم كلمة أميرهم، ووجهتهم وجهة خليفة رسول الله ﷺ فيهم فلا تنازع ولا تنابذ ولا إحن ولا انقسام.

أما عقبة فقد جاء دوره بعد أحقاد وأحداث فرّقت الكلمة بين المسلمين، وجعلتهم شيعاً، وكادت تأتي على بنيانهم من القواعد، جاء دور عقبة في الجهاد بعدما كان في الإسلام مَنْ قتل عثمان، وبعدما كان من أمر الجمل وصفين، جاء دوره بعد أن عرف الإسلامُ الخوارجَ وغيرهم من الأحزاب، وبعد أن عرف المسلمون طريقة أخرى في الغنائم والأسلاب وكان عقبة يحارب الروم والبربر؛ وكان البربر أُولي بأس وعناد، جُبلوا على الحرية، فما كانوا يعرفون ما الخضوع. .؟ طبيعة نفوسهم كطبيعة بلادهم، فيها مناعة الجبال، ووعورة الجبال، وفيها صرامة البيد وبساطة البيد، فهم لذلك في القوة كالمسلمين المهاجمين يطرحون نفوسهم تحت المنايا ولا يطرحونها تحت أقدام الفاتحين».

وإن بطلاً ينتصر بجنوده القليلين مع هذه الموانع لجدير بالمحمدة والتبجيل، ويكفي أنه جاهد وجالد حتى جاد بنفسه سهلة راضية في سبيل الإسلام.

عبد الله بن الزبير

الشجاع الأبي

كما يدل العود الصغير في التربة الطيبة على ما ينتظره من نضرة زاهية في منظره، وثمرة شهية في مستقبله، ثم يتعهده الغارس بالري والتنمية.. حتى يترعرع على الأيام ساقه، وتتهادى مع النسيم أوراقه وثماره كذلك ينمو الناشىء الصغير رويداً رويداً وفي عينيه بريق يومض بالنجابة والذكاء، وفي فمه لسان ينبىء عن الألمعية المتيقظة، والبديهة الآخذة، وفي أفعاله مخايل صادقة تسفر عن العزيمة الصادقة والإرادة الصلبة حتى إذا أسلمه الصبا الغض إلى الشباب الحاد؛ تكشفت براعمه المكنونة عن أحسن ما تنكشف عنه معادن الرجال من فراسة نظر، وعمق تجربة، وهمامة نفس، وهكذا كان عبد الله بن الزبير في طفولته هلالاً يتكامل ضوؤه في سطوع، ويمتد شعاعه في قوة حتى إذا عبرت به الأيام في سيرها الدؤوب تطلعت العيون منه إلى بدر متوج، يتخلى من أوجه في أرقى منال، ويسطع من عزه في أعلى سماء!.

أجل لقد كانت بوادره العجيبة في طفولته مثار الدهشة والإبداع، وإذا كانت اللمحة السريعة من الطفل الصغير تروع ذوي الفراسة بما ترمز إليه من ذكاءة وافتنان، فإن كل رائعة ممتازة من بداءة عبد الله كانت ترى مألوفة معتادة في نفوس ذويه، لما توالى عليهم من بدائعه النافذة، وتقاطر دونهم من فرائده الفاتنة، ولا عجب فقد تربى في بيئة صالحة كريمة، وتعهدته أمه ذات النطاقين بأسمى ما عرف في عهده من التربية والتقويم، ورأى في جده العظيم أبي بكر مثالاً عالياً للمؤمن الطاهر في صلابة إيمانه، وصدق يقينه وصفاء قلبه، كما شاهد في والده الزبير شجاعة الواثق بربه وإخلاص المعتز بدينه، وفدائية المقاتل عن عقيدته، أما جدته صفية بنت عبد المطلب فقد جمعت أكرم العناصر الطيبة، وأنفس الأعلاق المدخرة، وإذا درج الطفل هذا المدرج في حجر هذه الأم الرؤوم، تلك التي نافست الرجال منافسة عارمة في كبت العواطف،

وقهر النوازع كما ورثت عن أبيها الطيب، وزوجها الكفء أسمى ما يمتدح به الناس في أقوالهم من نقاء الصفحة، وبلاء التضحية.. أقول: إذا درج الطفل هذا المدرج في كنف هذه البيئة الأصيلة فلا تسل عما تتميز به تربيته القويمة من استشراف للعظام، وتطلع إلى التحليق، ورسول الله ﷺ من وراء ذلك يغذي الشبيبة الإسلامية بتعاليمه الطاهرة ويفتح النوافذ الموصدة على أضواء متألقة باهرة، تصل إلى أعماق النفوس، فتكتسح الغياهب، وتجلو الشكوك وتنشىء من الشباب المسلم نموذجاً رفيعاً يشغل الناس بمجده، ويبهر الدنيا بفتوحه، وعبد الله أحد هؤلاء الشباب المتوثبين ذوي الأمل النازح والمطمح البعيد.

ترعرع الأملود الصغير لدن جالد الإسلام الوثنية بسلاح لا يفل من الصبر والشجاعة والإيمان، فهب الطفل الناشىء ليرى في سنه المبكرة والده الزبير يغدو ويروح إلى الحرب، متقلداً سيفه، راكباً جواده، وتوالت على مسمعه الغض أحاديث الوقائع في بدر وأحد، والأحزاب وخيبر، فأولع بالفروسية والكفاح، وتمنى أن يقذف بروحه في طوفان لجب من السيوف والأرماح، وإذ عجز الواقع أن يتيح للصغير مأمله في ساحة الحرب فإنه لينشىء بنفسه ساحة أخرى بالمدينة تطفىء حنينه الملتهب إلى ميادين الصيال، فأخذ يجمع لداته من الغلمان في عسكرين يتقابلان، ثم تنقض كتيبة على كتيبة، وإن الحماسة العارمة لتدفعهم ـ في تمرينهم العملي ـ إلى التمثيل الدقيق في المسرح العاصف، لتكون البطولة ناضجة جياشة حين يشتد العود، وتصلب القناة، على أن هيامه بالبسالة قد أورثه ثباتاً واقتداراً، فكان في عهده الناعم يناقش رسول الله ﷺ ويساجله حتى قال عنه: «إنه ابن أبيه!».

وقد بلغ حب الغلام لرسول الله ﷺ مبلغاً ملك عليه جوارحه، وتغلغل إلى المسارب الدفينة في أعماقه، ومن ذلك أن محمداً ﷺ قد احتجم ذات ليلة، وأعطى الناشىء الصغير دمه الشريف ليهرقه، فلما ذهب به عبد الله شربه عن آخره، ورجع إلى الرسول الكريم ﷺ يقول: لقد جعلت دمك الطاهر في مكان يخفى على الناس!! فقال رسول الله ﷺ ـ وقد فطن إلى ما سمع ـ: لعلك شربته فقال: نعم، وكأني بعروق الغلام وقد سرت بها نشوة البهجة حين اختلطت بدمائها النابضة قطرات من دم محمد، فاعتقد ابن الزبير أنه أضاف إلى كيانه قوة روحية تطهره وتزكيه وهذا العمل في ذاته مضافاً إلى كثير مثله مما اشتهر به المسلمون في تعلقهم برسول الله ﷺ؛ برهان رائع

على الحب الخارق، والإيمان النادر، وبهذا الحب الخالص أمكنهم أن يتخذوا منه على سمو أهدافه، وعلو آفاقه، قدوة حسنة فرزقوا سعادة العيش في الدنيا، ونعيم الفردوس في الآخرة.. أيّ شجاعة كانت لهذا الناشىء الصغير؟! فقد مر عمر بن الخطاب ذات يوم بشوارع المدينة وبها أطفال يلعبون ويتحدثون، فتفرقوا بدداً حين طلع عليهم صاحب الهيبة المربكة، وبقي عبد الله في مكانه لا يريم..! فقال له عمر: لَمَ لم تذهب مع إخوانك يا غلام؟ فقال قولته المشهورة: لم أكن مذنباً فأخافك..؟ ولم يكن الطريق ضيقاً فأوسعه لك يا أمير المؤمنين.

وإذا كان الفاروق من المهابة والجلالة في مربأ تتطامن دونه أعناق الجبابرة المتمردين؛ فإن بسالة عبد الله في مواجهته؛ لأحد شواهد مستقبله الألاق، ولك أن تضيف إلى بسالته فصاحة حكيمة تتضح بها حكمة الإجابة وسداد المنطق، ولعل بيانه الرفيع قد مهد له السبل - فيما بعد - إلى السيطرة والنفاذ، فما قاد النفوس الناشزة كالمنطق الساحر يتدفق على لسان بطل مرموق..

لقد هاجت نوازع الصبي الناشىء إلى الحرب وما استطاع أن يرى أباه الزبير يغدو ويروح إلى قتال الوثنية في الفتوح الإسلامية وهو قابع في المدينة، يمثل الشجاعة في أدوار مسرحية تجنح إلى الأحلام والخيال، فصمم على أن يلج الحروب العملية في طراوة العمر، ومقتبل الشباب، وناقش الفتى وصابر وجالد وحاور حتى رضي والده بأن يصحبه إلى قتال الروم يوم اليرموك، وكان الوالد الشفيق خائفاً على نجله الغض، ثم لم يجد مناصاً من إردافه معه على جواد واحد..! وقد أعطاه سيفاً باتراً، وانطلق الجواد بفارسيه يقطان الرقاب في رحلة عاصفة مع الأهوال، دون أن تطير بالصغير الناشىء رعشة من خوف أو خفقة من اضطراب..! وكان منظراً ساحراً أخاذاً عجب له المسلمون، وأقبلوا بعد الموقعة الظافرة يهنئون الوالد الكبير بالبطل الصغير.! فيا من رأى جواداً واحداً ينطلق بفارسين.! ويتحصن من عدته بسيفين.. قبل مشهد اليرموك وما أعقبه من نصر مؤزر وبلاء حميد.

مرت الأيام على عبد الله تزيده قوة وثباتاً، وتمنحه عزيمة الرجولة، وصرامة البطولة حتى عد في طليعة الأبطال الكماة، واصطفاه أمير المؤمنين عثمان بن عفان ليكون على رأس المدد الناهض إلى إفريقية فيسعف عبد الله بن سعد في غزواته الشاقة بالمهامه الشاسعة الأطراف والمطارح النائية.! وسار ابن الزبير مع جيشه يحمل عزيمته

الماضية، وإيمانه الجريء، لا والله ما ركن في المسير إلى راحة أو تلبث، حتى وصل إلى ميدانه، وانضم إلى لواء عبد الله بن سعد، ومضى اليوم الأول وهو يدير الفكر، ويجيل الرأي فلم يجد خطة ابن سعد في حربه مغنية في مثل موقفه، فهو يقاتل أعداءه صدر النهار، ثم يرجع بجنوده حتى يحين اليوم التالي فيهيىء لعدوه فرصة مديدة كل يوم للاستعداد.. والتأهب.! وهذا ما يبطىء بالنصر إلى مدى تتحرق له النفوس، فأنكر الشاب الوافد خطة قائده، وأشار بتقسيم الجيش إلى فريقين، فريق يقاتل عدوه صدر النهار ثم يجنح إلى الراحة المتيقظة ذات الحذر البالغ، والتأهب السريع، وفريق ثان يتعقب العدو في الظهيرة فينهك قوته، ويفل عضده، ويبدد جمعه..! وقد أخذ القائد برأي صاحبه، وتزعم عبد الله الفريق الثاني، ثم هجم على العدو هجوماً أفزعه وشرده، وضمن للمسلمين النصر في مدى قصير، ولقد كان «جرجير» قائد الجيش المنهزم في قوة سابغة من دروعه وسيوفه، وشكيمة مرهبة من حاشيته وحرسه..! وكان له بالميدان زأرات صارخة الدوي، عالية الرنين فوجه عبدالله همه إلى غريمه، ورأى في مصرعه خوراً في نفوس أجناده، وهزيمة يتزلزل لها الكيان المناوىء تزلزلاً مبيداً، ومن ثم فقد جمع أطراف قوته، واختار كماة كتيبته، وعمد إلى القلب بين الميسرة والميمنة، فصاول الموت في سجال جنوني رهيب، لم يهدأ إعصاره الجارف حتى سقط رأس «جرجير» بضربة من ذبابة عبد الله فكبر المسلمون تكبيراً مدوياً، وغنموا غنائم طائلة يبالغ فيها الكاتبون مبالغة ترتكز من الواقع على أساس متين..! ومن الرائع المدهش أن عبد الله بن سعد قد عرض قيادة الجيش العامة على ابن الزبير، وبذلك يصبح والي إفريقية الظافر، ولكن الإخلاص لمهمته يدفعه إلى الرفض الحازم، مؤثراً لنفسه أن يرجع بكتيبته إلى المدينة بعد أن أدى مهمته الحربية..! ليضعه الخليفة حيث يشاء..!!

لقد كان اختيار عثمان موفقاً كل التوفيق، فهو إذ أرسل عبد الله لم يرسل قوة تمد القوة بالسلاح وحده..! فلو اقتصر الأمر على الصيال المتقطع ما بلغ النصر مبلغه الأخاذ، ولكنه بعث مع القوة فكراً ناهضاً واثباً يفعل بالخطة المدروسة، والحيلة المحبوكة ما لا تفعله السيوف المنهمرة والرماح المتدافقة، واختصرت الزمن اختصاراً يفسح للراحة مهاداً وثيراً، ويضاعف الغنيمة أضعافاً مضاعفة، فيا لله للعقل المدبر، والنظر الحصيف!!

دقت بشائر النصر في كل مكان، وطار ابن الزبير إلى عثمان بالمدينة ليخبره

بالظفر المؤزر، ويعيد على سمعه ما شاهد وما صنع، وقد استمع أمير المؤمنين إلى قائده الشاب فترنحت أعطافه تيهاً بحسن اختياره، وباهر نتيجته، وأخذت بلاغة الفتى الشاب مأخذها من نفس الخليفة المعجب، فأحب أن يقوم ابن الزبير بنفسه، فيغرد بفصاحته المؤثرة على منبر المدينة، ويردد نغمات النصر في خطبة عميقة الصدى، عذبة الإيقاع، ولكن!! ربما تهيّب الفتى الباسل مقامه في الذروة بين الناس، فتلجلج الحديث على شفتيه، وانعقد لسانه المتدفق عن الفيضان..! ذلك هاجس هجس في نفس عثمان، فسأل فتاه: أرأيت لو جعلتك تتكلم في المسجد مع الناس عن غزاتك الميمونة، أكنت تجيد..؟ فجاءه الرد مؤيداً بدليل من الواقع وحجة من المنطق، إذ يقول عبد الله: يا أمير المؤمنين أنا أهيب لك مني لهم.! وفعل الرد المقنع فعله في نفس الخليفة فأذن لابن الزبير أن يخطب الناس في يوم أغر محجل، فقدم الكلام بنموذج رائع من البلاغة تحفظه كتب الأدب والتاريخ، ثم عمد إلى موضوعه فقال: «أيها الناس رحمكم الله، إنا خرجنا للوجه الذي علمتم، فكنا مع وال حافظ حفظ وصية أمير المؤمنين، فلم نزل على أحسن حالة من ربنا حتى انتهينا إلى إفريقية، فنزلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل ورغاء الإبل وقعقعة السلاح، فأقمنا أياماً نُجِمُّ كُراعَنا ونصلح سلاحنا، ثم دعوناهم إلى الإسلام والدخول فيه، فأبعدوا منه، وسألناهم الجزية عن صغار أو الصلح، فكانت هذه أبعد، فأقمنا عليهم ثلاث عشرة ليلة تختلف رسلنا إليهم، فلما يئسنا منهم نهضنا إلى عدونا وقاتلناهم أشد القتال يومنا ذلك، وصبر فيه الفريقان، فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرون، واستشهد الله رجالاً من المسلمين، فبتنا وباتوا، وللمسلمين دويّ بالقرآن كدوي النحل، وبات المشركون في خمورهم وملاعبهم، فلما أصبحنا أخذنا مصافنا التي كنا عليها بالأمس، فزحف بعضنا على بعض فأفرغ الله علينا صبره، وأنزل علينا نصره، ففتحناه من آخر النهار، وأصبنا غنائم كثيرة وفيئاً واسعاً»، ثم سكت. فضج المسلمون بالابتهاج، وقام الزبير فعانق ولده وقبله ـ فقد عرفه قبل ذلك فارساً بطلاً ـ، وها هو ذا يعرفه خطيباً بليغاً يمتلك زمام القول، ويتصرف في أفانين الكلام، وقد كان عبد الله موفقاً حقاً، فقد أعذر الأعداء، إذ عرض عليهم الإسلام أو الجزية، كما صور جنود الله في إيمانهم السابغ، واعتصامهم بالقرآن تصويراً يدفع إلى التقدير والإعجاب، ويرشد عن السر الهائل في هذا الانتصار العظيم الذي أحرزته الجيوش الإسلامية في مختلف الميادين!.

أسرعت الحوادث في سيرها، فثارت الثائرة على عثمان رضي الله عنه ووقف

عبد الله أمام الثائرين؛ يدافع الجموع، ويذود عن عرين الشهيد المظلوم، وكان معه الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وفريق ممن صدقوا الله وعده، فما تركوا جهداً إلا بذلوه وقد أصيب الحسن وابن الزبير، وكرت الدائرة بما لا يشتهون، فصعدت روح الشهيد إلى بارئها الرحيم، وقامت الفتنة الهوجاء، فاندفع المغرضون والغافلون ينقمون من الإمام علي ذنباً لم يقترفه. وكان عبد الله في طليعة من قادوا المعركة يوم الجمل، فألبوا الجموع على علي. ونحن هنا نكتب تاريخاً واقعاً نستلهمه العبرة والعظة، ولن يمنعنا الإعجاب بعبد الله من أن نسجل عليه ما قد تورط فيه من خطأ ظالم، حين ألب الجموع على الإمام العادل رضي الله عنه. ومثله في حصافته النافذة وخبرته العميقة لا يجهل مكان الإمام في قومه، وبلاء أبي الحسن في دينه، فقد كان علي فتى الوقائع المشرقة في بدرٍ والأحزاب وخيبر، وهو بدينه المتين وعلمه الغزير وشجاعته النادرة أحق الناس بالخلافة في أمد حائر تكالبت عليه الأطماع، وتدافعت الأهواء تعلن عن رغائبها الدفينة، وآمالها البعيدة، وصاحب الحق أبلج مشتهر، لا يجهل مكانه، ولا تجحد عوارفه، فإذا اندفع عبد الله إلى مناهضته المخطئة فقد اندفع اندفاعاً لا خير للإسلام فيه والنفس الإنسانية لا تعدم فترات تتغلب فيها الوساوس فتحجب اليقين لحظات عن العيون، ونحن إذ نلوم ابن الزبير على موقفه هذا إنما نقرر أن الكمال المطلق منال لم يتح لغير من اصطفاهم الله من الأنبياء والمرسلين، وأن العظماء من قادة الرأي وساسة الأمر مناط الأسوة في محامدهم، ومجال العبرة في تخلفهم، فإذا كنا نقتدي بهم في بعد الهمة وسموق المدى، فإننا نعتبر بأخطائهم فنتحاشى أن نتورط فيما اندفعوا إليه من جموح، ولا سيما إذا أدرك العظيم خطأه، فرجع إلى نفسه باللوم والتثريب، فهو يعترف بشططه قبل أن يأخذه عليه المنصفون..!

والعجيب أن الزبير بن العوام والد عبد الله قد نفض يده أولاً من مقاتلة علي، ولكن نجله الثائر دفعه إلى القتال دفعاً لا هوادة فيه. يقول الزبير رحمه الله: (ما شهدت موقفاً في الشرك ولا في الإسلام إلا ولي فيه موقف وبصيرة، غير هذا الموطن، فإنه لا رأي لي فيه) وسأله رجل عن موقفه فقال: مغلوب مغلوب!! يغلبني ابني ويطلبني ذنبي! وأنت تلمس لاذع الأسف وبالغ الندم في عبارته الحزينة، وقد أدرك الإمام كرم الله وجهه موقف الوالد فقال: «ما زال الزبير رجلاً منا ـ أهل البيت ـ حتى أدركه

ابنه عبد الله فلفته عنا»! والزبير من أهل البيت فأمه صفية بنت عبد المطلب بن هاشم، فهو من علي قريب قريب!!

ومهما يكن من شيء فقد انتهت الثورة، وأدرك عبد الله شروده النافر فاعتزل الخلافات السياسية حقبة طويلة، ولزم بيته يصلي ويتعبد مستغفراً، وجعل يخرج في الكتائب الغازية حرصاً على المثوبة والجهاد، وكان خشوعه في صلاته ذائعاً مشهوراً حتى قال عمرو بن دينار: ما رأيت مصلياً أحسن صلاة من ابن الزبير..! ظل عبد الله بمنأى عن السياسة بعد مصرع علي فكان لا يلج أبوابها كي لا يثير عاصفة بعد التئام الشمل، وإجماع المسلمين على خليفة واحد، ولكنه ظهر على المسرح ظهوراً أخاذاً حين رأى الخليفة الداهية يمهد لبيعة يزيد، وتلك سابقة أولى في الإسلام لا بد أن تجد المعارض الغيور في قوم يتمسكون بالحق ولا يريمون، وقد عرف معاوية أن ابن الزبير ورهطاً من رفاقه سيكونون عقبة في طريقه فأجهد نفسه في التدبير والتذليل، وسار في طريق وَعْرٍ تكتنفه الصعاب..!

كان عبد الله يرى للخلافة حرمتها العزيزة، ويعلم أن إهداءها للأبناء خطر يهدد مبادىء الإسلام، فآلى على نفسه أن يجابه الخليفة مجابهة لا ينفع فيها الدهاء، ويقتضينا الإنصاف للحق وحده أن نذكر أن اتجاه معاوية إلى استخلاف وليده كان خطوة نائية باعدت بين الواقع المغرض ومُثل الإسلام الرفيعة، فدين محمد لا يعترف بالكسروية الوراثية، بل يعطي الرعية حقها الصريح في اختيار حاكمها الذي تريد، ولكن النقاش الذي دارت رحاه بين معاوية وخصومه يجزم جزماً أكيداً بأن الرجل كان في خطواته الجريئة متأثراً بعواطفه الذاتية، وحديثه مع معارضيه عن قريش وعبد مناف وعدي وتميم؛ يؤكد أن العصبية القبلية ما زالت تمتد بجذورها العميقة إلى أغوار نفسه؛ وكأن الله لم يجعل الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا بل لتشرئب بعض الأعناق في قبيلة، وتتطامن الرؤوس في قبيلة أخرى، كما يصيح بذلك منطق الرجل الصريح، ولم يشأ الخليفة أن يجاهر بنفسه أولاً بضرورة البيعة لنجله، بل اصطنع بعض المأجورين ليتقدموا بهذه الرغبة إليه في ملأ من الناس حتى تكون منه الموافقة والتنفيذ لا الأمر والإيجاب، ولكن الباطل يضطرب في مهب الحوادث فتتهلهل ستائره، وتجلي العيون سنا الحقيقة في وضوح..! فقد هبت الضمائر الحية تستنكر ما يحاك في قصر الخلافة من تآمر وكانت المدينة بأفذاذها الغُيُر وعبادلتها المخلصين أشجع غابة زمجرت

بالإعصار الصاخب في وجه معاوية؛ فَدَوىٰ الزئير في أذنيه مجلجلاً، وفزع إلى الحيلة كدأبه، فأظهر من الهدوء المتربص ما يطفىء بمائه الجمر المشتعل في النفوس، ثم تقدم إلى يثرب فجمع العبادلة الأربعة (ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وابن جعفر) وهم يومئذ مهوى الأفئدة، وقبلة الأنظار، ثم أخذ يمهد لرغبته المجحفة تمهيداً يظن أنه سيطامن من النفوس الجامحة فقال:

«أما بعد فقد كبرت سني، ووهن عظمي، وتسرب أجلي، وأوشكت أن أدعى فأجيب، وقد رأيت أن أستخلف عليكم يزيد، وأنتم عبادلة قريش وخيارها وأبناء خيارها ولم يمنعني أن أحضر حسيناً وحسناً إلا أنهما أولاد أبيهما، على حسن رأيي فيهما، فرُدوا عليّ خيراً يرحمكم الله». وكان الخليفة يظن أنه بقوله المتكسر وابتسامته الهادئة، ووعده الخادع سيحمل مخاطبيه على شيء من المجاملة الرقيقة إذا تقدم بالإطراء المصطنع لسامعيه، فيفوز بمأرب ملح يسيطر على نوازعه سيطرة لا فكاك من سلطانها القاهر، ولكن صوت المعارضة يرعد في أذنه من كل فم، ويأخذ بتلابيبه من كل ناحية، وعبد الله أشد رفقائه حرداً واستنكاراً، وأعلاهم حجاجاً ومناكرة، فانخذل معاوية دونه انخذالاً جارحاً وأيقن أنه إزاء قوة توشك أن تعصف بتدبيره، فسكت على غيظ وارتحل ليدبر. . !

رجع الخليفة إلى دمشق ووُلاته على المدينة يبلغونه في كل يوم تأثير ابن الزبير على الناس، فأفزعه أن تزأر الأفواه الغاضبة بيقينها الصراح على الملأ فتستجيب لها القلوب في ثبات وإذعان، ولئن استمر في إغضائه المتحلم لانفلت الزمام من كفه أسرع انفلات، وإذن فلا بد من كرة ثانية إلى المدينة، ولا بد من مهاجمة معارضها الأول ابن الزبير مهاجمة تكف غربه وتلين قناته فهو ـ في منطق الخليفة ـ أقل ذوي المكانة بها حسباً، وإذا طعن من هذه الناحية فسيتقهقر تقهقراً ينقطع به صوته الجهير، وكان للرجل ما أراد، فارتحل ثانية إلى المدينة، وجمع عبادلة الإسلام ومعهم الحسين ثم نظر إلى ابن الزبير نظرة معبرة وقال يعيره: «إياك أن تقع في عرانين عبد مناف، أما والله لئن دفعت في بحور بني هاشم وبني عبد شمس لتغطينّك بأمواجها ثم لتهوين بك في أجاجها، ما بقاؤك في البحور إذا دفعتك، والأمواج إذا غمرتك». قال ذلك معاوية ليرضي الحسين من ناحية، وليشعر الناس أن ابن الزبير بمكان لا يجيز له الاعتراض واللجاج. . ! ولكن الحمية الغاضبة تدفع عبد الله إلى الرد المفحم، فيصيح على ملأ

من الناس: «أسألكم بالله أتعلمون أن أبي حواري رسول الله، وأن أباه أبو سفيان. . ! وأن أمي أسماء بنت أبي بكر، وأمه هند آكلة الأكباد، وجدي الصديق وجده المشدوخ ببدر ورأس الكفر! وعمتي خديجة ذات الخطر، وعمته أم جميل حمالة الحطب، وخالتي عائشة أم المؤمنين، وأنا عبد الله، وهو معاوية».

أي رد هذا؟ لقد فتح الخليفة على نفسه باباً من التقريع، وكان أحرى به وهو الأديب الحصيف أن يتجنب مزالق المجابهة والتنديد ثم متى كان الفخر بالأحساب سلاحاً يشهره خليفة الإسلام في وجوه معارضيه، وقد جاء محمد ﷺ ليجعل الناس سواسية كأسنان المشط. . ! إن المساواة العادلة لأساس الصرح الأشم الذي نهض محمد ﷺ ببنائه فكيف يعود أمير المؤمنين بالعصبية المنكرة إلى جاهليتها المتنازعة، وقد اجتثها الإسلام اجتثاثاً لا هوادة فيه، على أنه وقد أسكته الحق الصريح لم يشأ أن يفيء إلى منطق الشورى المنصفة، فيترك أمراً لا خير للإسلام فيه، بل جرى في الشوط إلى غايته، فاجتمع بالعبادلة مرة ثالثة وقال في سمته الهادىء ودهائه البالغ: «لقد علمتم نظري لكم، وتعطفي عليكم، وصلتي أرحامكم، ويزيد أخوكم وابن عمكم، وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة وأنتم تأمرون وتنهون»، أجل! يقدمه للخلافة، ويتركهم يأمرون وينهون. . ! أيستقيم ذلك في ميزان، وإذا لم يأمر خليفة الإسلام بفضائل دينه، وينهى عن منكرات رعيته، فما بقاؤه في منصبه! إنها آمال براقة، يحاول معاوية أن يغر بها قوماً يدركون خوافي سريرته ويبصرون دقائق مساربه، ولكنها تبددت هباء حين اندفع ابن الزبير ليرد في صلابة منطق وقوة يقين، فيقول: «نخيرك يا أمير المؤمنين بين إحدى ثلاث أيها أخذت فلك رغبة، وفيها اختيار، إن شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله ﷺ، قبضه الله ولم يستخلف، فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم، وإن شئت فاصنعِ ما صنع أبو بكر: عهد إلى رجل بعيد، وترك من ولده ورهطه الأدنَيْن من كان لها أهلاً لو أراد، وإن شئت فاصنع ما صنع عمر: صيّرها إلى ستة نفر من قريش يختارون رجلاً منهم، وترك ولده وأهل بيته، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلاً». فقال معاوية: هل غير هذا؟ قال: لا، فقال للآخرين: ما عندكم؟ فقالوا: نحن على ما قال ابن الزبير!!.

هذا طرف من الجدل الذي كابد معاوية مرارته، وتحمل شجونه وتباريحه، وقد حرصنا على أن نذكره ليعلم القارىء مدى شجاعة ابن الزبير، وكيف صدقت فيه

المخايل والظنون، فأبدى من الشجاعة الأدبية في مضمار الجدل ما فاق بسالته الخارقة في ساحات القتال، وقد صمم الخليفة على رأيه، فبذل الأموال، واشترى الضمائر، وكانت سابقة جارحة في الإسلام نذكرها آسفين، فلو لم يقدم الرجل على فعلته لاطرد الحكم الإسلامي سابقاً إلى مثله الأعلى، ولظلت تعاليم محمد سافرة وضيئة؛ تعلن للناس قداسة الشورى، وأصالة المساواة، على أن يزيد لم يلِ الحكم إلا ليزيد الفتنة اشتعالاً، واللهيب اندلاعاً، فقد كثرت الأحزاب السياسية، وانصرف المسلمون إلى قتال أنفسهم، بعد أن كانوا يجالدون الوثنية فيما حول الجزيرة العربية من ممالك وإمارات، وسالت الدماء العزيزة كل مسيل، إذ وقع بأس العرب بينهم وأعداؤهم يرمقونهم شامتين مشتفين..! حتى حلت النكبة القاصمة فصرع الحسين في قلة من جنده، وتحرشت السيوف بنفوس طاهرة، وجزع المسلمون في كل ناحية على البطل الشهيد، فقامت المآتم المهولة، ودوت الصرخات الفاجعة ولا يزال صدى المصرع الرهيب ـ على تناسل الأجيال ـ يملأ القلوب حسرة، ويفيض بالدمع الزاخر من المحاجر الشحيحة، ومن وراء ذلك خزي الله، وانتقام السماء..!

واستشهد الحسين رضي الله عنه، فتزعم عبد الله بن الزبير معارضة يزيد، وصادفت دعوته تأييداً كبيراً إذ إن اللوعة المحرقة على الشهيد الصريع قد أضرمت الشعور الإسلامي بنار الكراهية والسخط على الأمويين، وجذبت إلى ابن الزبير الأعنة، فاتجهت القلوب في أكثر أصقاع الدولة الإسلامية إلى تأييده، وقد وازن المسلمون بين يزيد وعبد الله، فرأوا البون شاسعاً بين الرجلين في المواهب والمواقف والإيمان فنبضت بحب عبد الله العروق، ووجدت فيه النفوس المحروقة ظلًا منعشاً يدفع عنها سموم الجور، ويوقظها ببرد العدالة والاطمئنان، وفي خلال ستة أشهر فقط بايعه أهل الحجاز ومصر، وقسم كبير من اليمن، وخراسان، وحمص، وفلسطين، بل إن الخطر قد تدفق إلى أبواب الشام، ونظر يزيد فإذا الهاوية تتسع والحرج يفغر فاه..! فماذا يصنع حاكم دمشق ووارث معاوية..! لقد استشار ذوي رأيه، وأصحاب أمره، فلم يجدوا بُداً من المقاومة والجلاء، فأخذوا الأُهْبَة، وأعدوا الأسنة والرماح والخيول، ثم سارت جحافل الشام إلى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المري، فتحول حرم رسول الله ﷺ إلى شواظ ملتهب يرمى بالحمم والأهوال، واستباح الغزاة محارم المدينة، فأكثروا القتل والسلب والاعتداء في مدى ثلاثة أيام أمحلت العامر، واكتسحت الأخضر واليابس وعُرفت هذه الموقعة في التاريخ بموقعة الحرة، وتابع

الجيش المنتصر سيره إلى مكة، فزحفت إليه قوات ابن الزبير، ودار القتال بين الفريقين، وقد أَغْرَتْ جيوشَ أميةَ هزيمةُ المدينةِ بالعجب والكبرياء فحسبوا مكة ستكون سهلة الازدراد، هينة الجلاد، ولكن عبد الله قد ثبت ثباتاً مدهشاً! واكتفى الجيش بالمحاصرة بعد أن ضرب الكعبة بالمنجنيق؛ وأشعل النار في سقوفها وجدرانها، ثم جاءت الأنباء بموت يزيد، فتخاذل الجيش الأموي وتضعضع، وانتهز ابن الزبير هذه البادرة فحمل عليه حملة صادقة، وانتقم للمدينة الجريحة في يوم صعب بئيس!.

أي نصر يبقى على الأيام؟ لقد مزق عبد الله فلول الشام، وحسب أن النوم سيداعب عينيه قليلاً فيرتاح من حر الصيال ارتياحاً يعيد إلى جيشه القوة والأمن والعتاد، ولكنه ينظر فيجد الخوارج يأخذون أنفسهم بمناوأته، ثم يتتابعون في صرامة وعنف ليرهقوه بأسئلة لا طائل من ورائها ولا نفع، فهم يسألونه عن رأيه في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي فلا يجدهم ذوي اتفاق معه في الرأي المتطرف والمذهب الجريء، والحكم القارص.. فهو يلجأ إلى الحكمة والموعظة الحسنة، ويستشهد بالقرآن والحديث، وذلك لا يقنع مجادليه في قليل أو كثير..! فانقلبوا عليه أسوأ انقلاب وجمحوا إلى حرب السنان وحرب الشائعات والأراجيف..!

ثم ماذا؟ لقد اتجهت جيوش الشام إلى مصر فطردت عامل ابن الزبير في معركة شابت لها الرؤوس.. ثم انتفض الأزارقة من الخوارج عليه أيضاً بفارس وعاثوا في الأرض فساداً، ولو كان الرجل يحارب في جبهة واحدة لأمكنه أن يمد ظلاله على الدولة الإسلامية في عزيمة ويقين! بل لو كان يعطي الدنية في عقيدته لهادن الخوارج فسكتوا عنه إلى حين..! ولكنه تمسك بمبدئه إذ ترك العاقبة للأقدار تجيء بها كيف تشاء. وقد بعث أخاه (مصعب بن الزبير) إلى قتال الخوارج بالبصرة فجالدهم مجالدة رهيبة ظافرة، وقد ذاق حلاوة النصر بعد أن بذل من جنوده وعتاده مدداً زاخراً، ما كان أحوج عبد الله إليه في تدعيم إمارته وقد تعرضت إلى إعصار جديد يهب ثانية من الشام إذ وليها عبد الملك بن مروان، وبادر إلى مساجلة ابن الزبير سجالاً يبرق فيه الموت، ويحيط المستقبل بنذر غاشية ترمض لها الجوانح وتنفجر الشؤون..!

لقد سار جيش عبد الملك إلى العراق، فلاقاه مصعب ليستأنف قتالاً لم تتعادل فيه الكفتان، بين قوم أجهدتهم الحرب السالفة من الخوارج، وطحنهم الجلاد العاصف طحناً مبيداً، وقوم يتأهبون ويستعدون وقد أخذوا لكل موقعة حسابها، فاكتملت

ذخائرهم اكتمالاً يبعث الحمية، ويرتفع بالروح المعنوية إلى أوج منيع، زد على ذلك أن أعوان مصعب من العراقيين قد انتفض عليهم داؤهم القديم، فتخلوا عنه وخانوه في أحرج مواقفه، وحانت ساعته فسقط شهيداً بعد جلاد يائس أسيف!!

يا للحزن الرهيب يطوف بالنفوس الصابرة فما يكاد يلم بثباتها الوطيد حتى يذعره اليقين الصارم فيفر مندحراً مقهوراً..! لقد تماسك عبد الله وتجلد، ثم استشعر لذعة الأسى على مصرع شقيقه فَنَفَّسَ عن صدره الكظيم بخطبة مؤثرة، أخذ يزفر بها زفرات مكروبة حيث يقول: «ألا وإن خبراً من العراق أتانا فأحزننا وأفرحنا، فأما الذي أحزننا فإن لفراق الحميم لذعة يجدها حميمه ثم يرعوي ذوو الألباب إلى الصبر وكريم الأجر، وأما الذي أفرحنا فإن قتل مصعب له شهادة، ولنا ذخيرة، أسلمه الطغام، الصم الآذان، أهل العراق، وباعوه بأقل الأثمان، فإن يقتل فقد قتل أخوه وأبوه وابن عمه وكانوا الخيار الصالحين، أما والله لا يموت حتفاً كما يموت بنو مروان، ولكن قعصاً بالرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف..!

وإذا كان النصر يدفع إلى النصر فقد تحمس جند الشام لمصرع مصعب، وهرعوا لمحاصرة الأسد في عرينه بمكة، وتزعم الحجاج قيادة الجيش المهاجم سالكاً طريق العراق نحو الطائف، ومرت شهور قاتمة حزينة على عبد الله فالغزاة يغيرون على المسالك والدروب فيقتلون الرجال والنساء والأطفال، ثم يجيئهم المدد المتلاحق من جند الشام فيحيطون بأم القرى وينصبون حولها حصاراً يمنع الطعام والشراب، ثم تنصب المجانيق على هضاب أبي قبيس لترمي الكعبة بالنيران المشتعلة مع القذائف الصواعق... فإذا ارتجف الجنود قليلاً لمهاجمة بيت الله صرخ فيهم الحَجاج صرخات متوعدة، وبدأ بنفسه فقذف اللهيب، وأدار المنجنيق!! وهرع المَكِّيون يطلبون الأمان من الحجاج وقد أرهقهم الجوع والعطش واللهب، وتفرق الأنصار عن عبد الله فلاحت نهايته المتوقعة عن كثب، وقد استمع إلى أمه أسماء بنت أبي بكر فأفرغت عليه من ثباتها المؤمن ما حبب إليه الاستشهاد في حديث قوي تحفظه الأجيال، وترويه صحائف الأدب والتاريخ، وإذ ذاك تقدم إلى الشهادة موفور الكرامة ثابت اليقين، واستقبلت السماء بمصرعه روحاً جريئاً وثاباً تعاظمت آماله، وسمت همه. فما استكان لطاغية أو اعترف بدخيل.

موسى وطارق

فاتحا الأندلس الكبيران

نجاح العصامي دليل لا يخطىء على مقدرته وكفايته، فلولا ما وهبه الله من المزايا الباهرة ما استطاع أن يقفز إلى القمة في دنيا تتزاحم بها المطامع، وتتصارع عليها الأهوال، ولا كذلك من يتوارثون المجد في بيوت يتسلق أبناؤها على جهود الآباء والأجداد فيجدون الأبواب مفتحة، ويشعرون أن وراءهم سواعد قوية تدفعهم إلى التقدم والفوز، وتزيح ما يعترضهم من العقبات فهم من ذويهم في عسكر وعتاد حصين، أما موسى بن نصير وطارق بن زياد وغيرهما ممن حلقوا بجهودهم الفردية في الأجواء الشاهقة وارتفعوا بمواهبهم الشخصية إلى الآفاق العالية فجديرون ـ قبل سواهم ـ بالإكبار والإطراء!

ولد موسى بن نصير في خلافة الفاروق رضي الله عنه وكان والده نُصير عربياً صريحاً ممن سباهم خالد بن الوليد في بعض حروبه، فتنقلت به ظروف حياته من سيد إلى سيد حتى صار قائماً على حرس معاوية بالشام، ومع صلته الوثيقة بمولاه فقد أبى أن يشترك معه في حرب الإمام علي رضي الله عنه، ولم يشأ معاوية أن يضطره إلى مجهود لا تسنده العقيدة ولا يتوافر به الإخلاص، ونحن نقدر لهذا الرجل الأبي اعتزازه برأيه، وتمسكه برفيع المبادىء، وقويم القيم، على الرغم مما ضرب عليه من رق مرير، ولو وجدنا في الأحرار من يقتدون به في اعتزاز الحق ونصرة الفضيلة لتغير وجه التاريخ الإسلامي، وخفق لواء الخلافة في كل عصر من عصورها المتتابعة على أناس شرفاء يهدون بالحق وبه يعدلون. .

وقد شب موسى في كنف هذا الوالد، فأخذ عن بعض الصحابة، وروى الحديث المحمدي ودروس مبادىء الذكر الحكيم دراسة تهدي إلى الجوهر الصريح، ورأى من كوارث عصره وتقلبات زمانه ما أوسع في تجربته، وأمد في معارفه، وقد جُبل في حداثته على تقدير المسؤولية ومواجهة الصعاب بعزيمة عاقلة وصبر بصير فكانت إرادته المثابرة معواناً يأخذ بيده إذا تأزم الأمر، وغم السبيل، وقد ورث عن أسلافه في البادية فصاحة تأسر القلوب حتى قال عنه صاحب نفح الطيب: «لقد رويت عنه بلاغة في النظم والنثر تدخله ـ مع نزارتها ـ في أصحاب درر الكلام». ورجل هذه مزاياه لا بد أن يجذب إليه أنظار الناس،

فقد وكل إليه معاوية بعض الأعمال الإدارية، ثم رمى به غازياً في أحد المناحي القاصية فأبدى كفاية حميدة، وكسب نصراً مؤزراً وعاد إلى دمشق ومصر وغيرهما ليكون رجلاً من رجال الحروب وعظيماً من عظماء الإسلام..!

وكان من سياسة عبد الملك بن مروان أن يقيم إخوته أمراء على حواضر الخلافة، ويعززهم بأهل الدراية والدربة من العقلاء لتسير السفينة في رعاية مفكرة راشدة تتجنب بها المآزق والأهوال، وحين بعث أخاه بشر بن مروان إلى البصرة انتدب معه موسى بن نصير وزيراً مُشيراً بالرأي ومؤازراً يتحمل النتائج، فساس الأمور بلباقة حصيفة وأصبح ذا الأمر الفعلي يصدر ويورد كما يشار، ولكن الدنيا تتبدل، ويأتي الحجاج والياً جديداً مكان بشر، وهو كمستبد باطش لا يقبل أن يقف بجواره نائب يشير بالأمر ويناقش الرأي، فعزم على التخلص من موسى سريعاً وبادر باتهامه لدى الخليفة مدعياً أنه نهب أموالاً، واختلس جواهر وحلياً، وكانت كارثة أليمة تتهدد موسى، وتأخذ بخناقه؛ لولا تدخل عبد العزيز بن مروان، فقد شفع له عند أخيه فأحكم الدفاع، وبدد الشبهات، ونجا موسى من مأزقه، وسار مع شفيعه المخلص إلى مصر ليقف إلى جواره ناصحاً مطيعاً، وناصراً ذا همة واختبار. وكان إعجاب عبد العزيز بموسى مفتاح مجده وسُلَّم سعادته، فقد اقتنع الرجل اقتناعاً كاملاً بمواهب صاحبه ولمس في مختلف أعماله وشتى مناحيه كفاية يؤيدها الواقع، وينطق بها الناس فسعى سعياً حثيثاً حتى كسب له ولاية أفريقية وكان البربر لعهده في ثورة لا تخمد، وفتنة لا تنقطع، فهم يتحرشون بالولاة، ويغرسون بذور الشر في كل مكان، وقد قاموا في وجهه لأول عهده بفتن دامية، واضطرابات مثيرة، وظنوا أن الوالي الجديد سيعجز عن ملاقاة العاصفة فيلتاث عليه الأمر، وينقطع به السبيل ولكن موسى يجتمع بذوي رأيه فيناقش ويستشير، ثم يندفع مصمماً على قمع الفتنة وإخماد الثورة بين الناس، فيقابل الإعصار الهائل بإعصار أعنف تدميراً وأشد نقمة، ويجد الثائرون أنفسهم تجاه قوة عاتية لا تدع من شيء إلا أتت عليه، فيلوذون بالفرار، ويعتصمون بالمغاور والهضاب وكهوف الجبال ويفرغ الرجل لتدبير أمره ورعاية شأنه وقد رأى أن خضوع البربر لا يتم لحاكم مثله إلا إذا نشر تعاليم الإسلام وجلب إليه ذوي المكانة والرأي في ملئه أولاً ثم يدفع بهم ـ بعد الإيمان الراسخ ـ إلى أبناء جنسهم، فينشرون بينهم ديناً يهدي إلى البر، ويدعو إلى الخير، وقد حرص موسى على ذلك حرصاً دقيقاً، فبعث الأئمة والهداة في المدن والفيافي، وحمل رسالة محمد إلى القلوب المتحجرة فتصدعت من خشية الله، واستجابت إلى هداية السماء، ودخل البربر في دين الله أفواجاً خلف أفواج؛ ولولا انتشار الإسلام على يد موسى ما استقر له الأمر في المغرب مع برابرة أشاوس تنزو بهم المطامع، وتتكالب عليهم النزوات..!

وقد كان موسى مع حزمه العاقل على جانب كبير من خشية الله وتقواه، وبإيمانه المشرق استطاع أن يكسب العرب خصوماً لُداً تنأى بهم الأحقاد والشرور، كما أيقظ الإسلام في نفسه إحساساً صادقاً يتجه به إلى السماء دون الناس، فقد وقع بالمغرب قحط شديد وفزع الرجل إلى إيمانه فدعا أصحابه إلى الصوم والصلاة وإصلاح ذات البين. . ! وخرج بهم في الصحراء يؤدون صلاة الاستسقاء في تبتل وخشوع. وخطبهم خطبة مؤثرة تستدر الدموع وتلين القلوب، فقيل له: ألا تدعو لأمير المؤمنين؟! فصاح به إيمانه البصير: رويداً، هذا موقف لا يذكر فيه غير الله، وكانت إجابة قاصمة لأناس لا يكفون عن الملق والمداهنة في أحلك المآزم وأحرج العقبات. . !

وإذا كان الإسلام دين العمل والكفاح، فقد أمد موسى بقوة فولاذية تدفعه إلى السهر والنشاط، فعكف على بناء المصانع، وتجهيز السفن، وإنشاء الأساطيل، وفطن إلى الخطر الرومي الذي لا يزال يتهدده في كل حين، فقد راعه ما يقوم به الأعداء من غارات متتابعة على الثغور الإفريقية، فيوقعون الذعر والقلق، ويجمعون إلى صفوفهم من لا تزال تأكله الضغائن السوداء على أنصار الإسلام، وحين أكمل الرجل عتاده الحربي ترك سياسة الدفاع، وبدأ بالهجوم المنظم على الجزر المتاخمة، فغزا جزائر البليار، وافتتح منها ميورقة، ومنورقة، وهاجم أسطوله صقلية، وسردينيا، حتى بسط حمايته على الشمال براً وبحراً، أما في الداخل فقد غزا قبائل هوارة وكتامة وصنهاجة، وزناتة، والسوس الأقصى، ثم افتتح طنجة، وكانت معقلاً حصيناً للثوار فخضعت لشكيمته، وتبدد خصومه أباديد، وترك عليها جنديه الباسل «طارق بن زياد». . !

وقد همدت إذ ذاك ثورات القبائل همـوداً لم تقم معه قائمة لصاحب فساد واضطراب، وأصبح موسى سيد إفريقية وبطلها المرموق، وقد درس النفوس دراسة حصيفة، فكان يعلم بنظراته الفاحصة واختباراته الملهمة من يخلصون له المودة عن صدق وإعجاب، ومن يتربصون به دوائر الهزيمة والإخفاق، وأفصح عن سرائره حين قال في بعض خطبه: «أيها الناس إن كل من كان قبلي كان يعمد إلى العدو الأقصى، ويترك عدواً منه أدنى، ينتهز منه الفرصة، ويدل منه على العورة، ويكون عوناً عليه عند النكبة، وايم الله لا أريم هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضعَ اللهُ أرفعَها، ويُذلَ أمنعها، ويفتحها على المسلمين». وهذا تهديد قاس لطابور خامس يظهر المودة ويطوي الضلوع على جمر مشتعل، وحقد أثيم، وقد فضحه موسى فضيحة تكمد النفوس، وتفت في الأعضاء، وتوهن العزائم وهناً لا عافية فيه، إذ إن المنافقين في كل عصر ومكان يحذرون أشد ما يحذرون أن تنزل على خصومهم سورة تنبئهم بضغائن القلوب، وأحقاد الصدور، وهواجس الحفيظة والانتقام،

وهيهات، فالله عز وجل مخرج ما كانوا يحذرون. . !

لقد كانت ولاية موسى بأفريقية حدثاً رائعاً لا ينبغي أن يترك في تاريخه دون أن تسجل أمجاده الخالدات، ودون أن تحلل أزماته ومضايقه تحليلاً يكشف عن المقدرة والقوة والثبات. . ! وقد ألف الكاتبون أن يمروا بهذه المرحلة من حياة موسى مروراً عابراً حيث يتسع المجال لتقدير بطولته في فتح الأندلس. . ! وإفريقية في رأيي أولى بعناية الكاتبين، وأجدر، فلولا أن رسخت بها أقدام المسلمين أتم رسوخ وأثبته، ما استطاعوا أن يواصلوا المد الطبيعي إلى أوروبا. . وأيّ ثبات رسخ بالأقدام هناك. .؟ لقد طوح البربر بقادة من المسلمين أعزاء تناثرت دماؤهـم على البطاح المترامية شهيداً خلف شهيد، وفيهم من بلغ ذروة البطولة والقوة والكياسة، إلا أن عقارب الخيانة قد نفثت سمومها القاتلة فلم تجد البسالة في قليل أو كثير، حتى جاء موسى بن نصير فتغير وجه الحياة، وشمل النفوس استقرار هادىء لا تنال منه الزعازع، بل تفتحت العيون إلى مطارح نائية، ورفرفت في النفوس أحلام وضيئة طلع عليها الصبح المبارك فانتقلت بسرعة خاطفة من أودية الخيال الحالم إلى دنيا الواقع وصدق الحياة. .

لقد كانت الأندلس حلقة ثانية في جهاد البطل الكبير، وكانت نتيجة محتومة للظفر الإسلامي الذي امتد إلى آخر شبر في المغرب الأقصى، ووقف البحر الهائج يعترض الخيول العربية بأمواجه المتراكمة، وزبده الجياش، ويقف كطود راسخ دون الاكتساح الإسلامي الذي دقت نواقيسه، وجلجلت رعوده، وإذا كان موسى قد أنشأ المصانع، وهيأ السفن فإنما بذل الجهد الجاهد بعبور هذا المحيط الزاخر دون أن ينتظر معونة إنسان. .

ولن نقدر نعمة الإسلام على إسبانيا المسيحية إلا إذا استعرضنا في إيجاز ما كان يرين على الأندلس من ظلام دامس، وما كان يخنق الأرواح، ويكتم الأنفس من جو آسن تغشاه الأوبئة والسموم حتى انفتح مصراعا الباب فجأة بأيد مسلمة، فمر هواء عاطر يحمل النسيم الشذا والأريج الفواح. . ! لقد كانت إسبانيا القوطية تنوح صارخة مما يجثم فوقها من أهوال، فهناك السادة من الأمراء والنبلاء يمزقهم الترف، ويضعضعهم الإغراق الشائن في الملاذ والشهوات، والأموال تتدفق سائلة في أيديهم من جهد العامل، وعرق الكادح.

وهناك رجال الدين من القساوسة والأساقفة يضعون أنفسهم في مصاف السادة من الحكام، فيفرضون على الناس حقوقاً تصل بهم من التقديس إلى حد سمج دميم، ثم يصدرون الأحكام القاسية على الرعايا البائسين، ويـؤيدون فرض الضرائب، وابتزاز الأموال بنصوص كهنوتية تضج منها الأرض والسماء، وقد تعاون أولئك وهؤلاء على امتصاص الثروة امتصاصاً لا يسمح لأحد الكادحين بفضلة من ثراء، وهناك الأرقاء

وأشباههم من الزراع والفعلة؛ يقضون أيامهم محنية أصلابهم على الفؤوس والمحاريث، يشقون الأرض ويضعون البذر، ويقودون الماشية، فإذا حصدت الثمرة سيقت سوقاً مغتصباً إلى السادة المسيطرين، دون أن ينعشهم الكدح اللاغب ما يمسك الرمق، ويدفع ألم الحرمان.

وهناك الطبقة الوسطى من الصناع والتجار، وكان الظن أنهم يجدون ما يكفل لهم الحياة الكريمة والسعادة النسبية، إذ يكونون حلقة وسطى بين الأمراء والعبيد، ولكنهم لا ينعمون بأمن، أو يركنون إلى استقرار، ففي كل يوم ضرائب جديدة يفرضها الطغيان وتمليها الشهوات حتى أوشك هؤلاء التعساء أن ينحطوا إلى مستوى العبيد فيما فرض عليهم من مذلة وهوان..

وهناك اليهود يتعرضون كذلك لمأساة أليمة، إذ تصادر أموالهم، وتزحق أرواحهم، وتسترق نساؤهم ويوزع صغارهم خداماً على الأسر المسيحية ليقطعوا كل علاقة تربطهم بدينهم التليد، بل يحرم على كل يهودي أن يتزوج يهودية من بنات دينه حتى ينقرض النسل تدريجياً وتصبح النصرانية ديناً شاملاً لا يند عنه فرد من الأفراد..!

وهناك بعد ذلك كله ملك جديد طاغية يثب إلى العرش فجأة بعد أن يطوح بصاحبه اغتيالاً في مأساة رهيبة ثم يبطش بأنصاره وذويه فينصب المشانق، ويفتح الأحباس ويرين على إسبانيا ليل من الإرهاب الأحمر لا يبدو في حنادسه الحالكة شعاع من رجاء..!

كل أولئك قد دفع بالعيون إلى المغرب وقد تراقص في الأسماع نغم حالم يهتف بالعدالة والمساواة، ويغرد بالمودة والإخاء في ظلال المسلمين الأمجاد..! فوفدت الرسل فِعلاً إلى موسى بن نصير تسأله المبادرة العاجلة، وتبسط الأيدي عن رغبة وولاء، متطلعة إلى إنقاذ الأندلس وشعبها الجريح! أجل وفدت الرسل بزعامة يوليان حاكم سبتة الذي أزعجه أن يبطش الملك الجديد بأولياء سالفه..!

وقد كان يوليان صهراً للملك الصريع، وهو متعرض لا محالة إلى النكبة الماحقة بين صباح ومساء، فلا بد أن يرمي آخر سهم في جَعبته بدعوة المسلمين إلى بلاده ليعيدوا السكينة والاطمئنان إلى نفوس أزعجها الإرهاب الطاغي فغدت ترقص من مخاوفها المزعجة على بركان ثائر يقذف بالحمم والأهوال، وفي قوة العرب ومبادئهم المنصفة ما يكفل سحق الطاغية، ونشر ألوية السلام، وتضيف بعض الروايات إلى مخاوف يوليان السياسية حقداً دامياً ينفر في أحشائه ويكدر عليه صفاءه، فقد اعتدى «لوذريق» طاغية الأندلس على عفاف ابنته «فلورندا» وكانت تتلقى دروس التربية وأساليبها الراقية في البلاط الملكي، جرياً على

رسوم العصر في ذلك الزمان. . ! وحانت من الملك لفتة والهة إلى جمالها الغض وحسنها الجذاب، فوقع أسيراً متدلهاً. . ! ولم يأت البيوت من أبوابها، بل هجم على المهاة العذراء في لحظة معربدة هوجاء فسلبها أثمن ما تعتز به فتاة. . وطار الخبر إلى يوليان فكأن شعلة نار قد التهبت في أضلعه، فلم يطعم الراحة في صباح أو مساء، بل لجأ إلى موسى مع الوافدين، وصحب وراءه وفداً من اليهود والتجار، باذلاً سفنه وذخيرته وخبرته. . ! والقائد الباسل يسمع ويزن، ثم يرسل إلى الخليفة يستأذنه في الغزوة، وإن آمالاً عراضاً تجيش في صدره وتتراءى لعينيه، حتى إذا جاءت رسالة دمشق بعدم التغرير بالجيش، والاكتفاء بإرسال بعض الكتائب، مستطلعة فاحصة سارع القائد العربي فأرسل كتيبة من الجند قوامها مائة فارس وأربعمائة راجل بقيادة «طريف بن مالك البربري» فعبرت بوغاز جبل طارق، واستولت على حصون هامة ووقع للمسلمين من الغنائم والأسلاب ما أدهش وبهر، ثم يرجع طريف إلى موسى مبشراً ومشجعاً. . فاشرأبت الأعناق وتطلعت العيون. . !!

لقد كان «طريف» رائداً مسلماً يختبر بلاداً تسمع عنها الأنباء دون أن يشهدها العيان، وأراد موسى ببعثته أن يجمع الشواهد الصادقة على نجاح الغزو من ناحية، وأن يختبر ثبات يوليان من ناحية ثانية، فمن يدري فلعله صاحب حيلة يريد بها أن يخدع أناساً سبق أن ناوَؤُوه وحاربوه، فاستعان عليهم بجيرانه وذويه، ولعل سفنه التي يبذلها راضياً لحمل الجنود؛ ستار يحجب نيات غادرة يجب أن يحسب لها حساب دقيق، ثم إن موسى وحده مسؤول أمام الخليفة عن نتائج الغزو، فما عسى أن يكون مركزه السياسي حين تتكشف الآمال عن سراب يخدع ببريقه دون أن ينقع غلة لظمآن. . ؟ مهما يكن من شيء فقد كانت عودة «طريف» بغنائمه وأسلابه برهاناً صادقاً يحسم الشك ويقطع سبيل الهواجس، فلم يعد بعدها مجال يتسع للريب والظنون، وقد بادر موسى من فوره فجهز الحملة الثانية، وتفرس في جنوده فاختار بعد روية وإمعان جندياً باسلاً أبلى بلاء حسناً في مختلف المعارك في بلاد المغرب، وحكم طنجة في ظروف عصيبة، فأبدى من البطولة والعزم ما حفظ لها اطمئنانها الثابت بين الزعازع والنكبات، واتسع ميدان الفتح الإسلامي لبطل فذ، قدر له أن يؤدي دوره بنجاح ملحوظ ليحتل بين عظماء التاريخ مكاناً مرموقاً تتجه إليه الأنظار. . ذلكم هو «طارق بن زياد». .

ولا نجد مفراً من الحديث عن طارق ببعض الإفاضة في صدد الحديث عن موسى بن نصير، فقد جمعت بين الرجلين ملابسات متحدة في البسالة والجهاد، وقاربت بينهما ظروف متشابهة في النشأة والخاتمة، فكلا البطلين عصامي بنى مجده بيده، وارتكز في أعماله على شجاعته وصبره، وعرقه في كفاحه، دون ظهير غير الكفاية، والشخصية، والمرانة، وكلا

الرجلين صادف تنكراً لأعماله، وبخساً لجنوده حيث ينتظر أن يتبوأ ـ بما قدم ـ مكاناً عالياً، ومنزلة مرموقة، ولئن وقعت محنة طارق على يد موسى ـ مما سنعرض للحديث عنه ـ فقد شاء الله أن يذوق موسى الكأس مترعة ليعرف أي ذنب أسلف، ومهما اختلفت النوازع أخيراً بين الرجلين فقد جمع بينهما التاريخ جمعاً لا فكاك منه، فلن يذكر فتح الأندلس إلا إذا ائتلقت في العينين شخصيتان لامعتان. . ! شخصية القائد الفاتح، طارق، وشخصية رئيسه الباسل موسى بن نصير. كان طارق مولى لموسى! وقد اختلف الرواة في نسبه، فهناك من يعزوه إلى البربر من قبيلة زناتة أو غيرها، وهناك من يعزوه إلى الفرس من همذان، وهناك من ينتهي به إلى العرب، غير أن الدلائل الصادقة تؤكد نسبته إلى البربر، ونحن نشهد بين المؤرخين معارك كثيرة على نسبة أفذاذ من عظماء الإسلام وكل كاتب يحاول أن يرجح نسبة على نسبة، ويدور النقاش في غير طائل، كما حصل أخيراً عن نسب ابن سينا، وجمال الدين الأفغاني، أهما للفرس، أم للأفغان، أم للعرب؟ والإسلام لا يعبأ بذلك، إذ لا يفرق بين عربي، وفارسي، وبربري، فلا يهمنا في شيء أن نلحق طارقاً بقوم دون قوم. . ويكفي أنه قائد باسل مسلم، تربى في أحضان القرآن وأشرب تعاليمه الخالدة، فكان دينه والداً آخر يبعث في نفسه معاني الكرامة والعزة، ويخلق منه بطلاً تضيق الأرض عن همته، ورسالة الإسلام دائبة في خلق الأبطال، فهم إليه ينتسبون، وبه يعتزون، وفيه وحده الكفاء. . وتاريخ طارق ينطق بإسلاميته الصادقة، فقد كان خطيباً بليغاً يستمد معانيه من القرآن والحديث، ويبعث الهمم في جنده بذكريات أبطال سبقوه في ميدان الكفاح، كعلي وخالد وأبي عبيدة وسعد، وما كادت سفن يوليان تقله مع جنوده حتى تطلع إلى السماء وقد انعكست زرقتها على سطح البحر، فتأمل مشهداً ساحراً من مشاهد الطبيعة فتذكر عظمة الخالق المصور، وعلت أشواقه إلى السماء تسألها الهداية والتوفيق، ثم أخذته سِنَةٌ من النوم، فرأى رسول الله ﷺ وحوله المهاجرون قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسي، ورسول الله ﷺ ينظر إليه قائلاً: تقدم لشأنك يا طارق! ولن يكون هذا الحلم غير صدىً صادق لنفس تذكر الله، وتتطلع إلى نصرة السماء، وعزة الإسلام، فهو انعكاس باطني يبرز الرغائب والأشواق، ويصدر ما يغمر صاحبه من صوفية وإشراق، وكأني به وقد وقع من طارق موقع البشارة، فأيقن بالنصر قبل المعركة، وكان من روحه المعنوية في عدة واقية وجيش كثيف. .

سار القائد الباسل فاخترق الجزيرة الخضراء بعد أن هزم جموعاً من القوط تصدت لزحفه، وسرعان ما انتشرت أنباء الزحف الإسلامي في بقاع الأندلس، وكان لها صدى مدو في بلاط المملكة، فحشد «لوذريق» قوته وعدته، وأهاب بجيشه وشعبه أن يتعاونوا على درء الخطر الداهم ثم عقد هدنة سريعة بين مناوئيه، وجمع حشداً يقدره أكبر الكاتبين بمائة

ألف، وكان «لوذريق» على طغيانه الشديد قائداً قوي العزيمة صلب الإرادة، فلم يفزع للكارثة بل استعد لها بما يملك، ونحن حين نعترف بمواهبه في عالم البطولة والإرادة إنما نوفي كل إنسان حقه رعاية للتاريخ، ولكن جيشه على كثرته كان نهب التخاذل والتفرق! وماذا يصنع بأناس أنهكهم الطغيان، واستنزفهم الإقطاع ونخرت في نفوسهم الخيانة، فهم على الأصدقاء لا الأعداء، إلا أن كثرتهم الكاثرة قد أدهشت طارقاً فطلب المدد من موسى على جناح السرعة فبادره بخمسة آلاف مقاتل ينضمون إلى سبعة آلاف ليقف الجميع أمام مائة ألف، وقد أكمل الاستعداد النفسي لدى المسلمين والرغبة المخلصة في إحدى الحسنيين ما قد يعوّضهم من حشود وجهود، ووقف القائد الباسل يخطب جنوده فيمنيهم الأماني، ويبشرهم بالفتح والغنائم، ويضعهم أمام الأمر الواقع، إذ يقول: أيها الناس، أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وعدته، وقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطةٍ أرخصُ متاعٍ فيها النفوس إلا لأبدأ بنفسي. ثم اندفع الخطيب يذكر ما في الجزيرة من مغانم ويبين لأبطاله حظهم من ثواب الله، وجنة الآخرة، فيجمع بين الدين والدنيا في ترغيب ساحر أخّاذ. .

وقد شك بعض الأدباء في نسبة هذه الخطبة الرائعة لطارق، ولا نرى موجباً قوياً لهذا الشك المريب، فطارق على بربريته قد اشتهر في قومه بالفصاحة ولئن لم يذكر هذه الخطبة بكلماتها وحروفها فقد ذكرها بمضمونها ومغزاها، فماذا يفيد الارتياب في أمر محتمل لا تتكامل الأدلة على نقضه، وإذا كانت بعض الكتب القديمة لم تشر إليها فهل أشارت هذه الكتب إلى جميع ما نتناقله الآن لكبار القادة من الخطب والكلمات. . وعلى كل فلن يضير طارقاً أن تنسب خطبته إلى غيره، فنحن نتحدث عن طارق القائد لا طارق الخطيب الأديب!

وهناك شك آخر يتطرق إلى ما اشتهر عن إحراق طارق لسفنه، وهو شك مظنون محتمل، وإن لم تتضافر الأدلة أيضاً على تدعيمه، إذ إن إحراق السفن في حرب كهذه مغامرة جسيمة لا تتصور من قائد يتدبر العواقب، ويقدر النتائج، فمن المحتمل أن ينهزم المسلمون

في أرض لا يجدون بها حمى يعتصمون به، فماذا كانوا يصنعون. . ؟ على أن السفن كانت ملكاً ليوليان، فكيف يقدم طارق على إحراق ما ليس له. . ولعمري لذلك مما يجب أن يوضع موضع التقدير، ولكنه برغم احتماله لا يجزم بمنع الحادث، ولا سيما في صفحات التاريخ ما يماثله حين أحرق قائد الفرس سفنه باليمن في نصرة سيف بن ذي يزن، وحينما أحرق المسلمون سفنهم في صقلية مرة ثانية، وفي أقريطش مرة ثالثة في مستهل القرن الثالث الهجري. .

وفي إقليم شذونة على ضفاف نهر «وادي لكة» تلاقى الجمعان فوقف المسلمون على صهوات خيولهم تأتلق العمائم البيض فوق رؤوسهم، وتلمع السيوف في أيديهم، ويبرق الزرد فوق الصدور بريقاً أخاذاً، وطارق يروح ويغدو في الصفوف يذكي نيران الحماسة، ويؤجج الأشواق للقاء سريع يعقبه الفوز الباهر، والقوط من أمامهم يتقدمهم الفرسان بدروعهم وأسلحتهم، ومن ورائهم سيل زاخر من العامة يحملون الحراب والمناجل والفؤوس والمقاليع، وقائدهم «لوذريق» يجلس في هودج من العاج يقوده جوادان أبيضان، وعلى رأسه إكليل ذهبي رصعت وجهته بالدر والياقوت، وفوقه رداء حريري طرز بالذهب، وأمامه الأعلام والبنود!! ودار صراع رهيب أفرغ فيه المسلمون ما في نفوسهم من البسالة والحمية، فهجموا على الموت لا يبالون، وكان على رأس الجناحين في الجيش القوطي ولدا الملك القتيل، ومن خلفهما رهط من الأتباع يضمرون لهما المحبة، ويكنون البغضاء الدامية لمغتصب جائر يعتلي العرش بالسيف والدم، ويحكم بالحديد والنار، فما كاد القتال يستمر حتى اندحر الجناحان وثبت «لوذريق» محاولاً أن يجمع حوله الأنصار، وقد أبدى من ضروب البسالة ما لا ينكره كاتب يخلص للحقائق ويزن الرجال، ولكنه أخطأ خطأ فادحاً حين وضع في مقدمة جيشه أناساً تأكل قلوبهم الضغائن، ويتحرقون شوقاً إلى الانتقام، وكان يظن أن العدو المشترك سيوحد الجهود، ويجمع القلوب، ولكن النفوس البشرية في جماعة كالقوط لا تنسى ضغائنها مهما ضاق المأزق وأحرج الموقف، فلم تغن «لوذريق» شجاعته، وشاهد صفوفه تندحر، وأعداءه ينزلون به الضربات القواصم وكأني بأرباب الفؤوس والمناجل من الأرقاء وفعلة الأرض من الأقنان والزراع قد أحسوا ارتياحاً كبيراً للخطر المحيق، فتقدموا بادىء ذي بدء بجسومهم، ونفوسُهم معقودة على الهرب والتراجع، وقد أرضوا ثورتهم الناقمة على السادة، فلاذوا بالفرار في حومة لن يكسبوا خيراً منها إذا انتصر قائدهم الرهيب، وقد ضاق الملك بالموقف ففر من الموقعة واختفى لساعته من الميدان، وقد شوهد جواده الأشهب على شاطىء النهر مما دفع إلى ترجيح الرأي القائل بغرقه في الماء، مؤثراً ألا يرى الأغلال تصفده أسيراً، ضارعاً، ينتظر المصير، ودقت أنباء النصر في كل مكان

فاستولى الهلع والقنوط على الإسبانيين، واهتبل طارق السانحة فتقدم بجنوده شمالاً صوب طليطلة العاصمة، وبعث بحملات متفرقة إلى قرطبة وغرناطة ومالقة ومرسية، ثم زحف إلى قشتالة وليون، واستمر في زحفه موغلاً حتى جاءته رسالة بوقف الزحف...

وكانت أخبار النصر تجد دويها الرنان في المغرب، فزحف سيل عارم من المسلمين إلى الأندلس، وقد فتح أمامهم الطريق ليأخذوا بحظهم من الجهاد، أو بنصيبهم من الغنيمة، وتكامل للإسلام جيش قوي لا تنقصه الروح العالية، والغنائم الغالية، والعتاد الكثير.

ونحن نحار في تعليل رسالة موسى ونتساءل: لماذا أمر بوقف الزحف، وقد انتصر الجيش، وسارت أنباء شجاعته تتقدمه فتهيىء له ظفراً آخر، هل دبت الغيرة في نفسه فَنَفِسَ على جنديه أن يتم النصر على يديه! هل أراد الاحتفاظ بما كسب المسلمون كيلا تدفعهم السبل المتشعبة إلى متاهة شاسعة الأطراف لا تهيىء لهم سبيل التجمع والاتحاد.. لقد جمع طارق مستشاريه وعرض عليهم كتاب قائده، فأشاروا بوجوب الزحف كيلا يظن بهم العدو النافر قصوراً وانخذالاً؛ فيجمع من فلوله الشاردة جيشاً آخر، ويعوق التقدم الإسلامي في وقت مهدت له السبل وحان اقتطاف الثمار.. وإذ ذاك واصل طارق زحفه وقد عجل موسى بلقائه على رأس جيش متحمس مستبسل، فامتدت فتوحه إلى برشلونة شرقاً، وأربونة في الجوف، وقادس في الجنوب الغربي، وجليقة في الشمال الغربي، ثم التقى بطارق، وكان المظنون أن يمطره قبلات الإعجاب والتقدير، ولكن اللقاء كان عابساً كالحاً يخفي وراءه شجوناً مؤسفة، فقد بدأ بالسؤال عن الغنائم ثم بالاتهام بالخيانة، ثم بالتجريد من السلاح، والزج بالشجاع الفاتح إلى ظلمات الاعتقال..

ما هذا الذي فعله موسى؟ الحق أننا نؤاخذه مؤاخذة قاسية حيث استمع إلى هواتف الغيرة، فخرجت به عن سنن العدالة والإنصاف.

والضعف الإنساني داء عضال ينتقض على صاحبه فلا يستطيع له دفعاً.. وكان الأحرى ببطل حازم كموسى أن يقدر بطولة قائد باسل صنعه على عينه، ولمس في مهارته وبسالته ما عاد على الإسلام بالمجد والفلاح، وتصل الأنباء إلى دمشق فيأمر الخليفة بإنقاذ طارق ورجوعه إلى ميدان بطولته، فيستأنف الغزو مكللاً بالظفر والابتهاج.

سار القائدان الباسلان كل في طريقه يحارب فينتصر، حتى نفذ موسى إلى مملكة الفرنجة وغزا وادي الرون، فتضعضع أمراء الفرنجة أمامه، وهبوا في جنون لملاقاة الغزاة الظافرين، وقد دارت بمخيلة موسى أفكار ورقصت في عينيه أحلام، فهو يعتزم أن يواصل الفتوح في جنوب فرنسا ويتجه شرقاً حتى يصل إلى القسطنطينية التي عجز العرب عن فتحها

من ناحية الشرق، وبذلك يصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية بعد أن يصل ما بين إسبانيا ودار الخلافة، مخترقاً أمم النصرانية وهازماً ملوكها الصغار، فهو يريد أن يعبر فرنسا إلى إيطاليا فألمانيا فالبلقان فالقسطنطينية فآسيا الصغرى، حتى ينزل دمشق! وقد يظن بعض الناس أن آمال القائد لا ترتكز إلى دعامة قوية، ولكن الظروف السياسية لعهده لا تمنع من تحقق حلمه، فأمراء الفرنجة متنابذون، ودول أوربّا غريقة في الفوضى والاستبداد، وقد يعترض معترض بما وقع بعد في معركة بلاط الشهداء من ارتداد المسلمين منهزمين، ولكن الزمن غير الزمن، والجنود غير الجنود، ولم يهزم عبد الرحمن الغافقي لقلة في كفايته أو نقص في مهارته، ولكن لما اجتمع في جيشه من وصوليين يبحثون عن الغنيمة قبل الفوز، ولولا أن الوليد بن عبد الملك قد حارب اتجاه موسى في مواصلة الغزو متخوفاً من عواقبه لكسب الإسلام نصراً عزيزاً، ونحن نأسى لضياع هذه السانحة الغانمة، ونطوي الجوانح على وجد مرير.

وقد جاءت رسائل الخلافة باستدعاء القائدين قبل أن يتمكنا من القضاء نهائياً على فلول القوطيين الذين لجؤوا إلى ناحية جليقية، وذلك خطأ آخر، فقد أتيح لهؤلاء أن يجمعوا أنفسهم فيضعوا النواة الأولى لمملكة صليبية أخذت تنمو وتزدهر حتى استطاعت بعد ثمانية قرون أن تعصف بريح المسلمين مستعينة بالدس والوقيعة حيناً، وبالقوة والبطش في نهاية المأساة حيناً آخر..

وقد بذل موسى جهداً كبيراً في رسم الأسس لسياسة الولاة من المسلمين قبل عودته إلى دمشق، ورجع إلى الخليفة يجر الدنيا وراءه بما يحمل من الغنائم، والأمتعة، والأموال، ومعه ثلاثون ألف رأس من السبي بينهم مئات من الأشراف والعذارى والوصيفات، وهنا تأتي مأساة جديدة فقد قدم موسى إلى دمشق قبيل وفاة الوليد بأيام ـ على ما تقول أكثر الروايات ـ أو عقب وفاته مباشرة كما تقول بعضها، وآل الأمر من بعده إلى سليمان بن عبد الملك، فنكبه نكبة منكرة وقسا عليه وأذله، إذ لم يتمهل في سيره قليلاً حتى يموت الوليد، ويُعزى الفتح لعهده، وقد نال سليمان هذا أكبر سخط من الناس في الدنيا، فعلى يده وبتدبيره صرع أبطال أفذاذ فتحوا الممالك، ودوخوا الشعوب، وأنت حين تسأل عن نكبة موسى، ومصرع قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفي وغيرهم ممن يذكرهم أعداؤهم قبل ذويهم ـ بالعظمة والبطولة والإكبار، حين تسأل عن هؤلاء لا تجد غير طائش أرعن قضت له الأقدار أن يتحكم في عمالقة أفذاذ فتحوا الدنيا، وحملوا نور الإسلام إلى حيث يبدد الغياهب، ويكتسح الظلمات، وكم في التاريخ من مهازل دامية تتفطر لها الأكباد!!

وقد قضى موسى آخر أيامه شريداً يسأل الناس! لماذا؟، ليجمع أموالاً فرضها عليه سليمان، إذ اتـهمه بها في غير إنصاف. . وهكذا كانت المسألة الذليلة خاتمة أدوار هذا الفاتح العربي الكبير. فليتعظ الناس!!

على أن نتائج الفتح الإسلامي للأندلس كانت سعيدة مرضية لأصحاب البلاد أنفسهم، فقد تغير نظام الطبقات، وترددت أنسام الحرية والإخاء والمساواة، كما كانت مبادىء الإسلام وحدها سبباً في ظفره العاجل وفوزه السريع، فلو لم ينخر الفساد في كيان الشعب الإسباني ما سهل على الفاتحين تثبيت أقدامهم وتشتيت أعدائهم في الأقاصي المهلكات، ولو لم يكن مع هـؤلاء الغزاة قرآن يبشر بالرحمة والمحبة والإخاء لانتقضت عليهم الجموع الغاضبة فاندحروا وعادوا إلى قواعدهم خاسرين، ولكن الإسلام يخدم نفسه بعدله المنصف، وخلقه الوطيد.

وبعض الذين يتجاهلون هذه الحقيقة السـافرة يحاولون أن يُرجعوا توفيق العرب إلى أمور شخصية لا تتصل بالقيم والمبادىء، فهم يزعمون: أن معاونة يوليان حاكم «سبتة» كانت وحدها طريق النجاح، مع أن مساعدة حاكم صغير على ثغر ضيق لا تهدم أمة ممتدة الأطراف، كثيرة المدن والثغور، عديدة الجيش والسلاح، وقد نصدق: أن حاكم «سبتة» بذل جهداً كبيراً في إعداد السفن وإيضاح الطريق، وتيسير المـؤن، ولكن ذلك وحده ـ بالغاً ما بلغ ـ لا يكون مدعاة نصر حاسم مكتسح، لولا ما بذله المسلمون في جهادهم المرير من إيمان راسخ بالمثل الإسلامية، وإخلاص أكيد في التضحية والاستبسال. .

قُتَيبة بن مُسْلِم

البطل الجريء

كان العهد الأموي مسرحاً للحروب الدامية داخلية وخارجية، ومجالاً رائعاً للبطولة الباهرة، والفروسية النادرة فاتجه شباب المسلمين إلى النهوض بأعباء القتال، وأظهروا من فنون الشجاعة أعاجيب خارقة.

ونستطيع أن نطالع في تاريخ هذه الحقبة الدقيقة أسماء مختلفة لأبطال ممتازين من كماة المسلمين وفرسانهم غنموا لأمتهم ذخراً كبيراً وكسبوا لدينهم مجداً تالداً، ووثبوا إلى القمة العالية منتصرين ظافرين. وفي طليعة هؤلاء المغاوير قتيبة بن مسلم الباهلي، ذلك العملاق الفذ الذي ضم للإسلام دولاً شاسعة الأطراف فيما وراء النهر، فأخرج بكفاحه الباسل ـ القطيع الوثني في هذه الأصقاع الدامسة، من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، وإشراقة مشرق التوحيد.

ولقد نشأ قتيبة بن مسلم في بيت يهيم بالفروسية والبطولة، فأبوه مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي كان مضرب المثل في الفتوة والبسالة، وكان له فرس من عتاق الخيل يسمى «الحرون» لا يمتطيه غير ذوي البأس والثبات من فرسان البادية المغاوير، فشب قتيبة ولدُه طامحاً للمجد والرياسة عن طريق الفتوة والبطولة.

وإذا كان الإسلام الخالد قد جاء بالمساواة العادلة بين القبائل والشعوب فإن فريقاً ممن سرت في عروقهم دماء الجاهلية كانوا ينظرون إلى قبيلة «باهلة» نظرة شزراء، ويرونها دون القبائل العربية مجادة وبطولة، فنظموا في هجائها الأبيات الفاحشة، وعدوا ـ بوحي من عصبيتهم ـ الانتساب إليها ضعة مهينة.

ولكن قتيبة ـ ووالده من قبله ـ قد رفع هذه القبيلة المتواضعة ـ بما كسبه من مجد باذخ ـ إلى مصاف القبائل العريقة، ولولا المساواة العادلة التي سنها الإسلام في الشعوب

والقبائل ما اختارت الدولة الإسلامية من باهلة قائداً يفخر بأمجاده كل عربي يعتز بلغته ودينه، ثم هو في الوقت نفسه برهان عملي يقدمه الإسلام على صدق دعوته الرفيعة إلى تكافؤ الفرص والمساواة.

وكانت معارك الخوارج الرهيبة مجالاً رائعاً لبطولة قتيبة في شبابه الغض، فقد خاض لججها الدامية بجنان ثابت، وعزم صبور، وأظهر من فنون الصولان، وعجائب الإقدام؛ ما جعل الحجاج بن يوسف الثقفي يقدر بطولته الخارقة وينوط به العظائم الفادحة فينهض بأعبائها أكمل نهوض.

وكان ـ إلى قوة بأسه وشدة مراسه ـ عالي الهمة، جريء اللسان، ينتقد رؤساءه في صراحة تامة، وثقة بالغة، فحين فاجأ شبيب بن يزيد بطلُ الخوارج الكوفةَ، عقد الحجاج مجلساً حربياً من قواد الجيش وأخذوا يتشاورون فيما يجب أن يقوموا به إزاء «شبيب»، فقام قتيبة وكلم الحجاج كلاماً قاسياً ينبئه عن تقصيره في الأهبة، وينعى عليه حيرته وتردده، فقال الحجاج: ما الرأي يا قتيبة..؟ فقال: الرأي تخرج أنت وتقود الجيش ونحن وراءك، وكان ما أراد البطل الباهلي، فخرج الحجاج في طليعة الجيش، وأبلى قتيبة بلاء رائعاً، وقد ظهر في لباس حربي أخاذ، وانهزم الخوارج هزيمة ساحقة، فتردد صيت الفارس الشاب في كل مكان، ولم تكن هزيمة شبيب وأصحابه بالأمر اليسير، فهم على قلة عددهم يقتحمون الحتوف دون مبالاة بلهبها المبيد، ثم هم يلجؤون إلى المكايد الواسعة، والحيل الرهيبة فيسعفهم الرأي البصير بما تتقاصر عنه القوة الحافلة، والعدة الصارخة، حتى اقتحموا الكوفة ودخلوا على الحجاج عرينه المنيع، فطلب المدد من الشام، وغشيه القلق الساهد، ولولا كفاح قتيبة الرهيب وتقدمه الصفوف في طريق من الأشلاء، ما تم النصر للحجاج في معركة كانت ـ بالنسبة إليه خاصة ـ معركة فناء واستئصال.

أخذ الحجاج بعد مقتل شبيب يضع قتيبة في الصف الأول بين جنوده وأعوانه، ويراه كفئاً لكل كريهة دامية تتطلب الكمي الباسل، وكان يكن لآل المهلب عداوة شنيعة، ويرى في استئثارهم بخراسان نكبة فادحة، فهم أهل عزيمة جبارة، وأبطال كفاح قاهر، ومن الجائز أن يقتطعوا خراسان من الأمويين، وينادوا بأنفسهم خلفاء كالزبيريين، فكتب إلى عبد الملك بن مروان يزين إليه عزل يزيد بن المهلب، وأمير المؤمنين يعلم ما بين الرجلين من تطاحن مريب، فيزيد ينظر إلى الحجاج نظرة جاهلية تنطوي على الاستهانة بأصله المتواضع، ونشأته في ثقيف، ويرى ـ وهو السيد العريق ـ أن مكانه من

قبائل الأزد القوية ذات الحشد الهائل، والأرومة المتغلغلة، ويجعله فوق الحجاج مرتبة وكفاية، والحجاج يرى طموح يزيد وصولته فيتأكد من عصيانه ومروقه، ويصارح بضرورة عزله وإقصائه حتى تم له ما أراد، ووافق عبد الملك على خلعه، وتأمير قتيبة بن مسلم مكانه، ذلك القائد الذي رشحه الحجاج فنهض بالعبء وملك الزمام.

سار قتيبة إلى خراسان فوراً، فاستعرض الجند ورتب شؤون الإمارة والحكم، وتأهب لفتح ممالك ما وراء النهر ليشغل الخراسانيين بالغزو والجهاد، ثم بدا له أن يعدل من سياسة «يزيد» في اختيار القادة والأعوان حيث كان يعتمد في استشاراته ومهامه الحربية على العرب وحدهم، دون أن يشرك الفرس في إحكام خطة، أو قيادة كتيبة مما فسح المجال للتفرقة، وغرس بذور الخلاف في الجيش الواحد.

وقد شاء القائد الجديد أن يرأب هذا الصدع، فوثق في كفاية الفارسيين، وقدمهم في المناصب والقيادة، وأصبح الجيش الإسلامي إلى حد ما كتلة واحدة تقف أمام العدو متراصة متساندة، واستطاع قتيبة أن يرضي نفوساً كثيرة لم تكن لتجاهد بإخلاص وعزيمة، وهي مهدورة الحق، ضائعة المكانة بين الناس.

سار الجيش الإسلامي بقيادة «قتيبة» فعبر النهر إلى أرمينية وبخارى والتركستان، وكانت هذه الممالك فيما بينها متنافرة متدابرة يغمرها الجور والفساد، وقد وقع الرعب في نفوس ملوكها الضعاف، وحاروا فيما يصنعون إزاء الخطر الداهم، فمنهم من أذعن وصالح، ومنهم من قاوم ودافع، وقد سارع ملك الصغانيان فقدم التحف والهدايا، وأعلن خضوعه واستسلامه، فتقدم الجيش إلى مملكتي أخـرون وسومان فصالحهما على الجزية، وسار قتيبة مثقلاً بما حمل من مال وعتاد.

ولكن الحجاج لم يعجب بخطة المصالحة والهدنة، فليس المراد من الغزو الإسلامي تكديس الثروات، وجمع الأموال، بل نشر الإسلام وحده هو الهدف الأول في بلاد تغمرها الوثنية بظلامها الكثيف، وإذ ذاك بعث إلى قتيبة يسترعي نظره إلى المهمة الأساسية للغزو والجهاد، ولم يكن قتيبة غافلاً عن رسالته في الغزو، ولكنه كان لأول عهده يختبر الدروب، ويستطلع المسالك في مطارح نازحة تستدعي المصانعة والتريُّثَ، حتى إذا ملك أمره، وتبين طريقه عمد إلى تحقيق هدفه في ثبات واطمئنان، وهذا ما كان منه بعد الجولة الأولى، فقد أعد العدة الكافية لمهاجمة الحصون المنيعة في بخارى والصفد، ودُقَّتْ طبول الحرب في أصقاع التركستان.

وكان الخطر مزعجاً داهماً، فتجمعت كلمة الملوك، ووقفوا صفاً واحداً أمام العدو المشترك، وزحفت جموع الوثنية إلى قتيبة، فحاصروه حصاراً أليماً، ولقي ضروباً قاسية من الأهوال في مطارح نائية لا عهد له بوهادها المضطربة، وآكامها الممتدة، ولكنه لم يغفل لحظة واحدة عن خصومه، بل هجم هجوم المستميت، وركز نضاله في جبهة واحدة فتفرق حماتها أباديد، ووقع الرعب في الجيش الوثني، فتبعه قتيبة مثْخِناً مجْهِزاً، وتحقق له ظفر مبدئي كان فألاً طيباً للقائد العظيم.

أجل، لم يكن النصر حاسماً قاطعاً برغم ما استولى عليه المسلمون من الغنائم والأسلاب، وما جمعوه من الأواني الذهبية والتحف النادرة، بل إن فلول الجيش المنهزم قد استغاثت بأشياعها وأحلافها، وتكدست الوثنية أمام قتيبة فأجمع ملوك الصفد والترك وأهل فرغانة وكش ونسف، على مقاتلة المسلمين، فلم يكترث بهم قتيبة وتقدم إلى فتح بخارى ملقياً بجنوده أمام الطوفان الهائل من القطيع المتلاحم، ودارت معركة رهيبة هُزم فيها المسلمون بادىء ذي بدء، وكان الوثنيون يتحصنون بنهر كبير، فحشد القائد المسلم قوته وعبر النهر إلى أعدائه من حيث يأمنون، فساد الفزع والاضطراب، وتلقفتهم أمواج النهر ورماح الغزاة وسقطت بخارى المنيعة بعد أن حصدت أمامها الرؤوس، وسالت بها جداول الدماء.

اشتدت شوكة الجيش الإسلامي بالنصر المؤزر، وأحس قتيبة أن قوة من السماء تسانده وتعاضده، فخطب في جنوده وحثهم على مواصلة الجهاد، وأكد لهم أن العدو المنهزم لا يلبث أن يتكتل مرة ثالثة، وأن الجيش الإسلامي يقف وحده أمام ممالك كثيرة متكتلة ولن يفوز بغير الصبر والإيمان، وكان ما توقع القائد العربي أن يكون، فقد كان الملك «نيزك» صاحب «باذغيس» يضمر حقداً عنيفاً للفاتحين، فأظهر الخضوع والاستسلام خدعة ودهاء، ووصل إلى المعسكر الإسلامي ليستطلع أموره، ويقف على دقائقه وخوافيه ثم ما لبث أن ارتد محنقاً إلى ملوك «بلخ» و «مرو» والطالقان والجوزجان، فأشعل في كل مملكة ثورة، وأضرم في كل صدر ناراً ووجد قتيبة عدوه يتجمع ويحتشد، فاستقدم جنوداً إسلامية من «نيسابور» وغيرها ولم يدع الأيام توسع لأعدائه سبيل الأهبة والاستعداد، فتوجه مسرعاً إلى «نيزك» صاحب الفتنة، فوجده يعتصم بآكام ومضايق وعرة لا سبيل إلى النفاذ إليها، فلبث المسلمون أياماً لا يهتدون إلى ثغرة تلوح حتى سهل الله كل صعب، فسلكوا طريقاً واضحاً إلى معسكر العدو، ودار الموت الأحمر في

حومة القتال، فسقطت نفوس كثيرة، وتمكن قتيبة من النصر بعد معارك طاحنة يشيب لهولها الولدان.

تابع البطل الفاتح زحفه إلى «شومان» و«الصفد» وسجستان، وخوارزم، فكان موفق الخطوات، ميمون العاقبة، ولكن الوثنية الحائرة تكتلت للمرة الرابعة أمامه، وهبت تقاتل في يأس مرير، يتقدمها أبناء الملوك والمرازبة والأساورة، ويقودها ابن خاقان، فرأى قتيبة أن يتفرغ لرسم الخطة وإدارة الموقعة وندب أخاه صالح بن مسلم لقيادة الحومة، ومواجهة الصفوف، ثم أمر لفوره أن تنصب المجانيق على أسوار سمرقند، وما زال يضربها حتى تصدعت أركانها، وتساقطت أحجارها، واشتد الضيق بالوثنيين، فطلبوا الصلح، وانتصر الإسلام انتصاراً حاسماً، ودخل قتيبة المدينة وبنى مسجداً وصلى به، وانتخب لها والياً قوياً من جنوده فاستضاءت بنور محمد. وترددت في جوانبها أنغام الأذان.

كسب قتيبة هذا المجد الباهر في ثمانية أعوام لم تمر بها ليلة واحدة في راحة جسم أو هدوء بال، بل كان الجيش الإسلامي يواجه أهوالاً رائعة، ويقع في مآزق حرجة فتارة تنفد ذخائره، وطوراً يفقد زهرات من شبابه، وقائده من وراء ذلك يبث فيه من روحه وينفخ من عزيمته ويضرب المثل بنفسه، فيتقدم الكتيبة الحمراء، ويفتح صدره للرماح المشتجرة، وكان حافزه الملح إلى الجهاد هيامه بانتشار الإسلام، وذيوع تعاليمه، فكلما نظر إلى الوثنية تتغلغل في بقاع لا تعرف الضياء عزم على استئصالها بكل ما أوتي من شجاعة وإيمان، وكان يثلج صدره أن يدخل المدينة الجديدة فيشرح للناس هداية الإسلام، ويقرئهم آيات القرآن وأحاديث الرسول، ويدع بها من العلماء من يدعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، لذلك بث المساجد وبناها في كل مكان، وجعل أئمة المسلمين وعلماءهم يسيرون مع الجيوش الباسلة، فيأمرون بالعدل والإحسان، وينهون عن الفحشاء والمنكر، ويقيمون الدعائم الرفيعة للأخلاق الإسلامية، فيحيون المساواة العادلة في أمم تنازعها الإقطاع، وتعدد بها الطغاة وتأله فيها الحجر، وعبد الصنم والكواكب والنار من دون الله، وقد حارب قتيبة الخرافات الدينية بنفسه، فأحرق أصناماً مقدسة وأطفأ بيوتاً للنيران كانت تتقد وتلتهب.

يقول ابن الأثير: «وأتى بالأصنام فكانت كالقصر العظيم» فأخذ ما عليها وأمر بها فأحرقت، فقال «غوذك» ـ ولعله أحد مؤيديه ـ: إن شكرك علي واجب، فلا تتعرض لهذه

الأصنام فإن بها أصناماً من أحرقها هلك، فقال قتيبة: أنا أحرقها بيدي، ودعا بالنار فكبر ثم أشعلها فاحترقت.

ونحن مع إعجابنا البالغ بقتيبة لا ننكر أثر الحجّاج في التوجيه والمشورة، فقد كانت عينه متيقظة لمطالب جنده النازح، وكان البريد يصله بأخبار الفتوح، وهو لا يفتأ يعد الذخائر، ويبعث المؤن، ويشير بالخطط، وإذا كانت الخطة غير التنفيذ، فإن مما يشرِّف قتيبة أن يصل إلى النصر الحاسم في طريقه المرسوم ظافراً مؤيداً، وأن يخضع الجيش الإسلامي لرغباته دون أن يرتفع صوت واحد بمعارضته، وأن يزن أعوانه وجنوده فيضع كلًا في موضعه اللائق دون اعتبار لغير الكفاية الشخصية والمقدرة الحربية حتى كلل جهاده بالتوفيق، وقدرت له دمشق بطولته فبعث إليه الوليد بن عبد الملك بكتاب يفيض بالمدح والثناء.

وواضح أن الإسلام لم ينتشر فجأة في بلاد ما وراء النهر بمجرد انتصار قتيبة فإن دين كل إنسان متغلغل في الأعماق ولا يمكن انتزاعه بانتصار في موقعة أو بناء مسجد في مكان، لذلك لاقى المسلمون بادىء الأمر رهقاً عسيراً في التبشير بدينهم، كما لقي الذين أسلموا من الوثنيين مقاومة عنيفة من ذويهم حتى هدى الله النفوس للحق، فأشرق عليها نور الإسلام طواعية واختياراً، ورأى هؤلاء من سماحة المسلمين ما حببهم في الإسلام، وأدناهم منه، ولم تمض سنون حتى أصبحوا من أنبغ أهله علماً وعملاً، وذخرت المكتبة الإسلامية بمؤلفاتهم العلمية والدينية، فأصبحت ترى في أساتذة الإسلام وأئمته من سمي بالبخاري، والسمرقندي، والبيهقي، والنسفي، والخوارزمي، والترمذي، والنيسابوري، والزمخشري، والبيضاوي، والشيرازي، إلى آلاف من الأفذاذ يتحدث عنهم تاريخنا العلمي حديثاً مضمخاً بالثناء.

وقد مات الحجاج وهو الساعد الأيمن لقتيبة، وتوفي بعده الوليد بن عبد الملك، وكان لا يقل عنه تعضيداً للبطل الفاتح، فخسر بوفاتهما دعامته القوية التي كان يستند إليها في قيادته وأصبح أمام سليمان بن عبد الملك وجهاً لوجه.

وأخذ الخليفة الجديد يؤاخذ قتيبة وآخرين من أقطاب المجاهدين والولاة على أنهم كانوا يتعصبون عليه لأخيه الوليد، فكان في نفسه شيء من الضغن عليهم، وكان ينبغي له ـ وقد ارتقى إلى منصب الخلافة ـ أن يتناسى ذلك لهؤلاء القادة البسلاء، الذين رفعوا

راية الإسلام وأعلوا مكانة الدولة إلى السماء، ولو أصاخ قليلاً إلى منطق العقل النزيه لسعى إلى استرضائهم، وجهد في تقريبهم، ليكونوا معه كما كانوا مع سابقه.

وقد ضاعف النكبة على قتيبة أنه كان قد تأهب لغزو الصين، ودخل مدينة كشغر، وأصبح قريباً من الحدود، وأتت الرسل تسعى بالسفارة بينه وبين الدولة المهددة بالغزو الإسلامي، أفيتراجع فجأة عن الغزو منتظراً ما يأتيه من دمشق؟ أم يستمر في مراسلة ملك الصين واستطلاع داخله مع حرج مركزه ودقة موقفه المتأرجح؟ مهما يكن من شيء فقد استمع قتيبة إلى نداء البطولة، وعصفت برأسه النخوة العربية حين جاءه رسوله «هبيرة الكلابي» يحمل تهديد الإمبراطور الصيني، فبعث يعلمه أنه لن ينصرف عن بلاد الصين حتى يطأ الأرض، ويختم الملوك، ويُعطي الجزية، وكان لهذا الرد الحاسم زلزال عنيف في صفوف الجيش الصيني، فخارت قوى الإمبراطور، وبعث بالجزية صاغراً مع بعض أبنائه، فكف عنه قتيبة، ولولا دقة موقفه السياسي لاقتحم أرضه وضم إلى الإسلام أصقاعاً جديدة، ولكن ماذا يصنع والريح عاصفة والجو ملبد بالغيوم مجلجل بالرعود.

ولم يلبث سليمان أن أصدر قراره بعزل قتيبة كما أمر بإحضاره إلى بلاط الخلافة في دمشق ولو استجاب البطل الفاتح لهذا العزل الظالم للقي مصرعه كما لقيه فاتح الهند الأعظم محمد بن قاسم الثقفي بعد جهاد مبين.

لقد فضل «قتيبة» أن يموت في حومة القتال دون أن يلقى منيته في غياهب السجن وثقيل الأغلال، فأعلن مخالفته الصريحة، وقاد كتائبه الجريئة ليقف أمام جنود الخليفة، ولكن سهماً طائشاً أودى بحياته، فسقط شهيداً وطارت روحه الباسلة إلى ربها راضية بمآثرها البيضاء وجهادها الخالد، ومن المؤسف أن أكثر أعوانه من العرب تألبوا عليه في محنته، لا لشيء إلا أنه وثق في كفاية بعض الخراسانيين فقدمهم في الألوية والقيادة مع نظرائهم من العرب، مؤثراً المساواة العادلة التي شرعها الإسلام وكأنه بذلك قد جانب حقاً واضحاً واعتصم بضلال أكيد.

وكان لمصرع «قتيبة» دوي هائل في العرب والفرس معاً، أما المخلصون من العرب فقد رثوه بقصائدهم النائحة، وأقض مضاجعهم أن تكون نهاية البطل الفاتح قريبة عاجلة، بعد أن عقدت عليه الآمال، ومكن للإسلام في بلاد يعوزها الإشراق والإيمان،

وأما العقلاء من الفرس فقد صعدوا الزفرات الحارة حزناً على استشهاده الأليم.

مرّ خراساني على جثة قتيبة وهو مضرج بدمائه فبكى، واستعبر، وقال: يا معشر العرب قتلتم «قتيبة» وهو الفارس المغوار، ولو كان منا معشر الفرس فمات لجعلناه في تابوت، فكنا نستفتح به كلما دقت طبول الجهاد. وقال آخر: يا معشر العرب قتلتم «قتيبة» ويزيد بن المهلب وهما سيدا العرب بخراسان. فقال له بعض السامعين: أيهما كان عندكم أعظم وأهيب..؟ قال: لو كان قتيبة بالمغرب الأقصى مكبلاً بالحديد ويزيد معنا في بلادنا لكان قتيبة أهيب في عيوننا وأعظم.

مات قتيبة رحمه الله، وبقيت صحيفة أعماله خالدة ناصعة، فرفعه التاريخ إلى أفق زاهر يشرق بالبطولة والكرامة والشهادة، وفي ذلك عزاء أي عزاء. وسلام على البطل العظيم.

محمد بن القاسم الثقفي

فاتح الهند

تتلألأ البسمة الزاهرة على فمك إذ تطالع تاريخ البطل الشاب محمد بن القاسم، فترى من خوارق البطولة ونوادر البسالة ما تتقاصر دونه الهمم البعيدة، وينوء بثقله ذوو المطامح العالية من أولي النجدة والإقدام، وقد تنقطع عن القراءة فترات مختلفة تجول بخيالك في عالم هذا البطل العجيب، فتتصور مدى ما أحرزه من نصر باهر!!

وتترك للإعجاب الزاخر في نفسك متنفساً يجيش به عبابه، وتتواكب طيوفه، ولكن البسمة الزاهرة تنقلب إلى دمعة ساخنة حين تـفجؤك نهايته الأليمة، فتظن مرارة الحزن تحيل ريقك إلى مصاب مرير، وتتوهج في قلبك جذوات الغضب على أناس تتأجج أحقادهم الآثمة؛ فلا يطفئها غير التنكيل بالأبرياء، والتربص بالأفذاذ العماليق، ولو كان البطل الشهيد قد لاقى مصيره في معترك السيوف، وبين مشتجر الرماح لكان مصرعه مدعاة ارتياح لمن يقدرون فروض البطولة على أصحابها، وديون القيادة على أربابها!! ولكنه ـ وا لهفتاه ـ يذهب ضحية للحقد اللاعج، والحزازة المدمرة! ثم تختلق الأكاذيب المغرضة؛ لتلطخ بسوادها المنكر صحيفة بيضاء تتألق ساطعة بنور الفضيلة والكرامة والإباء.. ويمضي الشهيد إلى ربه صابراً محتسباً، لتكون شهادته وساماً لامعاً يزيد من أجره لدى الله، ومن شكره عند الناس، ها هي ذي قصة كفاحه!! تصيح بالعظة المـؤثرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع!!.

لقد سيطر الحجاج بن يوسف الثقفي على الدولة العربية في ظلال الحكم الأموي زمناً ليس بالقليل، فكان مطمح الأنظار وقبلة النفوس، وكانت ثقيف تعتز به، وتفخر برجولته، ويترنم فتيانها بانتصاراته ومواقفه، حتى صار كل ناشىء ثقفي يتخذ من الحجاج مثلاً في البطولة والكياسة، وكان أشد من بهرهم مجد الحجاج غلام ناشىء من أبناء عمومته هو محمد بن القاسم الثقفي، فما كاد يشب عن الطوق حتى اتجه إلى الفروسية والبطولة، فلقن فنون الحرب، وحذق أساليب القتال، ورأى أستاذه الحجاج يضرب بسهم في البلاغة الخطابية، فعكف على شوارد اللغة، وقلائد البيان، يستظهر عيونها، ويجمع أوابدها حتى

قال الشعر الرقيق، وعبر عن أحاسيسه الطامحة بأزاهير ناضرة من القصيد، واتجه بقلائده إلى الحماسة والبطولة والبيان معاً، واسترعى إليه الحجاج على حداثة سنه، فعهد إليه بمهام خطيرة لا يتقلدها غير المحنكين من ذوي الدربة والمرانة، وقد أظهر من الكفاية والمقدرة ما جعل ابن عمه يقذف به إلى وادي السند على رأس جيش عربي ضخم!! وكانت فراسة الحجاج صادقة فقد فتحت الهند على يد البطل الشاب، ودخلت الثقافة الإسلامية إلى بلاد عاشت في الوثنية والضلال، فبددت الغياهب واكتسحت الضباب..

والحق أن غزو الهند كان أملاً يراود أبطال الإسلام في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وبخاصة بعد أن تحطم سلطان الكسروية في القادسية وتزلزل كيان القيصرية في اليرموك، غير أن الفاروق كان يحذر أن يزحف العرب في آكام وهضاب لا عهد لهم بمنعرجاتها الوعرة، ودروبها الملتوية، فكتب إلى عامله في البحرين عثمان بن أبي العاص الثقفي يحذره من توغل جنده في وادي السند، ويقول له: يا أخا ثقيف لقد حملت دوداً على عود، وإني أحلف بالله؛ لو أصيب عدد من جندك لأخذت من قومك بمثلهم!! وبرغم ذلك التحذير فقد تتابعت الغارات الإسلامية بعد خلافة عمر على شواطىء الهند وجزائرها المختلفة، وأخذت الفرق الاستطلاعية من كتائب المسلمين تكتشف هذا الوادي الفسيح، وتستوطن أماكن متفرقة منه دون أن تلتقي بجنوده في موقف حاسم، أو تقع في مأزق كريه، وظل الحال على ذلك حتى كان عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وقد فرغت الدولة من ثوراتها الداخلية فهدأت عاصفة ابن الزبير، وقضى الحجاج على جبهة ابن الأشعث، وتمكن السلطان الأموي بعد أن كادت تميل به الأعاصير، وإذ ذاك سارت الجيوش العربية لتستأنف الفتوح المعطلة، ولتضيف إلى رقعة الإسلام بلاداً يسعدها أن تشرق عليها شمسه، فسار قتيبة بن مسلم الباهلي إلى ما وراء النهر، وأوغل في كرمينية، وبخارى، ومدن خوارزم، وسمرقند ظافراً منصوراً، واتجه موسى بن نصير من مغرب إفريقية إلى بلاد الأندلس على نحو ما قدمنا، فافتتح قرطبة، وأشبيلية، وبرشلونة، وبوأ للإسلام مكاناً عالياً، ورفع للعربية علماً خافقاً، وقد رأى الحجاج أن تأخذ ثقيف نصيبها من الغزو والجهاد فعقد اللواء لابن عمه محمد بن القاسم، وهو في السابعة عشرة من عمره فسار على رأس عشرين ألف مقاتل إلى بلاد الهند فسطع نجمه وكسب مجداً خالداً يفوح على الزمن أريجه العاطر، وتتناقله الأجيال وراء الأجيال. لم يكن محمد بن القاسم أول مبعوث للحجاج إلى هذه البلاد، فقد كان قبله من القادة سعيد بن أسلم الكلابي، فمُجاعة بن مسعر السعدي، ثم محمد بن هارون النميري، وقد قام كل بطل من هؤلاء بنصيبه الموفور في الجهاد على تـؤدة وتحفظ، دون أن يجازف بحملة خطيرة، قد تسوء مغبتها في أصقاع نائية

وأودية سحيقة، وكان الحجاج يحبذ هذه الحيطة الرشيدة، حتى أهدى ملك سيلان ـ وكانت تسمى حينئذ جزيرة الياقوت ـ إلى الحجاج سفينة تحمل نساء عربيات مسلمات ممن توطن في سيلان حيناً ما. .

واتجهت السفينة إلى سواحل العرب، فخرج عليها قوم من قراصنة «الديبل» واستولوا على نسائها، فصرخت أعرابية من بني يربوع: واحجاج واحجاج! وطار إليه الخبر باستغاثتها فنادى من وراء الجبال والبحار لبيك لبيك!! ثم كتب إلى ملك الديبل بتخلية السفينة وإطلاق النسوة فجاء الرد بغير ما يحب، فثارت ثائرة الحجاج واختار عبد الله بن نبهان لقتال الحاكم، فذهب رضي الله عنه شهيداً ثم استبدل به «بديل بن طهفة البجلي» ففاز بالشهادة دون أن يصل إلى أمر حاسم! وإذ ذاك تحرج الموقف أمام الحجاج، وأرق ليلة طويلة يفكر في غزو الهند وعلى يد من تكون.

وذلك بعد أن رأى قواده يتساقطون كأوراق الشجر شهيداً خلف شهيد. . ثم تأمل في ابن عمه محمد بن القاسم؛ فرأى في حزمه وبسالته وفدائيته ما يرشحه لقيادة الجيش المحارب، ولم يكن الموقف هيناً حتى تختار له شخصية هزيلة، فهناك قائدان صريعان ودونهما طاغية يستبيح المحارم، ويغير على المسلمات الآمنات، وإذن فقد كان اختيار البطل الصغير وليد فراسة حاذقة، ونتيجة دراسة واعية، وقد أشرف الحجاج بنفسه على إعداد الجيش، فاختار عشرين ألف مقاتل من خيرة الأبطال، وصفوة الجنود، وأعد أسطولاً قوياً يحمل المشاة والمؤن والعدد الثقيلة، كما زود الكتائب الغازية بجميع ما تحتاج إليه من الأدوات حتى الإبر والمسال، وقد بلغ به الأمر أن وضع الخل في القطن وجففه في الظل لتبقى به المادة فيسهل استعمالها بعد الغمس في الماء ثم اجتاز الجيش حدود إيران إلى الهند، فاستولى على بعض العواصم الهامة، زاحفاً إلى «الديبل» فخندق الجيش بخيوله وأعلامه، واستعد لمقاتلة «الراجة داهر» حاكم الإقليم في حصنه المنيع. .

ترى ما يصنعه المغيرون البسلاء في بلد منيع متحصن بالقلاع والأسوار! لقد كان لديهم منجنيق ضخم يسمونه «العروس» تقذف منه الصخور إلى داخل الحصون فيدكها دكاً كأن لم تغن بالأمس، وها هم أولاء يصوبون صخورهم إلى صنم ضخم يرتفع بالمدينة وعلى رأسه راية تدور مع الريح في كل اتجاه، وكانت له منزلة عالية في نفوس الوثنيين، فهم يعظمونه ويطوفون حوله، ويظنون الدائرة تدور على من يمسه بسوء، فلما سقطت رايته وتهشم رأسه ثارت ثائرتهم فهبوا لملاقاة الغزاة الفاتحين، ودارت معركة حمراء نكصت بالوثنيين على أعقابهم، فتسلل العرب خلفهم، وتسلقوا الأسوار العالية، وفتحوا المدينة عنوة وتمت كلمة الله، فكانت العاقبة للمتقين.

وأصبح محمد رئيساً لجيش منتصر ظافر، يسير به في طريق الفوز والفلاح، ولكن لم تأخذه نشوة النصر، فتغير من تواضعه الرفيع، أو تجنح به إلى الزهو والمباهاة، بل استمر يعامل جنوده وأعوانه وفيهم من يكبر أباه سناً وقدراً، معاملة عادلة رحيمة، فما يقطع بأمر دون مشورة ومناقشة؛ بل إن الذين انضموا إلى جيشه من «الزط» كانوا أكثر من أربعة آلاف مقاتل، وجدوا من مروءته وأريحيته ما دفعهم إلى الاستبسال والحماسة، وقد قارنوا بين شمائل البطل العربي الصغير وما يعرفونه من غطرسة الملوك، وشراسة القواد، فرأوا البون شاسعاً، وظهر لهم الفاتح المسلم في صورة إنسانية رفيعة، فاتحدت كلمة الجيش الغازي، وسار وراء قائده المقدام، فكان لا يمر بمدينة إلا فتحها حتى عبر نهر (مهران) وأيقن (الراجة داهر) أن الزمام قد خرج من يده، فرمى بآخر سهم في جعبته وجمع فلول الوثنية من أشتات المقاطعات، واستعد لمعركة فاصلة، ودارت رحى الحرب رهيبة، جثم خلفها الهول المستطير، فقد ركب الوثنيون الفيلة ليرهبوا خيول العرب فتتقهقر مقدمتهم، ولكن قذائف النفط الملتهب قد أفزعت الأفيال، فشردت بأصحابها إلى الوراء، ووقع الذعر في نفوسهم، فدهمهم المسلمون، وأجهزوا عليهم بالسلاح حتى امتلأت الأرض بالأشلاء وغرقت في لجج الدماء، وسقط (الراجة) قتيلاً، واستولى الفاتح المسلم على مدينته وأسلابه.

ومضى يطهر أرض السند من الوثنية المشركة حتى قطع نهر (بياس) إلى (الملقان) فوجد قوة جبارة تذود عنها، فاضطر إلى محاصرتها مدة كبيرة حتى فقد الزاد وقل الصبر، وبلغ الجهد مبلغه من النفوس، ولكن الظلام قد انجلى عن صبح مسفر، إذ اهتدى الغزاة إلى مدخل الماء بالمدينة فقطعوه عنها، وأرغم الوثنيون على التسليم، ولا تسل عما غنمه المسلمون من ذهب خالص بلغ مائة وعشرين مليون درهم.

وكانت (الملقان).. أقصى ما وصل إليه محمد بن القاسم من ناحية الشمال فرفرف عليها علم الإسلام، وخرجت من الظلمات إلى النور، ولئن كان البطل الفاتح قد ملك جنوده الكماة بأريحيته النادرة، وبطولته العظيمة فقد سحر الهنود أنفسهم بعدالته وسماحته، ولم يكن همه السيطرة والاستيلاء، بل كانت معه مبادىء دين جديد، يجب أن تطبق وتنفذ، لذلك بنى المساجد في كل مكان يغزوه، وعمل على نشر الثقافة الإسلامية مبسطة ميسرة، بل إنه أسهم برأيه في أمور فقهية تدل على سلامة استنباطه، وتنأى عن الحرفية الضيقة والجمود الآسن الكريه فقد كان لأهل (الرواز) «بد» تُهدى إليه الأموال، وتقدم له النذور وقد اشترطوا على ابن القاسم ألا يقربه بسوء، فخضع لهذا الشرط، وكان عند وعده إذ اعتبر (البد) مثل كنائس النصارى واليهود، وبيوت النيران عند المجوس، وكان يوزع على عماله كتباً تدعو إلى العدالة والنصفة، ويسهر على تنفيذ تعاليمه في صبر بالغ، تغذيه الفتوة ويمده

الشباب، وقد تعلق به الهنديون تعلقاً شديداً، ونسجوا الأساطير البديعة حول بطولته، وحين جاء الأمر بعزله عن مسرح كفاحه ومرقى مجده؛ جزعوا على فراقه جزعاً شديداً، وخرج النساء يصرخن، وودعه الرجال والشباب متحسرين آسفين. وقد صوروه بالحصى على جدرانهم ليبقى شخصه ماثلاً للعيون، وإن كان يحتل الأفئدة ويملأ الصدور..

وحين تسأل عن أسباب عزله ورجوعه فخوراً إلى ظلمات التشريد والتنكيل تجد الإجابة مشعرة بالأسف واللوعة على أناس تلعب بهم الأهواء، ويقودهم الحمق الأرعن إلى مهاوي الجحود والعقوق، فلم يكن للبطل الباسل من ذنب لدى الخليفة سليمان بن عبد الملك إلا أنه ابن عـمٍّ غريمه الحجاج، فلا بد من الانتقام منه أبشع انتقام، وليس العزل وحده عقوبة تشفي الغيظ وتبعد الحقد، بل إن التعذيب المفضي إلى القتل فالشهادة هو النهاية الأليمة لهذا البطل المغوار الذي نجا من حومة القتال ليسفك دمه في مباءة الغدر والنذالة والانحطاط، وإذا كان الحجاج قد وتر سليمان بن عبد الملك حين هم بخلعه عن الخلافة، فما ذنب أقربائه وذوي رحمه.. وهل في تعاليم الإسلام ما يبيح لملك طاغية أن يريق دماء الأبطال فيبوء بأفدح وزر ويكسب عار الأبد وفضيحة التاريخ؟! تلك مأساة تفتت الأكباد وتحرق القلوب.. ماذا عسى أن يفعل أعداء البطل به والدنيا تشهد لمآثره، وتترنم بفتوحه، ولو هموا بقتله مباشرة لصرخت النوادب في كل مأتم، ونسجت المنائح في كل ناد، فلا بدَّ من اختلاق إثم آفك يبرر الفتك الشنيع، والغدر الرهيب!

لقد أجمعوا أمرهم على إذاعة دعوى باطلة فاضحة عن علاقة آثمة كانت بينه وبين ابنة (داهر) ثم جاؤوا بالأميرة الأسيرة لتختلق إفكاً صراحاً عن قاتل أبيها وممزق مملكتها، ولم تكن الأسيرة في حاجة إلى من يحرضها على غريم عنيد يتنزى قلبها حقداً عليه، ويـؤرق عينيها ما جلبته فتوحه الزاهرة على أهلها من شقاء دائم، وعلى نفسها من حزن مقيم، فاندفعت الحاقدة الموغرة تذيع إفكاً من القول صيغ لها صياغة مفضوحة زائفة، فلاكته على رؤوس الأشهاد، وخُيِّل لأعوان الخليفة أنهم أحكموا الخطة، ومهدوا الأسباب المبررة للاغتيال، فاندفعوا وراء شهواتهم الآثمة يطفئون نوراً يسطع كوكبه ويهدمون صرحاً تتعالى قمته، والعيون تنظر لتشهد أفجع مشهد لبريء كوفيء على الكفاح بالإعدام في زمن سادت فيه النزوات الجامحة.. وخنس العقل الحكيم..

لقد كان في طوق القائد الشهيد أن يقاوم العزل ويتحدى الخلافة بما له من كلمة مسموعة في جنده ودولته، ولكنه قابل المحنة صابراً راضياً، واستسلم طائعاً لما توقعه من النكال حتى لقي ربه شهيداً بريئاً، تتقدمه وقائعه الغر في سبيل نصرة الإسلام وإعلاء كلمة

الدين، وقد وجد في كُتّاب التاريخ من سجلوا فتوحه وترنموا بملاحمه الفاصلة، فأصبح عمره القصير مضرب المثل في البطولة والبسالة، ومقياساً فسيحاً لما تتسع له جهود الشباب من أعمال روائع، وقد عقد الأستاذ عبد الحميد العبادي موازنة طريفة بينه وبين الإسكندر المقدوني في كتاب (صور من التاريخ العربي) فبين أن غزوته إلى الهند شبيهة بغزوة الإسكندر، من حيث إن كليهما قد نهج منهج الآخر في نشر الثقافة بالسند، ومن حيث إن كليهما كان يهدي إلى أستاذه طرفاً من طرف فتوحه، ويراسله مستطلعاً رأيه، فالفاتح المقدوني كان يهدي إلى أرسطو ويراسله، والفاتح المسلم كان يهدي إلى الحجاج ويراسله مستطلعاً رأيه في بعض المواقف اهـ.

أجل لقد استشهد البطل العربي محمد بن القاسم ولم يبلغ الرابعة والعشرين من عمره بعد أن فتح الفتوح وقاد الجيوش وضم الباكستان العظيمة إلى رقعة الإسلام، فاستضاء بجهاده وبمن جاء بعده مائة مليون من خيرة المسلمين، ولقد استتم هذا المجد الشاهق لصاحبه الباسل في سنوات قصار تكللت بالظفر والنجاح، ثم طوى العقوق فارِسها المحجل في مهاوي الجحود ومطارح الكفران..

«يا كوكباً ما كانَ أَقْصَرَ عمرَهُ   وكذاك عُمْرُ كواكبِ الأسحارِ»

عبد الرحمن الغافقي

فارس بلاط الشهداء

كان عبد الرحمن الغافقي رحمه الله بطلاً بعيد الهمة حازم الإرادة، وكان جديراً بتخليد اسمه وترداد ذكره لولا أن حافظة التاريخ لا تعي غير أسماء محظوظة، كُتب لأصحابها النصر في النهاية، ولقد أبدى هذا البطل العظيم من ضروب الفدائية وروائع التضحية ما يدهش ويعجب إلا أنه كان في المعركة الأخيرة مع بسالته الخارقة قائداً بغير جنود.

وقد نشأ نشأة مباركة، فصحب كرام الصحابة، وتلقى الفقه والحديث عن عبد الله بن عمر وغيره، وفاضت نفسه حماسة للإسلام وشغفاً بانتصاره، فنزح فيمن نزح إلى الأندلس من البسلاء الكماة، مجاهداً في سبيل دينه. ثم تألق نجمه فيما اشترك فيه من الغزوات والحروب، فعرف بالشجاعة والمروءة، واكتسب إجلال معارفه وأصحابه، وتقدم الصفوف قائداً ممتازاً يرسم الخطط ويدير المعارك.

وكانت الأندلس في عهدها الأول مرتعاً للفتن والثورات، ومسرحاً للخلاف القبلي والعنصري، وقد وليها بعد موسى بن نصير أناس لم يثبتوا للحوادث، حتى رأسها «السمح بن مالك الخولاني» فأعاد إليها النظام والاستقرار، وأبرز مهارته الإدارية، وكان بطلاً مقداماً، فرأى أن يستأنف الغزو، ويرفع راية الجهاد، وتقدم بجيشه الباسل، فلقي كثيراً من النجاح والتوفيق، واستعاد «أربونة» و«قرقشونة» ومعظم قواعد «سبتمانيا» وحصونها، وأقام بها حكومة إسلامية ثم اتجه إلى «أكوتين» فوجد مقاومة عنيفة، ولكنه اكتسح العدو اكتساحاً رائعاً، وتقدم إلى «نولوشة» فوقف أمام جيش كثيف يفوقه عدداً وُعدَداً فلم يعبأ به واخترق صفوفه، وقذف بجنوده في حومة حمراء بالدماء، وشاء الله أن يسقط شهيداً في مأزقه الكريه، فانسحب المسلمون ثانية بعد أن فقدوا قائدهم البطل، وخسروا عدداً كبيراً من الجنود.

وكان عبد الرحمن الغافقي أحد جنوده في المعركة فأجمع الجيش على اختياره للقيادة، ورأى من الحنكة أن يرتد إلى الجنوب ولكن حزنه الأليم على مصرع قائده، واستشهاد زملائه جعله يفكر جدياً في الانتقام لمصارع الأبطال، واستئناف الغزو والهجوم.

ولم يرض الوالي الإفريقي عن اختيار الغافقي للقيادة، وكانت الأندلس تابعة له في تعيين

الولاة، فبعث بغيره مكانه إلا أن القلق والاضطراب الذي دام خمسة أعوام متتابعة قد أجبره على تعيين عبد الرحمن مرة ثانية فعاد الأسد إلى عرينه يتقدم الصفوف ويجهز الكتائب للنضال.

بدأ عبد الرحمن بإصلاح داخلي يقوم على العدالة والمساواة، فعدل نظام الضرائب، وعزل من العمال من حامت حوله الريب والظنون، وأظهر تسامح الإسلام في معاملة النصارى واليهود، فلهجت الألسنة بالثناء عليه، وفرح الأندلسيون بولايته فرحاً زائداً. . ولم يكن ليحابي أحداً في سبيل الحق والعدالة، بل إن أخلاق الإسلام التي سرت في عروقه واختلطت بدمائه ألهمته سبيل الرشاد، وجعلته يغزو غزوة عاجلة غنم فيها أسلاباً وافرة، وكان فيما أصابه عمود صغير من الذهب المرصع بالدر والياقوت، فأمر به فكسر، ثم أخرج منه الخمس كما أمر الله، وقسم الباقي على من معه من الجنود، فغضب والي إفريقية غضباً شديداً، إذ كان يود أن يتقدم به إليه مجاملة، فكتب يتوعده في لهجة قاسية، فرد عبد الرحمن يقول: إن السموات والأرض لو كانتا رتقاً لجعل الله للمتقين مخرجاً منها!!. وذلك يدل دلالة ساطعة على إيمان القائد وورعه وتخلقه بالخلال الإسلامية الواضحة الشفافة، فهو لا يعبأ بكبير في الحق، ولا يدخر لنفسه شيئاً دون جنوده، وبهذه الشمائل العالية نال ثواب الله. . . واحتل شغاف القلوب.

وكان هذا البطل الباسل يعزم عزماً أكيداً على تحقيق أمنية موسى بن نصير في الفتح الإسلامي، فهو يريد أن يوغل في أرض الإفرنج حاملاً مدنية الإسلام وحضارته إلى شعوب غارقة في الظلام والضلال، ثم يعطف على الشرق فينفذ من القسطنطينية إلى دمشق، وبذلك يعم الإسلام القارة الأوربّية، وينقذ شعوبها من الظلمات ويخرجهم إلى النور، هذا إلى أن مصرع «السمح بن مالك» ورفقائه كان يذكي في صدره نار الحمية، فهو يود ـ وقد شاهد المأساة ـ أن يؤدب هؤلاء الذين ظنوا الظنون الوخيمة بقوة الإسلام، فأشاعوا الشائعات المسمومة حول شجاعة أبطاله، ومقدرة قواده، ومن ثم أخذ يدرب الجيوش ويحشد الذخائر، ويضع كل جندي في موضعه اللائق بكفايته، ولم تنته أعباؤه الإدارية عند إعداد الجيش، وإذكاء الحمية في نفوس تتطلع إلى النصر أو الاستشهاد، كما انتخب فرقاً مختلفة من البربر وعهد بقيادتها إلى أبطال من العرب، فأحسنوا تدريبها الحربي، وأضافوا إلى الجيش الإسلامي قوة عظيمة، وقد خلع الغافقي بعمله هذا على البربر مكرمة خالدة. . فشعروا أنهم لا يقلون عن العرب كفاية وموهبة وإن كانت روح الإسلام لم تهيمن على مشاعرهم هيمنة تامة عاجلة، فقضوا ـ بعد ـ أمداً كبيراً في التوجيه والاستعداد.

وقد رأى عبد الرحمن أن يطهر الجبهة الداخلية قبل أن يشتبك مع أعداء الإسلام في موقف حاسم، فبعث بكتيبة من جنوده إلى عثمان بن أبي نسعة، وكان من قبل والياً بربرياً

على الأندلس، فعزله عنها، وعين حاكماً لولايات البرينية، فاضْطَـرَمَ حسداً وحقداً على الغافقي وتعاهد مع أعداء الإسلام على مقاتلته، بل إنه تزوج ابنة دوق (أوكتني) ليضمن مساعدته في قتال عبد الرحمن، وكان هذا الدوق بين نارين: فهو يخشى من الجنوب الجيوش الإسلامية التي أصبحت على مقربة منه تهدد مقاطعته، وتدمر حصونه، كما يخشى جيوش الإفرنج من الشمال، وقد بعث (شارل مارتل) بطلائعها الزاحفة لمناوشته وإسقاط معاقله، فاضطر اضطراراً مجازفاً إلى معاهدة ابن أبي نسعة ومصاهرته أيضاً، وطار الخبر إلى عبد الرحمن، فأرسل إلى الوالي الخائن جيشاً بقيادة أحد المهرة من جنوده، فحاصره وقتله جزاء مروقه وخيانته.

عبأ الغافقي جنوده، واستأنف الغزو طبقاً لمشروعه الضخم الذي رصد حياته لتنفيذه، فاكتسح المدن الواقعة على نهر الرون ثم هجم على ولاية (أكوتين) وحالفه النصر، فمزق جيوشها وطارد فلولها، وسقطت في يده، وتابع زحفه منتصراً في جميع خطواته حتى افتتح نصف فرنسا الجنوبي من الشرق إلى الغرب في بضعة أشهر، وأصبحت العاصمة الفرنسية مهددة بالسقوط، وقد التهب جنوده حماسة وحمية، وزادهم إقداماً ما يتوجون به في كل معركة من النصر الباهر، والفتح العظيم.

انزعجت أوربّا انزعاجاً صارخاً لتقدم الجيوش الإسلامية، وفزع زعماء المسيحية، فأرسلوا صيحاتهم الصليبية في آفاق أوربّا، وبذلوا أقصى ما يقدرون عليه في إشعال الكراهية للإسلام، وتأريث العداوة لرجاله، وكان ملك الفرنجة ضعيفاً عاجزاً يتولى حاجب قصره (شارل مارتل) قيادة أموره، فتجمع حوله الصليبيون وقدموه قائداً للكفاح النصراني، وكان ذا أطماع واسعة يهدف إليها من وراء قيادته فحشد جيشاً ضخماً يؤلف العصابات الجرمانية والعشائر المتوحشة، ويجمع طوفاناً مرعباً من الآدميين المتوحشين، وقد خرجوا حفاة عراة، يتشحون بجلود الذئاب والنمور، ويرسلون ضفائرهم الممتدة فوق ظهورهم، فيرسمون للوحشية البدائية صوراً مزعجة حمراء، وضاقت بجموعهم الكثيفة سهول فرنسا فتدافعوا على ضفاف اللوار متراصين متزاحمين.

لم يعتمد «شارل مارتل» على القوة وحدها، بل أعمل الحيلة والمكيدة فانتظر بجنوده وقتاً غير يسير، وقد علم أن المسلمين مثقلون بالغنائم والأسلاب، فلا بد من انتظارهم وقتاً ما ليشغلوا بنفائسها الثمينة عن القتال، وليتجهوا إلى الحرص عليها من جهة، كما يتسع أمامه الوقت من جهة أخرى لتنظيم صفوفه، ووضع الخطط الدقيقة، وتقدير الاحتمالات المتوقعة في الهجوم والدفاع، ولم يكن المسلمون يقدرون في نفوسهم أنهم سيقفون أمام هذا الطوفان الحاشد من الموج المتوحش إلا أن وثوقهم من النصر خلع من قلوب القادة كل

خوف، فأخذ عبد الرحمن ـ وكان من فرسان المنابر والهيجاء معاً ـ يخطب في جنوده، ويحثهم على الثبات والصبر، وكان يتقد حماسة وحمية فأفرغ في خطبه كثيراً مما تزخر به نفسه المتوثبة ثم تقدم بجنوده يحدوه الأمل المشرق، ويدفعه اليقين الراسخ بمسالمة الأقدار، مرتقباً ما تتمخض عنه الأحداث.

وفي رحاب شمبانيا الشاسعة الأطرف ـ بين بواتيه وتور ـ التقى جيشان يختلفان عدداً ولغة وديناً، على مقربة من نهر اللوار هجمت فرسان المسلمين على صفوف الفرنجة، وتكدست جثث القتلى من الجانبين طيلة النهار حتى فصل بينهما الظلام.

كان الجنود المسلمون أُسداً مغاوير، فقد اخترقوا الصفوف وراء قائدهم الباسل، ورأوا من جِلَاد الأعداء ونضالهم المستميت ما لم يعهدوه من قبل، فكلما اخترقوا صفاً تلاحقت أمامهم وحولهم الصفوف المدججة ذات الصياح المرعب المتوحش، وقضوا نهاراً عابساً كريهاً كثرت فيه ضحايا الفريقين، واختال ملك الموت ليسقي الكماة الدارعين من معين ثجاج لا ينضب، وما غربت الشمس حتى خارت القوى، وتحطمت الأعصاب ووقف الليل الدامس حاجزاً كثيفاً يمنع تشاجر الرماح إلى حين.

وقد برقت في حندس الليل لشارل مارتل فكرة داهية، طار لها فرحاً واستبشاراً فالمسلمون مثقلون بغنائمهم الثمينة، وأسلابهم الذهبية النادرة، وكثير منهم من البرابرة الذين يحرصون على نفائسهم الغالية، فما عليه حين يتلاحم الجيشان إلا أن يبعث بمن يصيح باكياً على الأسلاب المنهوبة، والنفائس المباحة ليرتد المسلمون مدافعين عنها، فيتمكن عدوهم من رقاب عزيزة، وأنوف ذات شمم!! فكرة ماكرة قاصمة جالت بذهن القائد الفرنجي فبادر بتنفيذها حين التقى الجمعان. . وطار الصراخ في كل مكان وارتفع البكاء على النفائس، فصح ما توقعه شارل، وترك الكثيرون ميدان القتال واندفعوا إلى الخيام مذعورين، وهال الموقف الرهيب عبد الرحمن وأفزعه فطفق يعدو بجواده ذات اليمين وذات الشمال، داعياً إلى الثبات والإقدام في معشر زين لهم حب المال، وجنّوا هياماً بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وحين خابت صرخاته اليائسة ترك الطامعين من المرتدين، واندفع مع خيرة جنوده ليقف بهم أمام الطوفان المتوحش الرهيب.

واستبسلت كتيبة القائد استبسالاً ينحني له التاريخ إجلالاً وإكباراً فأطاحت بصفوف هائلة من الجحافل المتراصة المترامية، ولكن الطوفان اللجب قد زحف بموجه المزْبِدِ على الفدائيين المناضلين فسقط البطل الغافقي صريعاً شهيداً، وساد الذعر جيوش الإسلام إذ وقع استشهاد عبد الرحمن موقعاً أليماً، ودعا إلى الحيرة والذهول والارتباك، في حين أمعن

العدو في المسلمين تقتيلاً وإهلاكاً، فطارت نفوس كثيرة، وسقطت جثث لا تخضع لحصر، وتمادى «شارل مارتل» مع جيشه حصداً واستئصالاً، فلم يعبأ بجريح يئن أو شهيد يحتضر حتى أتى الظلام الأسود فطوى الستار على يوم أشأم، لم يسمع المسلمون بمثله في الأندلس قبل ذلك، وعرفت هذه المعركة الحمراء في التاريخ الإسلامي بمعركة «بلاط الشهداء» نظراً لكثرة من سقط في ميدانها الرهيب من شهداء الجهاد الإسلامي.

وقد اجتمعت تحت ستار الليل فلول الجيش المنهزم، وقرروا الانسحاب النهائي متسربلين بالظلام، بعد أن عمت النكبة، وتفاقم الخطب، وتقهقر الجيش سريعاً في هدوء صامت، تاركاً وراءه غنائمه وذخائره، وعدداً من الجرحى لا سبيل إلى إنقاذه في ساعات معدودات، وحين أشرقت الشمس نظر «شارل مارتل» فلم يجد اللواء الإسلامي يتقدم.. فظنها مكيدة بيتت بليل، وتلبث قليلاً لا يدري ما يصنع، ثم طال به الوقت فاندفع مع جيشه بحذر إلى المعسكر الإسلامي، فلم يجد غير الجرحى المحتضرين وذخيرة ضخمة من الأسلاب التي سببت وقوع الكارثة.. فأجهز على البقية الباقية من الأرماق المتخاذلة ونهب ما وقعت عليه يده من عتاد، ومال، وما زالت شكيمة الجيش الإسلامي - برغم انكساره الحزين - ترهبه وتخيفه، فخاف أن يتعقب الفلول المتقهقرة، ورجع إلى قواعده مكتفياً بما أحرزه في هذه المعركة من نصر ساحق.. وجعل يدق الطبول في كل مكان مردداً أهازيج النصر وأناشيد النجاح.

أجل لقد فرحت النصرانية بهذه النتيجة فرحاً عصف بالحلوم، وما زال أكثر كتاب الغرب إلى اليوم يتكلمون عن «معركة بلاط الشهداء» مزغردين مستبشرين، وقد ضفروا أكاليل الثناء، ونظموا قصائد المديح لشارل مارتل، وعدّوه بطل النصرانية الذي أوقف امتداد الإسلام، وثبت أركان المسيحية بعد أن زعزعتها العواصف، وتعرضت لأحلك الأزمات، وبالغ أكثر مؤرخيـهم في وصف هزيمة العرب، فذكروا رقماً خيالياً لضحايا الإسلام لا يستند إلى برهان، بل جعلوا معركة البلاط معركة استئصال وفناء، وهذا وهم «كاذب» وتضليل بعيد، فلو لم تكن للمسلمين قوة مرهوبة بعد الهزيمة لتتبع شارل مارتل فلولهم المرتدة بجيشه المنتصر ذي الروح العالية والزهو العريض، ولكنه جبن عن ذلك مقدراً ما يعترضه من الصعاب، وما كان للقائد الطموح أن يحجم عن كسب جديد يزيد به مجده التاريخي وصيته البعيد، ويكفي دليلاً على تماسك المسلمين بعد الهزيمة أنهم وقفوا في وجه القائد المنتصر حينما حاصر «أربونة» فامتنعت عليه امتناعاً أيأسه وحطم خططه، بعد أن كان يحلم بإبادة المسلمين واستئصالهم من الأندلس جميعها، ومن ثم فر راجعاً إلى قواعده، مكتفياً بسابق انتصاره وأحاديث الفوز والغلبة تفعمه بأريج عاطر، وترسل في سمعه أعذب النغمات.

لقد استشهد عبد الرحمن الغافقي بعد أن أبلى أحسن البلاء، وبذل أقصى ما يبذله قائد باسل في الذود عن حياضه ولكن مأساة «أحد» تكررت في سهول فرنسا مرة ثانية، إذ تكالب المسلمون على الغنائم، وتركوا الجهاد، فآسفوا البطل الغافقي في الغرب كما سبق أن آسفوا الرسول الهاشمي يوم أحد في الشرق، وكأن التاريخ يعيد نفسه من جديد ليبرز للمسلمين شتى العبر وأبلغ العظات، ولكن أين من يعقل ويتدبر؟!

على أن هذا التاريخ نفسه لم يطفىء بريقاً من مجد البطل الشهيد، فقد أجمع المؤرخون على تقديره وإكباره، وسجلوا فدائيته العجيبة بسطور من ضياء.. فقد قاتل قتال المستميت، وتقدم إلى الموت وهو لا يشك لحظة في استشهاده.

وماذا يصنع بمن سحرهم بريق المال فدارت عليهم وعليه الدائرة دون أن تجديه تضحية واستبسال؟

قد يقال: إن البطل الشهيد لم يملك السيطرة على جنده حين تحرج به الموقف، وهرع الطامعون إلى الأسلاب، ولكن هذه انتفاضة فجائية تقع أمثالها بغتة دون أن تدخل في حساب القادة، ولا يمكن أن تكون محلاً للمؤاخذة إذ أغفلها زعيم تعود النصر، وقائد ألف الطاعة والامتثال، على أن الغافقي بالذات قد فطن إلى خطر الأسلاب وحذر منها دون أن يشدد في أمرها رغبة في اجتماع الكلمة واتحاد الأهواء، كما ذكر ذلك الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه «مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام» وهناك نقد آخر لا يخرج عما ذكره الأستاذ محمد لبيب البتانوني في كتابه «رحلة إلى الأندلس» حيث قال ص ٦٠:

«كان يجب على الغافقي بعد دخوله بلاد فرنسا أن يجعل حداً لسيل هجومه قبل أن يقف الضعف الطبيعي لهذا السيل عند الحد الذي انقلب به الفتح خذلاناً والنصر هزيمة».

وهذا نقد يخطه الكاتب غافلاً عن الحمية الدينية التي كانت تهيمن على مشاعر المسلمين، وتجعل انتشار الإسلام فريضة تستحب فيها الشهادة إن لم تجب، وقد ألهبت الانتصارات المتوالية نفوس الغزاة فوثقوا من النصر وثوقاً طرد من أذهانهم كل شبح للهزيمة، على أنهم لم يؤتوا من ناحية القوة فيكون الضعف الطبيعي سبباً للنكبة كما ذكر الأستاذ، بل إن كارثة الغنائم وحدها هي التي أبعدت النصر القريب، وأخلفت ظنون القائد في شجاعة جنوده، وقد دعا إلى التخلي عنها دعوات صارخة حين وجد التناحر عليها يفتح باب الكارثة، وإذ ضاق به الأمر جاد بنفسه رخيصة هينة في جنب الله فارتفع إلى مقام البررة من الشهداء..

وقد كان فوتُ الموتِ سهلاً فردَّهُ إليه الحفاظُ المرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ

الأفشين

بطل باسل مضطهد

في التاريخ الإسلامي مئات من الأبرياء الأفذاذ قاموا بمجهود ضخم في مجتمعهم المعاصر، ثم عصفت بهم الفتن فقوبلوا بغير ما يستحقون، وسجل المؤرخون وقائعهم كما شاعت على ألسنة خصومهم، ولو أنهم تأملوا الحوادث كما يمليها المنطق العادل لأنصفوا البريء وأعرضوا عن الأراجيف!!

ولكن الحظ يلعب دوره في كتابة التاريخ، فترى لهذا القائد ما ليس لسواه من التحليل والتعليل، وقد يكونان في كفة واحدة.

غير أن الله شاء لهذا القائد ما لم يشأه لذاك!!

ومن هؤلاء القواد البسلاء «حيدر بن كاوس» الملقب بالأفشين، فقد ضمه المعتصم إلى جنده حين شاهد بطولته القاهرة، وصحبه في حروبه المتلاحقة، فأبدى تضحية خارقة، وبسالة عجيبة، وكانت مصر العزيزة أول مضمار حربي تلألأ فيه صيته البعيد، فقد أرسله المعتصم إليها غب فتن دامية ونزاع طائل بين عرب القيسية واليمانية، فأظهر مقدرة وكفاية، إذ أطفأ الثورة وأعاد الأمن والهدوء، وكر راجعاً إلى المعتصم يحمل إليه أنباء الطمأنينة والاستقرار.

عظم الأفشين في عين خليفته، فأخذ يرمي به إلى المهالك في حروب طاحنة، وفتن مشتعلة، وقد أسدى إلى الإسلام يداً خالدة حين قضى على الحزبية قضاءً مبيداً، وانتصر في معركة تتصارع فيها العقائد والشهوات، ويتجاذب في ميدانها العقل والهوى تجاذباً كان له أبعد الأثر في حياة الإنسانية، وأنضر الذكريات في صفحات الإسلام. لقد ظهر في عهد المأمون طائفة من المجوس يدينون بالتناسخ ويستبيحون المحرمات فيتزوجون

ذوات المحارم، ويندفعون في ميدان اللذة اندفاعاً يحطم العمران، ويقومون باستمالة الغرائز بحيث لا يمنع أحد مما يشتهي بحال!..

وقد ادعى زعيمهم «بابك الخرمي» أنه إله يملك الأمر والنهي، فآمن به القوم ووعدهم بملك الأرض، وقتال الجبابرة، وما لبث أن تجمع حوله الأوشاب من كل مذهب، فاستشرى أمره، وعظم، وصار ذا خطر عظيم وبأس شديد.. وقد انزعج المأمون لثورة بابك أكبر انزعاج، ووجه الحملات الضخمة لإبادته، فلما رجعت بطائل، وتساقط قواده العظام في الميدان قائداً بعد قائد، فحزن الخليفة حزناً شديداً، ووافته منيته وهو يفكر في أمر هؤلاء الفوضويين، فاستدعى ولي عهده المعتصم، وكتب له يقول في وصيته: «وعليك بالخرمية فاغزهم ذا بأس وصرامة، وأكنفه بالأموال والسلاح والجنود والفرسان، فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك، واعمل لذلك عملاً خالصاً راجياً ثواب الله عليه..».

وحين ذاع نعي المأمون فرح الخرمية فرحاً شديداً، واستفحل أمرهم استفحالاً يؤذن بالشر، فدخل فيهم طوفان من أذربيجان، وهمذان، وأصبهان، وغيرها، وبدأ «بابك» يفرض ألوهيته على الأرض، ويبذر تعاليمه المبيدة في الناس، والأفواج خلف الأفواج تترامى على قدميه، فاهتم لأمره المعتصم، واستعرض أبطاله ورجاله فاحصاً باحثاً حتى استقر رأيه على الأفشين، فهو فتى الهيجاء، وبطل الكفاح، فسيره على رأس جيش ضخم مزود بالعتاد والرجال، وانطلق القائد يضع الخطط، ويرسم المواقع والحصون، ويبث العيون والأرصاد، ويخترق الصفوف في الميدان، ويدير المعارك الرهيبة في ظلال السيوف المتشاجرة، والرماح المتعانقة حتى تم له النصر في موقعة «أرشق» وفر الإله المزعوم هارباً مدحوراً، وتبعته جيوش الخلافة حتى نزل متنكراً بأرمينية، فعرفه أحد البطارقة، وكاتب الأفشين بشأنه، فحاصره حصاراً عاتياً، وهزم فلوله المتناثرة هزيمة ساحقة، وقاده مخفوراً إلى المعتصم، فاكتسب بذلك فخر الأبد. وتبوأ سنام البطولة الفذة إذ وقى الإسلام من وحوش الغرائز، وذئاب الإباحية، وأعاد إليه حصونه المنيعة في بلاد ما وراء النهر بعد أن داهمتها الأعاصير، وقد استقبلت بغداد وسامراء.. قائد الخلافة استقبالاً حافلاً خرج فيه الخليفة في رهط من وزراء الدولة وأعيانها وأمرائها، وأكب الشعراء على القائد المغوار يصوغون له القلائد النفيسة، وعلا الهتاف في كل مكان بحياة حيدر، واستطار المعتصم به إعجاباً، فأخذ يبعث إليه في صبيحة كل يوم حلة شرف غالية تصحبها التحف الغاليات الرائعات!!

واقرأ شعر أبي تمام في الأفشين فستجد الصدى العميق للفرحة الهائلة التي غمرت الإسلام بالقضاء على الخرمية، وستعلم أية منزلة عالية تسنمها القائد الباسل فأصبح سند الخلافة وركنها الحصين.

على أنه لم يخلد إلى الدعة قليلاً بعد كفاحه المرير، فقد سار لمصاولة الروم والانتقام لغدرهم الشائن بالخلافة والإسلام، وذلك أن بابك الخرمي كان قد كتب إلى قيصر الروم، في أثناء حروبه مع الأفشين، يحرضه على الوقيعة بالثغور الإسلامية في وقت توجِّه فيه الخلافة قوتها إليه، ولا تستطيع أن تقف في وجه الروم، وكأن بابك قد أراد أن يفرق الكتائب الإسلامية في جبهتين قويتين فلا تستطيع أن تكسب النصر الحاسم في رأيه، وكان ما أراده الثائر الخطير فقد اهتبل القيصر الفرصة السانحة وانقض على (زبطرة) الإسلامية بجيش يزيد عن مائة ألف مقاتل، فقتل مئات النفوس، ثم تقدم إلى (تلطنة) وسواها من الثغور الإسلامية فأمعن في العرب قتلاً وتنكيلاً ولم يبق بد من الانتقام!!

فتحركت جيوش الخلافة إلى القيصر الغادر!، وتقدم القادة العظام على رؤوس الكتائب الزاحفة من كل مكان، وكان الأفشين أول من أوقع بالروم فهزم جيش القيصر، وتابع الزحف مستعيناً بالفرق الأخرى من الجيش حتى أسقط «عمورية» وهي يومئذ أمنع بلاد الروم، وأقوى حصونهم بأساً ومنعة، وانطلق الهتاف يدوي بحياة «حيدر» وقد ضم إلى مجده التالد مجداً طريفاً، وسارت ببطولته الركبان، وتغنى الشعر بفتوته الخالدة، فنظم الحسين بن الضحاك الباهلي رقائقه الفاتنة في مدح الأفشين، وكسب إكبار العامة والخاصة والبطولة في كل زمان مهوى الأفئدة وأمنية النفوس الكبيرة!

أجل لقد رجع «حيدر» من غزاة الروم مظفراً منصوراً، فالتهبت قلوب الرؤساء في الدولة حقداً وحسداً، وتجمعت عقارب المكيدة من كل صوب، فها هو ذا القائد ينعم بالإعجاب والمجد، ويقول عنه الناس إنه سيف الدولة وبطل الخلافة.

ولئن دام أمره لسطعت شمسه وهاجة وضيئة تستر ما حولها من بدور ونجوم!! لا بد من عمل حاسم تكسف به هذه الشمس الساطعة دون انتظار فتبرد أكباد يئز بها الحقد، وتصح قلوب يسقمها الغل، وأنى لذلك، والعامة في كل مكان ينسجون عن البطل الكمي أساطير البطولة، وينشرون حديثه في الآفاق فرحين مهللين؟.

فمن أية ناحية يقتحمون على النسر أوجه الشاهق، وقد حلق بالفضاء وأطلق

جناحيه في الرياح!!، لن يسقطه من عليائه غير الاتهام الجريء بالكفر الصريح وفساد العقيدة وسوء الطوية، فذلك كله كفيل بتحطيمه، وما زال الاتهام الديني في كل زمان متنفساً لما يغلي في النفوس من الأحقاد، وقد بذلت الجهود المضنية في نسج التهمة الفاجرة، وأضيفت إليها حوادث شخصية لفقها الكيد وصاغها البهتان، ثم ألفت لجنة المحاكمة من أناس يضطغنون على الأفشين أسود الاضطغان، وفي مقدمتهم محمد بن عبد الملك الزيات، وأحمد بن أبي دؤاد، وإسحٰق بن إبراهيم، ووقف الأفشين يدافع عن نفسه في قضية خاسرة أعد حكمها قبل حضوره، وهيىء شهودها الفجرة، فساقوا عدة اتهامات زائفة، وانطلق ابن عبد الملك يسأل، وحيدر يجيب.. لقد اتهم الأفشين أولاً: بأنه حرض «مازيار بن قارن» على قتال آل طاهر، والخروج على المعتصم، وجاء «مازيار» فاعترف بذلك، ولكن الأفشين أنكر التهمة، وطلب الكتب التي حرضه بها إن صح زعمه، فلم يقدم «مازيار» شيئاً، وتلجلج في موقفه.. وطبيعي أن يكون للتحريض إذا وجد رسائل ومكاتبات، فما تقدم من الناس شاهد واحد أو عثر على رسالة مريبة!! وبرغم هذا الإفك السافر فقد ألصقت التهمة بالمذنب البريء!!

واتهم الأفشين ثانياً: بأنه ضرب إمام مسجد ومؤذنه بالسوط لأنهما بنيا مسجد «باشروسنة»، وقال المتهم: إن بينه وبين ملوك الصفد عهداً على أن يترك كل قوم على دينهم، فوثب هذان الرجلان على بيت للأصنام، واتخذاه مسجداً بدون أمره، فضربا بالسوط حسماً للنزاع ووفاء بالعهد، وهذا تأديب له تبريره المعقول، ولكن القضاة قد استنتجوا منه الكفر الصريح!.

واتهم الرجل ثالثاً: بأنه يأكل لحم المخنوقة ويحل أكلها، ويشهد بذلك مجوسي أجير. فينفي المتهم ذلك عن نفسه ويسأل: كيف رآه الشاهد، وليس بجاره ولم يؤاكله.. ولكنه مصدق لدى القضاة برغم ذلك، فيسأل الأفشين: هل هذا المجوسي ثقة في دينه لديكم!؟ فيكون الجواب بالنفي! ومع الاعتراف بعدم الثقة فشهادته مقبولة ولا ترد بحال.

واتهم الأفشين رابعاً: بأن أهل بلاده يخاطبونه خطاب الآلهة. فقال مدافعاً عن نفسه: لقد كانت هذه عادة القوم معه، ومع آبائه وأجداده ـ وكانوا من الملوك ـ قبل أن يدخل في الإسلام، فلم يرد أن يضع نفسه عن قدرها الأول، فتفسد طاعته لدى أتباعه،

وواضح أن حيدر كان يصلي ويصوم وينطق بالشهادتين فشبهة تافهة كتلك لا توجب تكفيراً يقابل بالصلب والتحريق!.

واتهم خامساً: بأنه يحتفظ بكتاب فارسي زين بالذهب والجوهر والديباج وبه بعض الكفر الصريح، فأجاب بأنه ورثه عن آبائه، وكان يقرأ ما به من الأدب دون غيره، ومثله مثل كليلة ودمنة سواء بسواء، ولن يكون الاحتفاظ به خروجاً عن الإسلام في شيء.

مهما يكن من أمر فقد عجز القضاة أن يدينوا صاحبهم بجريرة صادقة، وبالغوا في التحامل والافتيات حين يسأله ابن أبي دؤاد عن الختان؟ وهل أجري له بعد إسلامه..؟ وكأنه بذلك اكتشف ثغرة هائلة ينفذ منها إلى الإدانة الصريحة، وليس الختان بواجب عين فيكون مجالاً للتشهير إلا أن يكون الحكم المغرض متحيزاً أوضح تحيز!!

لقد كان العدل الصريح يفرض على المعتصم أن يصم آذانه عما تدبره حاشية السوء من خاتمة رهيبة لبطل فذ ناضل عن الخلافة في أوقاتها العصيبة، ولكنه وهو الخليفة الأمي قد خاف على مملكته الواسعة لوشاية كاذبة نهض بها حقود أثيم، فأغلق أذنيه عن هواجس ضميره، متأثراً بما سمع، وكانت الخسارة فادحة فقد دارت الدائرة على البطل الشهيد..

إن من بدائه الأمور ألا يكون الخصم حكماً فإذا أرجف المرجفون بإنسان ما؛ وألزمت الحيطة ذويها أن يقوموا بمناقشة ما يذاع في محاكمة علنية واضحة، كان من الأكيد الألزم أن يختار رئيس المحكمة من المحايدين العقلاء، الذين لا يضمرون للمتهم حفيظة تأكل الأكباد، وتحرق الضلوع، وحينئذ يستقيم ميزان العدالة في يد أمينة ذات حيدة وإنصاف، وقد كان أعداء الأفشين في طليعة محاكميه فاتبعوا الهوى الطائش فيما أصدروه وقدموا للأجيال عبرة أليمة يجب أن يتعظ بها الناس!

ومن العجيب أن حوادث التاريخ تكر، وعظات الدهر تتكاثر، دون أن تترك صداها البالغ في النفوس، فكم من مفاجع دونتها الأيام وتلاها الناس فما منعت شراً يتجدد، أو أطفأت حريقاً يلتهب مما يحتم أن تنهض التربية الإسلامية على أسس عميقة من الإيمان بالمثل والهيام بالمبادىء، فالتاريخ وحده لا يقدم لقرائه العظة البالغة إلا إذا كان لديهم ضوابط رشيدة من الخلق القوي والدين القويم، وبذلك تتكاتف جميع العناصر على استئصال الشرور، واستثمار الفضائل أخصب استثمار.

ولقد تبين للأفشين ما يتربصه من أهوال، فأرسل للخليفة كتاباً تنزف سطوره دماً وتتأجج الزفرات في حروفه وفواصله، فهو يقول بعد كلام طويل: «إنما مثلي ومثلك يا أمير المؤمنين كرجل ربّى عجلاً حتى أسمنه وكبر، وكان له أصحاب يشتهون أن يأكلوا لحمه فعرضوا بذبحه فلم يجبهم، فاتفقوا جميعاً على أن يقولوا له: لِمَ تربي هذا الأسد فإنه إذا كبر رجع إلى جنسه؟ فقال لهم: إنما هو عجل، فقالوا: هذا أسد، فسل من شئت؟ وتقدموا إلى جميع من يعرفون، وقالوا لهم: إذا سألكم عن العجل فقولوا: إنه أسد، فكلما سأل إنساناً، قال: هو سبع... فأمر بالعجل فذبح، وأنا ذلك العجل يا أمير المؤمنين، فكيف أقدر أن أكون أسداً؟ فالله الله في دمي».

ولعمري لقد صور البطل البليغ موقف الخليفة منه أدق تصوير فقد امتنع المعتصم أولاً عن إيذائه، فاختلق جلساؤه التهم القاسية فرفضها رفضاً أكيداً، فألحوا عليه حتى تشكك، وبدأ يسأل ويبحث، على حين يجيب السائلون بما يتلقون من إفك صريح حتى تأكد الزعم وأصبح العجل أسداً فسيق إلى سجنه الرهيب، وقتل صبراً ثم صلب بمرأى من العيون.. وانطلق المرجفون يعلنون كفره بمروقه في مجتمع حتى أفلحوا في خداع العامة، وانبرى أبو تمام مادحه ومهنئه قبل ذلك يهجوه، ويثلبه، ويصمه بالكفر الصريح، ولا أدري كيف انساق الشاعر مع دهماء العامة؟ فيغير رأيه فجأة تصديقاً لدسيسة كاذبة أو أنه عرف الحقيقة الأليمة واندفع في موكب النفاق يتملق الحاقدين!.

إنها لمحنة قاسية تسجل بالألم واللوعة لشهيد مظلوم ظلت تتبعه الأراجيف متناقلة في صحف التاريخ، وتجد من حملة الأقلام من تسطرها كقضية لا يأتيها الباطل، وها نحن أولاء نوجه الأنظار إلى دحضها بعد زمن بعيد!! وكم في التاريخ من حقائق تعتمد على الأساطير..

محمود الغزنوي

الفاتح الإسلامي الأكبر

كلما قرأت تاريخ البطل الفذ محمود الغزنوي عجبت: كيف لا يجري اسمه على كل لسان يدين بالإسلام؟ وكيف لا تفرد الكتب الخاصة بتحليل خوارقه وتفسير نوادره؟ بل كيف تمضي كتب المطالعة المتنوعة في المدارس والمعاهد دون أن يفرد له باب في كل كتاب فيعلم الناشئة في شتى بلاد الحنيفية من هو ذلك البطل المعجز الذي أهدى إلى الإسلام مائة مليون نسمة لا يزال أحفادهم اليوم يملؤون الباكستان وكشمير وبعض المدن في الهندستان!؟ إن ملكاً عظيماً كهرون الرشيد يجري ذكره على كل لسان لا يمكن أن يوازي شيئاً إذا قيس بمحمود. . صحيح أن الرشيد خليفة، وأن محموداً سلطان يستمد شرعيته من القادر بالله أحد الحفدة من نسل هرون. . ولكن خلفاء بني العباس جميعاً من لدن السفاح إلى المستعصم لا يضمون في سلسلتهم الممتدة بطلاً من طراز محمود، أما آن لنا بعد في تآليفنا الحاشدة أن نوجه اهتمامنا إلى القمم الرواسخ دون أن نعمد إلى الترديد والتكرار!، أم أننا نلتمس أيسر السبل في التأليف؟.

لقد كان الزمن الذي تألق في سمائه كوكب محمود الغزنوي لا يسمح بظهور مثله بحال، فليست هناك خلافة راشدة تفسح ميدان البطولة المخلصة لأمثال خالد، وسعد، وعمرو، وأبي عبيدة، والمثنى، وليس هناك خليفة أموي راسخ السلطان، مرهوب الكلمة، واسع الملك، تحتشد حوله الكفايات الممتازة من أمثال قتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم، وموسى بن نصير!.

أما الدولة العباسية لعهد محمود فقد تساقطت جنباتها، وتداعت أسسها ففي كل مملكة أمير يحكم، أو خليفة يناوىء، أو وال يدل ويتيه، حتى بغداد نفسها تقع فريسة لكل طامع من الوزراء الأبعد يهيىء أتباعه، ويحشد جنوده، ثم يصل إلى مقر الخلافة ليكون أمير المؤمنين لعبة في يده، إذ يصدر عن أمره، ويسير في تياره، فإذا تمكن خصومه من طرده، وتملكوا الأمر من بعده، كان أمير المؤمنين رهن مشيئتهم كما يبتغون!، هذه الحال المؤسفة من تفكك الخلافة الإسلامية، وقيام الدويلات المستقلة في العواصم المختلفة، وتشاحن

المغرضين على الرياسة والسلطان ـ أقول هذه الحال المؤسفة لم تحل دون ظهور رجل فذ كمحمود الغزنوي يجمع الكلمة، ويحشد الجند ثم يغزو بأتباعه وقيادته بلاد الوثنية ليعلو الأذان الإسلامي في ربوع متنائية تقدس الأصنام، وتعبد التماثيل من دون الله!!

والغريب أن هذا البطل الفذ كان بغيضاً إلى بعض شعراء عصره فارسيين وعرباً، فلم يرزق شاعراً ملهماً يسجل بطولاته في ملاحم رائعة كما رزق سيف الدولة أبا الطيب مثلاً، على بعد ما بين البطلين من فروق، بل لقد صدم بشاعرين كبيرين أخذا ينتقصانه، ويلتمسان العناكب الواهية للتجني عليه، وهما أبو العلاء المعري العربي، وأبو القاسم الفردوسي الفارسي!! وأبو العلاء يسير مع طبعه الناقم الساخط حين يهاجم بطلاً تتساقط تحت ضربات سيفه أشلاء الضحايا من المتصارعين في كل مكان، إذ إن الشاعر الذي يرحم الحيوان الضعيف إذ يستفظع ذبحه وإراقة دمه، لا بد أن يرتاع لما يسمع عن معارك دامية تفور بالدم وتطفح بالجماجم والرقاب! هذا إلى أنه ملك، وللملوك في منطق أبي العلاء غطرسة واستعلاء لا يرضيان إحساسه المرهف، وهم في أكثر أحوالهم ظلمة جائرون، فلا بد أن يهاجمهم الشاعر الفيلسوف، ولا بد أن ينال شيئاً من هجومه أعظم ملك رنَّ اسمه في عصره رنين الرعد في الأفق، مهما كان بطلاً فذاً ذا مثل وأهداف، وإلا فهل كان يستحق محمود الغزنوي أن يقول فيه الحكيم الفيلسوف:

أَسَرُّ إنْ كنتَ محموداً على خُلُقٍ ... ولا أُسَرُّ بأني الملكُ محمودُ
ما يصنعُ الرأسُ بالتيجانِ يعقدها ... وإنما هو بعدَ الموتِ جُلْمودُ

أو يقول:

محمودُنا اللهُ والمسعودُ خائفة ... فعدٍّ عن ذكرِ محمودٍ ومسعودِ
ملكانِ لو أنني خُيِّرتُ ملكَهُما ... وعودَ صلبٍ أشارَ العقلُ بالعودِ

وأبو العلاء وإن كان يفضل عود الحديد على ملك محمود الغزنوي فإنه لم يفحش في حديثه عنه، ولن يستطيع، أما الذي أفحش وبالغ في الإفحاش حقاً فهو أبو القاسم الفردوسي، الذي قضى أكثر حياته ينظم تاريخ الفرس في الشاهنامة، ويعلل نفسه بأن الملك الغزنوي سيغرقه بالذهب طوفاناً يرجع إليه ما فقد من ثروته الموروثة وضياعه البائدة، ولكن منحة محمود لم تقنع شاعر الفرس المعتز، ففر من بلاطه مرسلاً قوارعه اللاذعة في هجاء البطل الكبير. ونحن حين نحقق أمر الفردوسي في أفق أوسع من رغباته الشخصية نرى أن محموداً مصيب فيما فعل، لأن الفردوسي قد استجاب إلى نصرة الأمير نوح بن منصور الساماني حين اندفع يبحث عن أساطير فارس المجوسية؛ ليجعل منها تاريخاً يلتهم تاريخ العرب والمسلمين، وأخذ يبحث في خزائن الموابذة والدهاقين من الصحف القديمة

لتغدو آية فخار تنبىء عن المجد الغارب، وحين تم ذلك جعل منه الفردوسي مادة حديثة فقضى ثلاثاً وعشرين سنة ينظم الأساطير والخوارق، ولكن الدولة الغزنوية وملكها محمود لا يشجع هذه النعرات العصبية، بل يرى في صنيع الفردوسي هراء لا يرضي منزعه الديني، وبخاصة إذا كان الملك سُنياً شديد الغيرة على مقدسات أهل السنة، وقد شن حروباً طاحنة على القرامطة والملاحدة، وعقد الأواصر المخلصة بالخلافة العباسية، حتى منحه القادر بالله لقب يمين الدولة، وزاد الملك في وجهته فاضطهد المعتزلة والرافضة! فإذا جاء إليه شاعر شعوبي يتحدث عن رستم، وسهراب، والضحاك، وذي القرنين، وأساطير الجبال والبحار، فلن يجد منه انشراحاً لما فعل!! على أنه بذل المعقول من المال كيلا يضيع جهده هباء، والفردوسي لا يقنع بما دون الإغراق والامتلاء، فانصرف عنه هاجياً مثالباً، والمسألة مسألة مبدأ قبل أن تكون مظنة بخل وإمساك. .

أذكر أن إيران احتفلت منذ أعوام بمرور ألف عام على وفاة الفردوسي، وبعثت المالك المختلفة من يمثلها في مهرجان الشاعر الكبير بطهران!! وقد تورط بعض الخطباء في نقد السلطان محمود الغزنوي، إذ منع الشاعر ما يظنه بعض حقه حتى جاء دور الشاعر اللبناني الأستاذ بشارة الخوري فهجا الغزنوي هجاء مقذعاً حين قال:

يا للعقوق أيبني مجد أمته ويجعل الدهر مولى من مواليها
أئن وفت أمة يوماً لشاعرها رماه سافلها عن قوس واشيها

والأستاذ بشارة يجهل محمود الغزنوي دون نزاع!، فليس الملك من السفالة في قليل أو كثير، كما أنه يجهل ملابسات الشاهنامة، وتقلبات الزمن بمبدئها ومنتهاها، ولو علم ما تجنى هكذا فأقذع. .

وبعد!، فكيف سطر هذا الملك العظيم تاريخ بطولته الحفيل؟ لقد تفتحت عينه في الوجود فرأى أباه الأمير سبكتكين ذا قدر وبطش، فهو قائد فارسي محنك واتته الظروف فحكم «غزنة» من قبل السامانيين حكماً قوياً عادلاً، ثم طمحت به همته إلى الهند فغزا شمالها الغربي مرتين متواليتين!، وانتصر انتصاراً مؤزراً شهده ابنه محمود، إذ كان يصحب أباه في غزواته دون أن يتعدى الرابعة عشرة من السنوات، والمدهش الرائع أنه في عمره الباكر قد أظهر فروسية وحكمة، بل وقف من والده موقف المعارض في أمر هام! فقد عرض الأمير «جيبال» راجا لاهور جزية كبيرة ليفوز بصلح يحقن الدماء ومال الأب إلى القبول مكتفياً بما أحرز من نجاح، ولكن محموداً الصغير يقف في وجهه رافضاً أن تكون الجزية غاية القتال، وقال لوالده في إصرار: إننا نبحث عن مثوبة الجهاد في سبيل الله لا عن الفضة والنضار!! فنزل أبوه على رأيه. . واستأنف القتال.

ونحن نسجل هذه الحادثة السريعة لنرد بها على من تابعوا ابن الأثير حين ذكر أن السلطان محموداً قد ولى وجهه شطر الهند ليكفر عن حربه للمسلمين. . إذ إن فتح الهند كان في دمه منذ طفولته وقبل أن تنشب الحرب بينه وبين أمراء الدول الصغيرة لعهده!!، وقد كانت هذه الحرب حتماً مقدوراً لا محيد عنه، لأن محموداً نظر لأول عهده بالسلطان فرأى الصغار من الأمراء يتصارعون في غير طائل، وقد تحرش به الأمير الساماني في خراسان وهم بتشتيته، فكان لا بد من نزاله ليأمن جانبه القريب! كما أن آل بويه بالري ومن على شاكلتهم من السلاجقة لا يرحبون بقيام ملك إسلامي كبير، وسيكونون بتآمرهم المتواصل سداً في طريقه، فرأى لبعد نظره أن يضم ممالكهم إلى سلطانه ليجد من الوحدة الشاملة ما يساعد على تحقيق مشروعه الخطير في نشر الإسلام، ولو لم يأمن جانب جيرانه من المتربصين بعد أن قضى عليهم بعزيمته الواثبة ما استطاع أن يترك بلاده إلى أماكن نازحة تدعوه إلى أن يغمر ظلامها الحالك بنور الهداية والإسلام!. على أن شعوره الديني هو الذي دفعه إلى مهاداة الخليفة العباسي وحوز قبوله وإعجابه، فكان ذلك مدعاة اطمئنان نفسي كبير أمده برصيد ضخم من الثبات!!

ومع ما عرف عن والده سبكتكين من الإعجاب بمحمود والمباهاة ببطولته فقد شاء أن يجعل الأمر من بعده لولده الصغير إسماعيل، وهو إنسان ضعيف متردد لا تصل به همته إلى شيء من آمال أخيه الأكبر، ولم أر فيما قرأت تعليلاً لذلك، ولكني أعتقد أن الأب رأى طموح محمود واتساع آماله فخاف أن يقذف بجيشه إلى الهند في حماسة واتقاد دون أن يسلك مسلك الحيطة في الصبر والاتئاد! وآثر أن يرجع بالملك لإسماعيل ليأمن بهدوئه عثار التوثب والانطلاق، ولم يكن محمود بالشاب القانع المستكين، فسرعان ما انتزع الملك من أخيه!! وبدأ فوحد المملكة الإسلامية في فارس ليقفز بعدها إلى الهند في عزيمة وإصرار. .

كانت الهند ترزح تحت حكم الإقطاع. . فكل مدينة تخضع لراجا متأله، يشبع رغبته الخاصة بطغيانه، فإذا أنس من نفسه بعض القوة اتجه إلى من يجاوره فسطا عليه وضم إمارته إلى إمارته، ثم لا يلبث أن يجد أميراً أقوى منه يستعد لنزاله، فتدور الحرب بين الطامعين، وطحينها العامة من الرازخين المسيرين ممن يضطرون إلى الولاء خيفة من الإرهاب الأحمر، والطغيان المتجبر، فحين صمم محمود على محاربة هؤلاء لم يجد في عددهم الهائل قوة متساندة تقف أمامه موقف المدافع الصبور! فقد اصطدم في غزوته الأولى (بجيبال) صاحب لاهور عدو أبيه، وكان يغط في نومه ظاناً أن وفاة سبكتكين ستمنع تدفق المسلمين من جديد، فأيقظه محمود على رأس عشرة آلاف مقاتل، فأسرع بحشد جنوده، واستعان بمجاوريه حتى اكتمل له اثنان وأربعون ألفاً من المحاربين، ودارت المعركة رهيبة حامية

فأبادت الهنادكة إبادة مخزية، ولم يقو الأمير الهندوكي على احتمال الكارثة فعرض نفسه على النار تكفيراً عن خذلانه كما تقضي بذلك تقاليد الهنود.

واصل القائد البطل زحفه فأحدث الرعب المزلزل في كيان الراجاوات من الحاكمين، وتجمع أمراء أوجين وكواليار، وكلنجر، وقنوج، ودهلي، وأجمير ليقفوا بخيولهم وأفيالهم وجنودهم حشداً كثيفاً أمام الغازي القاهر، وزحفت الجيوش الهندية مجتمعة لتلقى المسلمين في إقليم البنجاب! . وكان القتال هائلاً مخيفاً ففقد المسلمون من أبطالهم عدداً كبيراً يبكى عليه، لأن جيش محمود لم يتجاوز ستة آلاف مقاتل، ولكنه بمحض إيمانه وقوة عزيمته ثبت بالبقية من رجاله أمام جيوش لم يستطع التاريخ عدها على الوجه الدقيق إلى الآن حتى أحرز الانتصار الساحق، ووجد في معابد الهنادكة من الغنائم الذهبية ما أربى عن الوصف إلى حد أن جنوده تركوا صحاف الفضة اكتفاء بما عثروا عليه من الذهب، فليس لديهم من الدواب ما يكفي لحمل هذه الكنوز، وكان النصر في معركة البنجاب سلاحاً ذا حدين، إذ أثار النشوة في بلاد الإسلام فأقبل المتطوعون ينسلون من كل حدب إلى جيوش محمود على حين أحدث الهلع والرعب في أفراد الشعب الهندوكي وقادته فباتوا يتربصون يومهم القريب.

وكانت السنوات تمر دون أن يخلو عام واحد من موقعة هائلة لمحمود الغزنوي يدمر بها أعداءه المحتشدين، ففتح «الملتان» و«كواكير» وما زال يتنقل على شاطىء (هند مند) حتى استولى على بهيم نفر، وناردين، وبلغ كشمير فغنم بها خمسة أصنام من الذهب الخالص مرصعة بأغلى الجواهر، وحمل من السبي والسلاح ما أمد كفاحه بقوة جديدة واصل بها النجاح.

قال الأستاذ عبد الحميد العبادي في كتابه (صورة وبحوث من التاريخ الإسلامي ص ٨٠): وقد غزا السلطان ما لا يقل عن سبع عشرة غزوة. فكان ينصب من جبال أفغانستان على سهل الهندستان في جنوده الأتراك الأشداء بخيولهم الفارهة، وأسلحتهم الموفورة، ونظامهم الحربي البديع انصباب السيل الدافع، فيعبر الأنهار الصعاب، ويكسر الأصنام الهندية، لا يبالي تعباً ولا نصباً، ثم يكر راجعاً إلى خزنته ممتلىء اليدين من السبي الرائع، والغنائم الهائلة، مما حوته معابد الهند من كنوز الذهب والفضة ونفائس الأعلاق، وقد انجلى هذا الغزو المتابع عن امتلاك السلطان محمود إقليمي البنجاب وكشمير، وسيطرته على مملكة «كجرات» الواقعة على المحيط الهندي، فدخل الهنود في دين الله أفواجاً، وترك لهم السلطان الفاتح من يعلمهم أصول الدين الإسلامي ويلقنهم مبادئه، فرسخ الإسلام من ذلك الوقت في بلاد الهند، وأصبح ديانة قومية ثابتة الدعائم، قوية الأساس.

كانت همة البطل أبعد من أن تحد، فلم يكن يجلس ما بينه وبين نفسه يفكر في العواقب، ويفترض الأوهام، ولكنه كان إذا هم ألقى بين عينيه عزمه، وإذا كنا ندهش لعزيمة خالد بن الوليد حين اخترق الصحراء يوم اليرموك بجنوده ليبلغ أعداءه من حيث لا يتوقعون، فقد قام السلطان محمود بمثل ما قام به سلفه الخالد حين اخترق صحراء (الثار) وهي مفازة جرداء تعد أكبر صحراوات الهند، وكان الوثنيون يظنونها حصناً طبيعياً لا يستسلم لعدو فاتح! فهم يعتصمون بها آمنين. ولكن العزيمة تدفع محموداً إلى قيادة جنده ضارباً المثل بنفسه، حين يتقدم الكتائب الغازية في فلاة مترامية يشتعل بها القيظ، وتتفجر مراميها القاحلة عن مهالك ذات أهوال، فلا ماء يروي، ولا شجر يظل، ولا ثمر يشبع!! ولكن الأمل في نصرة الإسلام هو الذي أمده بالماء والثمر والشجر، فهانت لديه الصعاب، واستعذب بالآلام حتى بلغ مبتغاه، ففاجأ الأعداء.

وقد كان معبد الهنادكة في سومنات معقد إيمانهم، وقبلة أنظارهم فهم يلتمسون من صنمه الناهض في عيونهم مثقلاً بأوقار الذهب واللؤلؤ والألماس مقدرة على الجهاد، ومعونة على الزاحفين، وقد أذاعوا فيما بينهم أن غضب إلههم الأصم في معبد سومنات على أتباعه العصاة هو الذي أمد السلطان الغزنوي بالنصر انتقاماً لحقه، وثأراً من مروق أتباعه، وما ظنك بمعبد مقدس ينهض على ست وخمسين سارية ترصع بصفائح الذهب، وقلائد الجوهر، وتمتلىء ساحاته وأركانه بمئات من التماثيل المصنوعة من الفضة الخالصة والذهب الحر. أما الصنم الأقدس فقد امتلأ جوفه بثروة ضخمة لا تدخل في حساب عادّ أو تبلغ ظن متوهم مما قذفته مئات السنين في جوفه من النذور والقرابين، وكان الهنادكة يعتقدون أن تناسخ الأرواح في الأبدان يتم حول الصنم في معبده، وأن هدير البحر المنبسط من حوله صلاة يقوم بها الماء عبادة وطاعة، أما الخدم من السدنة فيتجاوزون الألفين من البراهمة، ومعهم خمسمائة من الراقصات المنشدات يرتلن حوله التسابيح..

وقد اجتمع جميع الأمراء الراجيوتين بكل ما يملكون من عتاد ورجال وخيول وأفيال ذياداً عن إلههم العظيم ورأوا في الاستشهاد بساحته منتهى الأمل في الحياة، فدارت معركة رهيبة بين جيوش الإسلام وجحافل الوثنية، ثبتت فيها القلة الزاحفة ثباتاً عد من الخوارق، إذ كان محمود يقسم رجاله فرقاً فرقاً، ويجعلهم يتناوبون الأماكن المختلفة كل يوم، فأوقع في نفوس أعدائه أنه مصطحب معه عدداً أكثر من عددهم المترامي، إذ يرون كل يوم من المسلمين جديداً لم يقعوا عليه من قبل، وكانت مذبحة خطيرة سقط بها خمسون ألفاً من الهنادكة، وعبر المسلمون على أشلائهم المتزاحمة طريقهم إلى الصنم بالمعبد، وتوجه السلطان إليه بنفسه فتهالك عليه بالحديد حتى انفجر جوفه عن ثروات كانت تسيل في كل اتجاه سيل

الماء ثم حمله الملك الظافر ليضعه بين أحجار عتبات مسجده الفخم بغزنة، فكان كل مصل يـطؤه بقدمه خمس مرات.

ولعل الذين يتهمون السلطان بحب المال يعرفون أن الهنادكة قد عرضوا عليه قبل معركة سومنات أن يفتدوا الصنم بما يريد من مال مهما جل، ولكنه صمم على الحرب، لأن الهدف من الفتح الظافر هو تحطيم الصنم لا جمع الأموال، وقد صدقت فراسة محمود، إذ إن الهنادكة المخدوعين في إلههم الذهبي قد خامرهم الشك في ألوهيته حين رأوه يتساقط منفجراً ثم يجر على الأرض في امتهان، فرابهم معتقدهم الواهم، وأقبلوا على الإسلام يدرسون مبادئه حتى اعتنقوه عن بصر ويقين!!.

لقد انتهت غزوات البطل محمود بالنصر، وإذا كان قد رزق الحظوة السعيدة في جهاده المؤمـن، فقد كانت أعماله الحربية لا تقف حائلاً دون إصلاحاته الداخلية، إذ إنّ بلاده تمتعت بكثير من مناحي التعمير والازدهار والرخاء.. وأصبح بلاطه مقصد العلماء والأدباء والشعراء، وقد أسس في غزنة جامعة كبيرة حشد لها الأساتذة المختارين من شتى البقاع، وأجرى على طلابها الرواتب والجرايات، وزينها بخزانة ثمينة تجمع أنفس الكتب، وأغزر المؤ لفات، وهو بذلك قد سبق نظام الملك السلجوقي في إنشاء المدارس، لكي يبطل دعوى ريادته الأولى في هذا المضمار.

وقد كان من بين من يمموا ساحاته من أبطال الفكر: البيروني العالم المشهور، والهمذاني، والعتبي، والبستي، والثعالبي من أدباء اللغة العربية، والعنصري والعسجدي والأسدي من أدباء اللسان الفارسي! وقد استدعى ابن سينا على شوق فلم يجب دعوته لصلات قديمة كانت بينه وبين السامانيين رأى أن يفي لها فلا يتصل بمن قوض سلطانهم في الحياة!!.

وكان عدله المنصف بين رعيته سبباً وطيداً في تعلق المسلمين به، ومن خوارقه النادرة في إحقاق الحق أن بعض الناس شكا إليه ابن أخيه، إذ ارتكب جريمة قتل ظالم مدلاً بمكانته من عمه، فحقق محمود الأمر بنفسه واستمع إلى الشهود في غيظ وغضب، فلما تيقن الأمر دعا ابن أخيه وقاده إلى إحدى غرف القصر ثم أطفأ المصباح وذبحه، وطلب جرعة ماء. ويقول الباحثون في تعليل ذلك: إنه كان يحب ابن أخيه حباً جماً وقد أطفأ المصباح حتى لا يرى وجهه فتأخذه به شفقة تشل يده عند القصاص. وهذه الحادثة وحدها تجسد لك جمال العدل في أصدق معانيه.. وتغني وحدها عن مئات الصفحات تدون شمائل هذا المتحرز المؤمن الحريص!!.

لقد هجم بعض الكاتبين من الهنادكة على السلطان في تاريخ غزواته، وذلك طبيعي لدى من يتعصبون للقومية، ولكن العادلين من هـؤلاء أنصـفوا البطل، فذكروا ما له وما عليه، ومن بينهم المـؤرخ الهندي «براساد» إذ يقول نقلاً عن ترجمة الدكتور أحمد الساداتي بكتاب تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية صفحة ٩٧:

«إن محموداً ليعد في نظر المسلمين غازياً ومجاهداً كبيراً، أخذ على نفسه القضاء على الشرك في مهاد الوثنية، وهو في الوقت نفسه عند الهنادكة طاغية مخرب، حطم مقدساتهم ودمر معابدهم، وآذى شعورهم الديني في كثير، ولكن المـؤرخ المنصف حين لا يسقط من حسابه تقاليد العصر الذي كان يعيش فيه واعتباراته لا يسعه إلا أن يقرر أن محموداً كان زعيماً بارزاً من خيرة القادة والزعماء، وحاكماً حازماً، وجندياً عبقرياً من الطراز الأول، اتصف بالعدالة ورعاية الفنون والعلوم، فهو جدير أن يعد من بين أعاظم الملوك طراً».

كما نقل الدكتور أحمد محمود الساداتي في حاشيته ص ٩٨ رأي المؤرخ الأول «لين بول» في محمود، إذ يقول: إن ذلك السلطان الذي أقام تلك المنشآت الفخمة بغزنة وأقام دور العلم، ودعا العلماء حتى كان يجود عليهم بما لا يقل عما يعادل مائتي ألف من الجنيهات كل عام، فضلاً عما كان يجري على طلبة العلم من الأرزاق لا يمكن أن يسلك في زمرة البرابرة الطغاة..

هذا هو محمود الغزنوي، وهذه بعض أياديه على الدين والأدب والعلم! أفلا يصح بعد ذلك أن تفرد له عشرات الكتب، وأن نمنحه بعض ما نمنح نابليون والإسكندر وهانيبال؟!.



في اليوم السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٤٨٨ هـ (٢٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥ م) وقف رجل مديد القامة أجش الصوت تتدلى لحيته على صدره، وجمع القساوسة والأمراء والفرسان ليخطبهم خطبة طويلة يتحدث فيها عن الكفرة المسلمين، وما فعلوا بقبر المسيح من إهانة وازدراء في زعمه، وانطلق يستجيش الهمم، ويستنهض العزائم، ويبسط للأمراء أملاً باسماً في السيطرة والمجد، ويلوح بالرحمة والغفران للجيوش الزاحفة من جموع الفرنجة، ويظهر أسفه البالغ على الكرامة الذبيحة، والدين الجريح، ذلكم هو البابا «أوربان الثاني» الذي اندفع يقول:

ويجب عليكم أن تتعذبوا كثيراً لأجل المسيح، وأن تتحملوا المشقة والفقر، وتكابدوا الذل والاضطهاد، وتقاسوا المرض والجوع والظمأ، وجميع الشرور في الدنيا كما قال السيد المسيح لتلاميذه: «سأريكم كيف ينبغي أن تتألموا من أجل اسمي، فإنكم ستأخذون ميراثاً عظيماً»، ثم اتجه البابا إلى الحاضرين وصرخ فيهم قائلاً:

«عبدوا طريق الرب، واجعلوا سبله مستقيمة..».

وهنا دوى هتاف صارخ زلزل الأرجاء.. هكذا أراد الله، هكذا أراد الله..

وقد انتشر القساوسة في كل مكان يرددون دعوة البابا الكبير فيثيرون الحنق والسخط على المسلمين..

ويدفعون الكتائب الزاحفة كالموج إلى الشرق العربي رغبة في استئصال عقيدته، وإبادة دينه وأخذوا يخاطبون الناس بما يزين لهم الاندفاع والوثوب، فهم يطمعون الأمراء في السيطرة الواسعة، والفتح الخالد، والملك العظيم، كما يلوحون بالغفران والرحمة لهذا الطوفان المائج من الفرنجة الأوروبيين، ويقدمون الجنة ضماناً أكيداً لمن يغبر قدمه في تراب الشرق ذائداً عن قبر المسيح، ومدافعاً عن النصرانية في بلاد يجلجل فيها الأذان، وتخرس النواقيس... وقد بذل بطرس الناسك جهداً جباراً في الاستثارة والاستفزاز، فكان يذرع

البلاد عرضاً وطولاً، ويلج إلى القصور الشامخة ليقنع الأمراء والفرسان، كما يدرج إلى الأكواخ الصغيرة ليلهب حمية الكهل الراقد، والصبي الغافل، والأم الجاهلة، ويتقدم الشباب إلى الخلاء الواسع مبشراً بالجنة ورضوان المسيح إن قدر لـهؤلاء أن يستأصلوا شأفة الإسلام، وقد أفلح في قيادة جيش جبار بعث به إلى الشرق ليكون طليعة الطوفان المزبد الذي سيجتاح بيت المقدس في وقت قريب. .

لقد كانت الحروب الصليبية تتخذ من العاطفة الدينية مثاراً للتحرش والاستفزاز، وقد عمد دعاتها إلى التأثير الوجداني دون أن يدعوا نطاقاً للتعقل والتفكير، فهم تارة يرسمون صورة لقبر المسيح، وعليه فارس مسلم يدوس القبر بجواده، ويسمح لهذا الجواد بأن يبول عليه، وتارة أخرى يصورون المسيح ـ عليه السلام ـ وأمامه عربي يضربه بالسوط، وقد سالت دماؤه الغزيرة من جرح دافق، كما اتخذوا من الأحلام مجالاً واسعاً للدعاية والتأييد، فهذا ناسك يرى المسيح يبشره بالنصر في منامه، وذاك آخر يتسلم سيفاً من أحد الحواريين ليمحق به الأعداء، ثم هذه هالات قدسية من النور تتساقط من السماء في حومة القتال، وتتقدم الصفوف إلى الأعداء فيفر الأتراك المسلمون مذعورين، وينتصر الصليبيون بتأييد السماء. .

لقد زحف الجيش الزاخر إلى الشرق في وقت حرج كريه فإمارات الشام تخضع للنظام الإقطاعي الذي ينفرد فيه كل حاكم بولاية صغيرة، لا تملك جيشاً أو تدخر قوة، وأمراء الدول الصغيرة في تنابذ يحول دون التفاهم والاتحاد، والخلافة العباسية ببغداد ضعيفة لا تدفع عن نفسها الشر، وقد استصرخت ولاذ بها اللائذون فقطعوا شعورهم وبكوا دون طائل، والدولة الفاطمية بمصر لائذة بالصمت، لم تجهز كتائبها للدفاع برغم ما تملك من جنود وسلاح!!.

موقف ضائق كريه مهد للصليبيين طريق النصر، فسقطت في أيديهم مـدينة «الرها»[1] وأسسوا بها أول إمارة لاتينية ثم زحف الفرنج إلى «إنطاكية» وحاصروها تسعة أشهر كاملة فسقطت بعد قتال مرير، ذهب فيه من المسلمين عشرة آلاف أو يزيدون، ثم اتجه الصليبيون إلى بيت المقدس وشنوا على أهله غارة شعواء، وكان ما كان من الفظائع والأهوال حتى جرت الخيول إلى صدورها في الدماء، كما اعترف بذلك مؤرخـو الغرب في غبطة ومباهاة، وقد قدر عدد الشهداء بما يزيد عن سبعين ألف رجل من المسلمين، منهم جماعات فاضلة من أئمة العلماء، وحسبك بهذا خسارة فادحة ومحنة تتفطر لها الأكباد، ثم

---

(١) تسمى الآن «أورفة» في جنوب الأناضول وشمال حلب.

اتجه الصليبيون إلى طرابلس الشام فأسسوا بها إمارة لاتينية رابعة، وفرضوا الضرائب القاسية، وبلغوا فوق ما يبتغون من المجد والانتصار.

وكان الموقف يتطلب قائداً باسلاً يصمد للحوادث بسيفه ورأيه، وقد هيأت الأقدار «عماد الدين زنكي» أمير الموصل للنهوض بهذا العبء الجسيم، وكان وافر الكياسة دقيق الإدارة، واسع الحيلة، فصمم على توحيد الإمارات العربية تحت قيادته، فضم إلى الموصل معظم بلاد الجزيرة، ثم عبر الفرات، واستولى على حلب، وكثير من بلاد الشام، وتألق نجمه في سماء السياسة الإسلامية فأوجس الفرنجة خيفة من بأسه وتحينوا الفرص لمنازلته ووقف الفريقان يتربصان!!.

وكان عماد الدين حاذقاً مفكراً يقدر لرجله موضعها قبل الخطو، فرأى أن يطمئن إلى الناحية الداخلية في بلاده قبل أن يقف وجهاً لوجه أمام عدوه، فقام بنهضة عمرانية شاملة أحيا بها الزراعة، وشق الترع واستثمر المال وأمن الطريق والبلاد، فرجع التجار إلى متاجرهم والفلاحون إلى مزارعهم، وأخذ العمران يورق ويثمر، كما بث المرشدين الفقهاء ليطمئنوا الشعب على قضية الجهاد، فلا تطير البلاد شعاعاً من الخوف والرهبة، وجنّد الشباب الباسل بعد أن أفرغ فيه الحمية والإباء واستصرخه لنجدة دينه ووطنه، وكان لهذه الأعمال الحاسمة أثر ملموس في ارتفاع الروح المعنوية والتهاب العزائم الماضية فتدفقت حماسة الجيوش الإسلامية والتهب الفرنج حنقاً على القائد الجريء ولاحت نذر الحرب لدى الجيشين فوقف الجميع على قدم وساق، ولكن من الذي يبدأ بالقتال..؟.

أما الفرنجة فقد جمعوا الكتائب، ووقفوا عند حصن «الأثارب» يرسلون الطلائع الفاتحة للقتل والنهب والتدمير، في فترات متقاربة، وبدأت جيوشهم تتدافع وتتزاحم حتى ملأت الفضاء..

وأما العماد فقد استشار قومه فيما يصنع، فأشاروا بالتريث والانتظار، ولكنه صمم على القتال، واندفع في طليعة الصف الأول غازياً مستبسلاً وجنوده من ورائه يعتصمون بقيادته وإدارته، وصدم الصليبيون بكفاح لم يألفوه، فقد ثقل عليهم القائد بخيله ورجله وتتبعهم في الدروب والأزقة، وسقطت جثثهم طريحة تحت أسلات سيوفه، وأيقنوا أن الحظ بدأ يتخلى عنهم، ولم تعد عناية السماء تحوطهم في كل مكان، كما توهموا ذلك منذ تركوا بلادهم فاتحين، على حين ارتفعت حماسة المسلمين، ووجدوا في الاتحاد والتماسك ظفراً سريعاً، فساروا تحت قيادة العماد إلى قلعة حارم[1] واستعدوا للمعركة الثانية في نشوة

---

(١) من أعمال حلب تجاه أنطاكية، رد الله غربتها.

وابتهاج ولكن الفرنجة ألحُّوا في قبول هدنة مسالمة فوقعها عماد الدين مرفوع الرأس، ووقعها الصليبيون مدحورين وهم يحسبون للغد القاتم ألف حساب على يد القائد العظيم..

تجمع أمراء الدول اللاتينية فيما بينهم، وتشاوروا فيما يصنعون ببطل فارسٍ نَجَم فجأة أمامهم كأسد هصور يدوي غابه بالصياح والزئير، ورأوا أن الهزيمة السالفة لا بد أن يمحى عارها قبل أن يدب الخور في النفوس، فخفوا إلى «حلب» بغتة حيث انتظرتهم الهزيمة الثانية حاملة ما تحمله الهزائم من الرعب والدهشة والالتياث، وقد اهتبل العماد حيرتهم اليائسة فانقض بجنوده على «اللاذقية»[1] ولقي الفرنجة منه شراً مستطيراً، فتناثرت أشلاؤ هم فوق السهول والتلال، ووقع في الأسر أكثر من سبعة آلاف، وفر الهاربون من المعمعة تاركين المدد الكثير من الذخائر والغنائم والأسلاب فأضيفت إلى الجيش الإسلامي وازداد بها العماد قوة وعتاداً، فمضى يحطم القلاع ويدك الحصون، ووقع اسمه موقعاً مرعباً من أعدائه فأقلق المضاجع وأطار النوم من الجفون..

لم يجد الفرنجة بداً من الاستنجاد بملك القسطنطينية فقد علموا بمطامعه الواسعة، وثأره القديم، ورأوا أن وقوع الدول اللاتينية تحت يده قد يتيح لهم فرصة التنازل عنها دون جهد كبير، وجاء الملك سريعاً وعسكر أمام «حلب» فامتنعت عليه، ولم يجد منفذاً يوصله إلى النصر فتوجه إلى «شيراز»[2] ونصب المجانيق، وشهر الأسنة والرماح، وأراد أن يكسب نصراً عاجلاً يحقق ظن الفرنجة في بأسه، ولكن عماد الدين يدلف إليه سريعاً ويعرض جنوده وأسلحته بحيث يراه، ثم يبعث إليه يستعجل اللقاء في الصحراء لتدور الدائرة على من تدور عليه، فيستريح الجيش وينفض القتال، وقد ضاق ملك الروم ذرعاً بهذا الاستعجال الجريء، وظن في خصمه من القوة والشكيمة ما يرهب ويزلزل، فتباطأ وتثاقل، ومضى وقت أعمل فيه العماد حيلته الحصيفة، فأرسل إلى ملك الروم مَن خوفه من الفرنجة، وذكر له أنهم سيتركونه وحيداً إذا ادلهم الخطب، كما أرسل إلى الفرنجة من ندد بملك الروم، ونعى عليه تثاقله وانتظاره، فوقع الشقاق بين الحليفين، وفر ملك الروم إلى موطنه، تاركاً وراءه آلاف الذخائر والأسلاب فتبعه عماد الدين، واستولى على الغنيمة الرائعة، وأثخن فيمن أدركه، ورجع منصوراً تتقبله التحيات العاطرة، وتنهال عليه التهنئات، ويفد إليه الأدباء والخطباء فيسجلون إعجاب المسلمين بقائدهم الباسل..

---

(١) ثغر سورية الذي تتنفس منه الآن نسيم البحر الأبيض المتوسط.

(٢) قرب «المعرة» التي منها حكيم شعراء العرب أبو العلاء التنوخي.

وقد حظي عصر العماد بطائفة من نوابغ الشعراء كابن القيسراني وابن المنير، وأبي المجد الحموي، فتغنوا بمآثره، وخلدوا فتوحه وأمجاده، وما زال السيف في حاجة ماسة إلى القلم يلهب العواطف، ويهيج المشاعر حتى إذا أزفت الساعة وتلاحمت الصفوف، دفع بالنفوس الظامئة إلى التضحية والاستشهاد، وقد كان الشعراء قبل العماد يتلمسون البطل المنقذ ليضفروا له أكاليل الثناء! فلا عجب إذا أرسلوا قصائدهم الشادية وقد تحقق الأمل وزأر الليث في العرين.

لقد أعمل القائد حيلته الرشيدة فظفر بما لا تتيحه السيوف دون مشقة هائلة، وكفاح مرير، وها هو ذا يعمل حيلته الثانية ليضم إلى أمجاده الخالدة مجداً جديداً، فقد صمم على أن ينقذ (الرها) من أعدائها المغيرين، فهل يوجه إليها قوته وقد أحاط بها الفرنجة من كل مكان؟ هذا ما لا يشير به الفكر السديد. فالأولى به أن يتغاضى عنها ظاهراً ويوجه حشوده إلى مدن أخرى كآمد[1] وحمص، وديار بكر، ليطمئن الأعداء إلى تحول الخطر إلى منطقة نائية، وهذا ما كان، فقد نزع صاحب الرها عن ولايته، مطمئناً لحاميته وانشغال عماد الدين بفتوحه، ولكن البطل الإسلامي يسرع إليه فيخلف ظنه، ويفتح مدينته، فتسقط في يده، وترجع إليها عروبتها الأصيلة، ويرتفع له صيت مجلجل وتتحدث عنه الركبان..

لقد سقطت الرها كسيرة ذليلة، وقد توقع المقيمون بها من الصليبيين شروراً كثيرة من العماد، ولكن سماحة الإسلام تتغلغل في أعماقه فلا يقتل أحداً غير المحاربين، ولا يأسر امرأة أو طفلاً أو شيخاً، بل نشر ألوية الأمان على المدينة.

وقد حبب إليه كثير من أنصاره أن ينتقم لموقعة بيت المقدس، التي سالت بها دماء المسلمين وذبح الأطفال والنساء والشيوخ كالأنعام، وتناثرت الأشلاء فوق الرمال..؟ ولكن البطل المسلم يظهر أريحية الإسلام وعدالته فيعتصم بالمروءة ويضرب المثل الصالح للخلق الكريم، ويرسم الطريقة المثلى ليحتذيها من بعده ولده نور الدين[2] ثم تبلغ ـ بعد ـ أوجها الرفيع في سيرة صلاح الدين، فأين الذين يرمون الإسلام بالتعصب ويتهمون أبطاله بالعدوان، ليتابعوا الحروب الصليبية في حلقاتها المتلاحقة، ثم ليقولوا كلمتهم ونقول!! على أن هذا البطل المتسامح لم يجد لدى أعدائه من يقدر مروءته ورجولته، فتآمرت عليه العصابة الباغية، وخبأت له نذلاً من الأنذال يغتاله في هجوعه الهادىء بعد أن عجزت عن لقائه في حومة الكفاح، وهكذا طارت روح الشهيد إلى بارئها العظيم هنيئة بالفردوس، ناعمة

---

(١) كانت عاصمة ديار بكر ابن وائل، وهي الآن ترطن التركية في الأناضول.

(٢) أستاذ صلاح الدين في الحرب والسياسة والعدل الإسلامي الرحيم.

بالخلود، وقد خلف وراءه نجله الباسل نور الدين ليستأنف النصر عظيماً عن عظيم.

وقد يلاحظ من يقرأ تاريخ الحروب الصليبية أن انتصارات العماد لا تجد من المؤرخين نصيباً كبيراً من الدراسة والتحليل إذا قرنت بما كتب عن نور الدين، وصلاح الدين، وذلك لأن بعض الكاتبين ينظرون إلى النتائج دون المقدمات، فهم يسجلون المواقف الحاسمة دون أن يمهدوا لأسبابها، ويرجعوا إلى عناصرها ومقوماتها، وقد بزغ عماد الدين في وقت تفرقت فيه الوحدة الإسلامية، وحالت الأهواء الذاتية دون التماسك والاتحاد، فبذل جهداً جباراً في إقامة دولة متماسكة تكافح العدو والمهاجم، وتحارب الإقطاع محاربة حاسمة، وقد استغرق ذلك من نشاطه وكفاحه جهداً ليس باليسير، وحين اطمأن إلى قوته بدأ فتوحه ومواقفه فدافع وهاجم وانتصر، ثم جاء ولده نور الدين فوجد دولة منتصرة متماسكة فاستأنف السير، وواصل الكفاح، وسار في الطريق المعبد أشواطاً رائعة بارعة حتى أخذ مكانه صلاح الدين فتم على يديه النصر ورجحت الكفة العربية بتأييد الله. ومثل عماد الدين مع البطلين الكبيرين كمثل أسرة أرادت أن تنشىء حديقة فيحاء في أرض ذات صخور وأشواك وآكام، فقام عميدها الكبير بإزاحة الأشواك وتسوية الطريق، وشق الجداول، وتهيئة البذور، ثم وافاه أجله فاستأنف قومه الغرس والبذر، وتعهدوا الزرع بالري والتسميد حتى ترعرت الأفنان، وامتد الظل، وتهدلت الثمار، ولولا ما بذله العميد من جهاد عنيف في طريق شاق ما أينع الثمر، ولا امتدت الظلال!!.

ونحن حين نذكر العماد إنما نأخذ من تاريخه عبرة بالغة لحاضرنا الأليم، فقد احتلت الصهيونية الغادرة «فلسطين» وظن الغرب بالإسلام والعرب أسوأ الظنون.

ولولا الصليبية المتأصلة في الغرب ما قام لليهود دولة في بلاد الإسلام، فمسيحيو أوربّا وأمريكا هم الذين أوجدوا إسرائيل من العدم، وكافحوا في تحقيق حلمهم الصليبي بتمزيق الإسلام، وتدمير مدنه وأبطاله متسترين وراء اليهود تارة، ومجاهرين بالضغينة السافرة تارة أخرى، بل إن الدعاية المغرضة تنتشر في أمريكا اليوم عن الإسلام والمسلمين لتعيد لنا بطرس الناسك في مفترياته وتباكيه، فهم اليوم يرسمون الصليب ومن فوقه حذاء عربيّ مسلم ليستصرخوا الأوربّيين على الإسلام في كل مكان!!

والأمة الإسلامية الآن في صحوتها ويقظتها، وإيمانها القوي، خيرٌ مما كانت عليه أثناء الغزو الصليبي منذ بضعة قرون، ولئن رزقت بطلاً باسلاً كعماد الدين فسوف تسجل انتصارها الباهر، وكفاحها المجيد في جبين التاريخ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم.

نور الدين محمود

البطل المثالي

حين أردت أن أكتب عن «نور الدين» وجدت القلم يغرد بين أناملي تغريداً لا ينقطع، فقد هزتني أخلاقه العالية هزاً أثار العاطفة ورنح الوجدان، ولن يعيب المؤرخ أن يتأثر بعاطفة صادقة تهيم بالمثل الرفيعة وتهتز لأفذاذ أماثل رفعوا لواء الإنسانية الصادقة، وجمعوا حوله ما يمت إليه من عناصر الصدق والتضحية، والتسامح والوفاء، إنما يعيب المؤرخ أن يتأثر بعاطفة شخصية مغرضة لا تلتفت إلى مبدأ عادل أو تهيم بمثل كريم أو تطمح إلى مستوى رائع، ونور الدين ـ وإن جهله الكثيرون ـ قمة باذخة ترتفع للعيان شماء عالية، ولها في مكانها السامق عزة قعساء، ومجد رفيع.

إن نور الدين يلتقي مع علي بن أبي طالب في أبرز صفاته وأخلص معادنه؛ فإذا كان تقديس الحق وحده دون نظر إلى مغنم سياسي، أو ظفر حربي هو مبدأ أمير المؤمنين الورع الزاهد، فإن هذا التقديس العظيم للحق وحده دون اعتبار لسواه كان مبدأ نور الدين!!، فطالما اصطدم الرجلان بأهواء المغرضين، ونزوات الوصوليين، وكان في بعض التهاون ـ على حساب الحق ـ ما يجمع المتفرق، ويلم الشعث، ويطفىء الثورات!! ولكن المثل الأعلى يصيح في أذني البطلين الكريمين.. أن قدِّسا الحق وحده، ولا تحفلا بغنيمة تعقب وخز الضمير وتَعَبَ البال!!. ويا له من نداء مؤمن صادق يرتفع عن الرغبات والأهواء!! وإن عاد على سامعه بكثير من العنت والإرهاق!!

سار الإمام في طريق المثل الأعلى، وسار نور الدين خلفه على نفس طريقه! وهو سبيل واضح ينيره القرآن بتعاليمه، ويزينه الإسلام بمبادئه.. ولكننا نجد من يلومون الرجلين الكبيرين، فيقولون عن علي إنه رجل لم يخلق للسياسة والمرانة!!. ويقولون عن نور الدين إنه صادق ومخلص.. ولكنه غير سياسي ماهر.. وكان المفروض في صاحب المثل الأعلى أن يداهن ويُراوغ ويكايد.. وتلك قضية تحتاج إلى دحض وتفنيد.

إن تقديس مبادىء الإسلام سياسة رفيعة عالية!! يصعب على كثير من الناس أن يتمسكوا بها فيما يأخذون ويدعون من الأمور!! ويعز عليهم في الوقت نفسه أن يعترفوا بتقصير تتأكد ملامته ويتحقق عيبه فيحاولوا أن يجعلوا من تهاونهم الناقص كياسة حاذقة توجبها الظروف وتفرضها الملابسات، ثم يتجهوا بأبصارهم إلى أناس لا يعرفون التهاون في

الحق!! فيروا بُعْدَ ما بين الفريقين من خلاف في الهدف والغاية والطريقة، وإذ ذاك ينحون باللائمة على من يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ولو رجعوا إلى ضمائرهم في لحظة مؤمنة بصيرة لانكشف الغطاء عن خداعهم الزائف، وعرفوا حق المعرفة أن أصحاب المثل الرفيع أناس لا تنقصهم السياسة والكياسة والمران، ولكنها سياسة القرآن يؤكدها الإيمان القوي، ويدعمها اليقين المكين.

أفكان علي في تربيته وحصافته وفقهه وبصيرته غير سياسي؟! وهل كان نور الدين في تسامحه ووفائه بعهده وصدق وعده غير سياسي؟ لا يا هؤلاء إنهما سياسيان عظيمان.. لهما مبادىء خالدة لا تتطرق إليها رغبة جامحة، ولا تشين نقاءها نزوة هوجاء.. هما سياسيان محنكان يلتزمان سياسة القرآن وكياسة الإسلام، فلا يعرفان غدراً بعهد، أو طعناً من الخلف أو تحرشاً بغير خصم أو أنانية مغرضة، فليكونا مثلاً عالياً للناس، ونحن باسطون هنا سيرة نور الدين لتكون تطبيقاً للقاعدة الإسلامية أو نموذجاً رفيعاً لإنسان مؤمن تشرب روح القرآن!!.

لم يكد عماد الدين زنكي يقطف الثمرة الأولى من جهاده فتسقط في يده الرها، إحدى مدن الصليبيين حتى لحق بربه ضحية لاغتيال أثيم.. وقام بالأمر من بعده ولده نور الدين كما أسلفنا من قبل.. فماذا وجد؟.. وجد جنود الإفرنج يغمرون بلاد المسلمين، وقد تكاثروا على الناس بجيوشهم الزاحفة وذخائرهم القاصفة، وتجمعهم المتماسك ولا يكاد يمر يوم دون أن يسقطوا مدينة أو يهزموا كتيبة أو يضرموا سعيراً يلتهم المنازل ويمحق الأرواح.. ويزعزع الإيمان... والمسلمون عن أيمانهم وشمائلهم شراذم متنابذة مستذلة يمزقها الإقطاع، ويبيدها داء الأمم من تحاسد وتضاغن.. ففي كل مدينة صغيرة حاكم مستقل يجمع حولـه عشرات الجنود، ومن دونه منافسون من بني جنسه ودينه يتطلعون إلى اغتصاب مدينته.. واعتصار ما بقي لديه من قوته، وهو مضطر إلى محالفة أعداء الإسلام من الصليبيين ليكونوا معه في مأزقه البهيم.. لقاء جزية ثقيلة مفروضة، وأرض مستقطعة مسلوبة!! والعدو الحاقد مهتبل للفرصة، مشمر للوقيعة، فهو يؤيد هذا آونة ويغدر به آونة، ويسر في خاطره ابتهاجاً للشمل المبدد، والعداء المستمر، فقد وقع بأس المسلمين بينهم، وصاروا كالنار يأكل بعضها بعضاً دون أن تمتد منها شرارة محرقة لمحتل غاصب يشحذ أنيابه ويعمل مخالبه قتلاً وتمزيقاً في جسد واهن طريح مزقته الأحقاد وعصفت به النزوات!!.

لقد ظن الكثيرون أن ساعة الإسلام دانية، وعلّل «ريجنالد» صاحب الكرك نفسه بأماني معسولة تتراقص لعينه، فهو يحلم بفتح مكة وانتهاك حرمة المدينة!! ويجعل من حلمه أنشودة يترنم بها جنوده في المغدى والرواح، ويرى الصليبيون أن الغاية قريبة والمركب ذلول!! فيتعسفون ويجدون، وعين الله من ورائهم ترعى القطيع الشارد في غيه وتنابذه، فتهيىء له

بطلاً يجمع شتاته، وراعياً يحسن توجيهه وإرشاده ذلكم هو البطل المتسامح نور الدين!!.

لقد رسم نور الدين لنفسه سياسة لا يحيد عنها في حياته قيد شعرة، فقد وضع نصب عينيه محاربة الصليبيين دائماً، ومسالمة المسلمين أبداً، فلم يفكر طيلة عمره في مهاجمة أمير مسلم، بل علم أن النفوس قد يتطرق إليها بعض الريب فاجتهد اجتهاداً تاماً في مسالمة بني دينه، فإذا لمس نفوراً أو تقية بدأ بالهدايا والتحية، وأظهر من دلائل الود وإشارات المعونة ما ينحسم به الشك.. ويقطع دونه الارتياب، بل لقد وصل في الطريق إلى أقصاه، فصاهر من تأصل لديه الشك ليجعل من الصلة الجديدة رحماً توجب الصداقة، ووشيجة تفرض المحبة والمعونة، وبرغم ما بذل الرجل من جنود يشفعها بالتضحية وتعقبها المكاره، فقد وجد في بني الإسلام من يناوئونه رغبة في الكيد وارتماء في أحضان الفرنجة، والرجل صابر محتسب يطوي الضلوع على إشفاق آسف مرير دون أن يسمح لنفسه بمهاجمة أحمق ينطق بالعربية ويدين بالإسلام، فيتيح بذلك فرصة يغتنمها أعداء الإسلام فيحالفون غريمه المسلم، ويضطر نور الدين إلى منازلة الفريقين وهو بحاجة إلى تعبئة الجهود المتفرقة للقاء فريق واحد يحتل البلاد وينتقل من فتك إلى تدمير في أرض تظللها العروبة ويحميها الإسلام.. تلك هي سياسة نور الدين التي وجدت بعض المعارضين من الانتهازيين والغافلين من المؤرخين!! فراحوا يزعمون بها نقصاً في المهارة، وتهاوناً في الحنكة والمرانة!!.. وهي بعد سياسة الإسلام العادل ومنطق الدين الصريح!!.

وقد كان سقوط «الرها» على يد والده عماد الدين ضربة قاضية على الفرنجة.. فما سمعوا بنعي العماد حتى جمعوا جموعهم وأعادوها إلى الصليبيين من جديد. وقد ظنوا في نور الدين عجزاً عن المقاومة، ولم يعلموا أنه شبل باسل لأسد كاسر.. فطار إليهم محتشداً متهيئاً وألقى عليهم درساً قاسياً شرد من نفوسهم الأمن والاطمئنان، وأعاد المدينة ثانية إلى الإسلام، وانطلق الفرنجة يصرخون ويستغيثون فجاءتهم الحملة الثانية من الغرب وبها كتائب من فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا.. ويباركها القديس «برناردوس» بما ينفخ في الصدور من حمية، ويدخر لهم عند المسيح من مثوبة، وقد ذكر المؤرخون أن عدد هذا الجيش العرمرم بلغ ألف ألف عنان من الرجالة والفرسان.. وهو عدد إن احتمل المبالغة في التصديق فلن يخطىء الحقيقة في كثرته الغالبة وموجه الزاحف المغير!! وقد قصد المغيرون ـ بعد مآزق حربية في الطريق دارت عليهم أسوأ مدار ـ إلى بيت المقدس فصلوا صلاة الموت، ثم قصدوا إلى دمشق في سواد منتشر كثيف.. وضرب ملك الألمان خيمته على الأبواب!!.

وكان الجيش الصليبي في حملته الثانية أكثر نظاماً وأقوى شكيمة وأوفر انسجاماً، فليس فيه قطيع من الأشقياء والمشردين، ولكنه يرتكز على الفرسان، والبارونات، وأرباب

الخالد موقفه بعد وفاة شقيقه سيف الدين، فقد ترك مملكته في سنجار خالية، وتطلع شعبها إلى نور الدين، إذ استفاضت في الناس شهرته الفائقة، وطبق الأرض جهاده الحافل!!

ويذهب البطل الكمي إلى «سنجار» لا ليضمها إلى حلب فهذا ما لا يقدم شيئاً في استئصال العدو الصليبي، بل ليهبها إلى أخيه الأصغر مكان أخيه الفقيد، ثم يعلن في الناس أن الحكم مشغلة متعبة فلا يستطيع أن يتفرغ لمسؤوليته الكبيرة وأمامه العدو يتربص به الدوائر، فلتكن سنجار لأخيه وليحكمها ممثلاً سيرته فله به أسوة حسنة! وليعجب الناس من أمير مسلم يتحرر من الأطماع المغرية، وينظر إلى الواقع نظرة مجردة لا تحوطها البهارج والأوهام. .

وسيراً على هذا المبدأ الرائع مبدأ المناوأة والعداء للفرنجة الصليبيين واصل الرجل استعداده للقتال، وتهيأ بذخيرته القوية، فغزا بلاد الشمال، وأمعن في العدو تنكيلاً واستئصالاً، فكلل جهاده بأسر القائد الصليبي «جوسلين»، وكانت له شهرة مدوية في الإقدام والبطولة، فهو فارس الإفرنج غير مدافع، وقد أعيا الكماة الأشاوس بجهاده الباسل، وجرأته الخارقة وليس من السهل القضاء عليه في معركة حربية تشتجر بها الرماح وتلمع الأسنة «فجوسلين» فارس مغوار يقدر لرجله موضعها قبل الخطو، وهو من قوته وحاشيته بمربأ مرتفع لا تصل إليه همة، أو يرتقي نحوه مطمح فلم يبق غير إعمال الحيلة في اقتناصه.

وكان من عادة البطل الصليبي أن يغامر بنفسه في مطارح نائية للصيد ترضي مواهبه الفتية وتشبع رغبته الرياضية فوكل به نور الدين كتيبة باسلة أخذت عليه الطريق، ووقع أسيراً تغل قيوده كفيه، وذاع النبأ في الفرنجة فوقع موقعاً حز في الصدور!! وفت في الأكباد، وتفرق الصليبيون أباديد يلتمسون قائداً يلتفون حوله فيفرغ عليهم من بسالته ما يقوي العزيمة الخائرة، ويشفي الجرح الفاغر، وهيهات! فقد أسر «جوسلين»، ذلك الثعلب الذي عاهد نور الدين مرات عدة فغدر وفجر وأفحش، ثم حانت كارثته الأليمة فاستطار أصحابه هلعاً، وارتجفت أعضاؤهم فرقاً من هول ما ينظرون، وتوالت الفتوح الظافرة على المسلمين، فاستولى نور الدين على القلاع المستعصية، ورفع رايته فوق الحصون المنيعة! وسطعت بشائر النصر تؤذن بدوام الفوز واطراد النجاح.

لقد كان البطل المسلم سياسياً داهية حين نصب الكمين لغريمه فأتاه من حيث لا يحتسب، وسياسته في أسره لا تقل مهارة عن سياسته الماهرة مع «مليح بن ليون» ملك الأرمن، فقد أخذ نور الدين يخادعه ويستميله حتى جعله في خدمته حضراً وسفراً، وكان يقاتل به الإفرنج ويقول في تبرير ذلك. . إن بلاده حصينة وعرة المسالك وقلاعه منيعة عالية الأسوار، وهو يخرج منها إذا أراد فينال الإسلام ثم ينحجر بها فلا تقدر عليه، فعلينا أن

نراوغه ونداريه لنطفيء لهباً يكاد يشتعل فتتقاطر عليه صبابات من المجاملة والتودد. . فتحيل الجذوة المتوقدة رماداً تذروه الريح، فليت الذين يشكون في فراسة نور الدين وكياسته يتأملون هذا الموقف وأشباهه ليعرفوا كيف استطاع هذا القائد المحنك أن يجتث القلاقل المزعجة ببسمة خالبة وبشر عطوف.

ولم ينس نور الدين في غمرة كفاحه الصليبي أن يقوم بإصلاح داخلي شامل قوامه التعمير والتثمير والتشييد، فلقد أنشأ المدارس والجوامع، وشيد القناطر والجسور، ودور المرضى، وخانات المسافرين، وأقام الأبراج على الطريق بين المسلمين والإفرنج، وفيها الطيور الهوادي، وحمام الزاجل فإذا أحاط الخطر بقرية من قرى الإسلام طار الحمام فعلم الناس ما يترصدهم من الأهوال... وقد أنشأ ملاجىء الأيتام واهتم بالزراعة والتجارة. . اهتماماً غريباً عاد على البلاد بالخير والنماء، وكان يأخذ مال الفداء ويعمر به المساجد والبيمارستانات، فإذا وصلت إليه هدية غالية من صديق محب، أو عدو مخادع بعث بها إلى القاضي لتنفق في تعمير المساجد والمدارس وملاجىء الأيتام. . وهذه هي السياسة العمرية التي تكفل الرعية بعنايتها البالغة كما تتجه إلى السماء فتستلهمها الهدى والتوفيق إذا عضل مشكل أو أبهم طريق. . ولها من التقوى الصادقة، ومراقبة الله جنة سابغة ومجن حصين.

وقد ذكر ابن الأثير. . أن بعض أصحابه أخذوا عليه كثرة نفقاته على الفقهاء والفقراء والقراء، فقال، في عزيمة المؤمـن ويقين الخاشع: والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم! كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطىء وأصرفها إلى من لا يقاتل إلا إذا رآني بسهام تخطىء وتصيب وهؤلاء لهم نصيب في بيت المال؛ فكيف أمنع عنهم خيراً فرضته السماء. .؟.

الله أكبر. . هذا هو الإيمان القوي يغمر نفساً صادقة لا يزدهيها النصر. . أو يميل بها الزهو والخيلاء. . فارس باسل يبذل قوته فيسهر ليله ويعمل نهاره ويتقدم الصفوف إلى الموت غير هياب ولا وجل. . حتى إذا رجحت كفته، وذاق حلاوة فوزه تبرأ مما نسب إليه من نجاح، وعزاه إلى كهل يصلي أو امرأة تتضرع أو مريض يمن الله عليه بالشفاء في مصحة، وكأنه بذلك يذكر قول رسول الله ﷺ: «مهلاً عن الله مهلاً، فلولا شُبّانٌ خُشَّعٌ، وشيوخٌ رُكَّع، وأطفالٌ رُضَّع، وبهائمُ رُتَّع؛ لصب عليكم العذاب صباً». هذا مثل نشفعه بثان وثالث، فقد وقف نور الدين بجيوشه أمام قلعة «تل حارم» المنيعة!، وكانت في يد الفرنجة، وقد ملؤوها ذخيرة وجنوداً وخيولاً، واندفعوا يهجمون على ما حولها من الأصقاع عابثين مفسدين، فإذا أفعموا حقائبهم ومطاياهم بالأسلاب والغنائم كروا إلى الحصن الأشم، وقبل أن يلتقي الجمعان هاجت دوافع الإيمان يَحْنِنَّ نُزَّعاً في قلبه، فغمره إشراق سماوي منير، وتوجه

إلى الله بلسان يبتهل، ورأس ساجد وطرف حسير. . وصاح على ملأ من أجناده. . رباه نسألك النصر وحدك لا شريك لك، «فنور الدين» الكلب (كذا) ضعيف ذليل لا يملك شيئاً!، ثم رفع رأسه من السجود واندفع نحو الموت حريصاً عليه!! فعاد بنصر من الله، وثناء من الأجيال. .

وقد أصيب عمه ذات موقعة بسهم صائب فقأ عيناً له، ووقف العم الملتاع. . يتأوه متألماً لما حل بساحته من الفاجعة، ولكن نور الدين يقول له في حنان الناصح ويقين المؤمن: «أي عماه والله لو رأيت ما أعده الله لك في الدار الآخرة من الأجر لأحببت أن تذهب عينك الأخرى». فليت شعري أي إيمان يضيء قلب هذا المسلم المثالي؟. إني لأحاول أن أهدىء حرارة إعجابي به فلا أستطيع، ولولا تواتر غرائبه، ووثوق مصادره، وصدق شواهده لعددت ما كتب عنه أسطورة ترتفع عن الواقع!!، وتنزع إلى الخيال. . وحسبك أن يعترف به مؤرخو الغرب من الأوربيين، والفضل ما شهدت به الأعداء.

إن الإيمان سلاح لا يفل، وقد تدجج به نور الدين فاندفع يحصد أعداء دينه حصداً لا هوادة فيه. . وها هو ذا يتجه إلى حصن «أنطرطوس» ليدير رحى الحرب طاحنة فتأتي على الفرنجة بالحصد والتدمير، وعليه بالنصر والتأييد، ثم لا يخلد إلى الراحة بل تصل إليه الأنباء معلنة أن أهل «عسقلان» ينازلون أعداء البلاد مستظهرين بأسطول مصري خف لنجدتهم، فيرى البطل أن الاتحاد قوة، ولا بد من مهاجمة الفرنجة لتتفرق جهودهم في حومتين حاميتين، وكان ما أراد، فملك حصن «أفليس» وقتل من احتله من الصليبيّين ثم نهض إلى غيره فغنم وظفر وتوج بنصر الله!. . ورجفت الراجفة تحت أقدام الفرنجة إذ دهمتهم الأنباء باستيلاء نور الدين على دمشق. . لقد كان البطل الباسل يجتثهم اجتثاثاً ويقتلعهم اقتلاعاً، ودمشق ليست في حوزته، فما عساه أن يبلغ من الشكيمة والبأس وقد أضاف قوة إلى قوة وضم جنداً إلى جند. .؟ ثم إن صاحب دمشق الخائن «مجير الدين» كان يمد لهم يد المعونة، ويقطعهم العمائر والحصون، ويرسل معهم الجنود والأرصاد ممن يتظاهرون بحب نور الدين وهم عين عليه ترجف به، وتنشر الإشاعة الكاذبة وتنقل الخطة المبيتة!!. واحسرتاه، إن من بني الإسلام أناساً ران على قلوبهم الزيغ، وطمس عيونهم الباطل، فهم في ضلالهم يعمهون!. . وقد حسبوا نور الدين يعمل لنفسه فهبوا يعملون، لا لأنفسهم بل لأعدائهم وأعدائه، وقد كان البطل النبيل يحاذر أن يمس دمشق وصاحبها بسوء، ولكن رائحة الخيانة كانت تزكم أنفه، وزاده غيظاً وحنقاً أن الخائن خاس بعهده فلم يحفظ يده حينما عفا عنه، وقد كان في طوقه أن يقذف به إلى مطرح شاسع يريح الإسلام من مخاتله المنكرة ذات الثبور والوبال. .

وقد قامت الثورة في دمشق مرة ثانية يتزعمها العلماء والفقهاء والأعيان مستغيثين بنور الدين، ومن خلفهم النساء والأطفال والشباب، وذلك ما يثبت أن الحاكم شيء والشعب شيء آخر! فإذا أراد طاغية مأفون أن يخون الإسلام في موقف حاسم فليس في إدارته الغاشمة ما يدل على أن قلوب الرعية تكن له بعض الولاء والتأييد. . إذ يقف بمفرده في ناحية، ويقف الشعب تجاهه في ناحية مقابلة، والصدور تغلي من الغيظ، والأنوف تشتعل من الضجر والغمة، وأهل الإسلام في كل زمان ومكان لا يزالون يحرصون على إعلاء كلمته ونشر رايته، وإن اعترض طريقهم معترض فمآله إلى الخيبة والسقوط، ولعذاب الآخرة أشد وأوجع. . وقد دخل نور الدين دمشق فأبطل المظالم والمغارم، ورفع الحيف عن الضعاف، وجمع القوة المتساندة إلى مقصد واحد لا تثنيها دسيسة كاذبة أو تخويف خداع، وتنفست دمشق الصعداء، إذ زال عنها كابوس مخيف سفك الدماء وصادر الأموال وحالف الأعداء ونهب الدور، وحاك الآثم المفتريات. .

ومن العجيب أن نور الدين لم يبادر بقتله جزاء خيانته، بل أدركته مثاليته الرحيمة وبذل له إقطاعاً في حمص. يقول الأستاذ محمد كرد علي في الجزء الثاني من خطط الشام: «وهذا من غريب ما يحكى في باب العدل فإن الملوك قد جرت عادتهم في تلك العصور إذا أخذوا ملكاً أن يقتلوه! فلم يفعل نور الدين ذلك تحرجاً من إهراق الدماء الحرام، واستحكام الطوائل والأحقاد في أمة أشد ما تكون إلى التضافر» ونحن نقول تعقيباً على ذلك: إن دم مجير الدين ليس حراماً كما ذكر الأستاذ محمد كرد علي، فهو خائن عاهد العدو وظاهره وأقطعه وأهداه، وشريعة الإسلام ترى القتل مشروعاً لأمثاله. . فدمه ليس بحرام على الإطلاق، ولكن نور الدين يمعن في التسامح ويميل إلى الإغضاء.

وقد استنجد الصليبيون بإخوانهم الأوربيين فوفدت عليهم الأمداد تأهباً لنزال نور الدين بعد أن تأثلت قوته واستغلظ عرشه، ودارت بين الفريقين مواقع كثيرة في حمص، وحماة، وإيناس، وصيدا والبقيعة، فكان البطل ينتصر وينهزم، وهو لا ييأس من روح الله في انكسار، ولا يستشعر الخيلاء في انتصار، وكان إيمانه العميق مدداً سماوياً يهبط على قلبه بالسكينة والإيمان فيزيد من بأسه، ويدعم من ثباته، وقد أغناه هذا الإيمان الوطيد عن جيش جرار في حادثة مشهورة بلقاء، فقد اندفع إليه الفرنجة ذات موقعة في طوفان لجب دفاق فانهزم جيشه، وفر متقهقراً عنه، ولكنه آثر الموت على الحياة ووجد الصليبيون جيش نور الدين ينسحب، ووقف القائد في رهط صغير. . فحسبوا أنها مكيدة مدبرة، وأن الكتائب المنسحبة ستطوقهم من الخلف، ففزعوا لظن داهم لم يكن في حسبان أحد، وطاروا عن البطل مسرعين خائفين، وكان موقفاً عجيباً حرص فيه نور الدين على الموت فوهبت له الحياة. .

هذا ولم تتجه نفس البطل إلى مصر المسلمة إلا حين أزعجه استنجاد وزرائها بالفرنجة من الصليبيين، ثم وصول «امري» صاحب بيت المقدس إليها ليعين فريقاً على فريق، وليبسط ظله على بلاد ترفرف عليها أعلام الإسلام، وإذ ذاك وجب اقتحام مصر المسلمة، كما وجب من قبل ذلك اقتحام أختها دمشق، فالمعركة لم تعد بين مسلم ومسلم ولكنها بين مسلم غيور باسل وطغام من الوزراء والقادة ينتسبون إلى الدين الحنيف اسماً ويتوجهون إلى أعداء الله مجددين مأساة دامية كابد منها نور الدين غصصاً أليمة، وبات معها بحسرة لاذعة، وهم وجيع، وقد سارت كتائبه في حملات ثلاث متعاقبة حتى رسخ قدمها وتقبلها المصريون بقبول حسن، وأدت ما عقدت عليه العزم من مطاردة الصليبيين وتمزيق شملهم أباديد.

لقد حاصر الصليبيون دمياط فركب الهم نور الدين وشغله وأقلق باله وخاطره، ورجع إلى المسجد يدعو الرحمن دعوات حارة ضارعة ثم اتجه إلى الدرس الديني يسمعه من عالم فقيه، وكان فيما ذكره حديث عن تبسم المؤمن، فاستعبر البطل النبيل وقال في أسف لاذع: «إني لأستحي من الله أن يراني مبتمساً في حين أن المسلمين يحاصرهم الفرنجة في دمياط».

يا لجلال المسؤولية يحملها شهم باسل فتـؤرق عينه، وتقض مضاجعه، ولا تزال تتجسم له مصبحاً وممسياً.. حتى تتكشف الغماء بنصر الله وبتأييد المؤمنـين.. وقد أمر نور الدين تلميذه الباسل صلاح الدين فنكل بالأعداء وأخذ يتهيأ لاستكمال الدور الذي مثله أستاذه العظيم، وقد حدثت بين البطلين جفوة شديدة موحشة قطعها الموت بوفاة نور الدين قبل أن يضطر أحدهما إلى قتال تتفرق به الجهود، ويتضافر معه الأعداء، وإن أجل الله لا يـؤخر إذا جاء.

مات نور الدين فروع الإسلام بفقده، وخسرت المثالية الرفيعة رائداً يعتصم بها في مأزقه، وتفجرت العيون حزناً عليه وولهاً به وإنا ننقل هنا بعض ما ذكره ابن الأثير عنه إذ يقول في صدق وإنصاف: «لقد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا فلم أرَ بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه، فقد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحساس يوليه، وإنعام يسديه».

لقد عاش نور الدين ـ مع ملكه وشهرته ـ متواضعاً زاهداً، ومات فما نسي التواضع تاريخه الحبيب، إذ ظل ـ مع روعته المدهشة ـ في مراجعه الوافرة ساكناً لا يحلله باحث، أو يترنم به شاعر أو يصوره قصاص أديب!!.

صلاح الدين الأيوبي

الفاتح العظيم

يقع الكاتب في حيرة بالغة حين يهم بتسجيل سيرة فياحة لعظيم من عظماء التاريخ، إذ يجد أمامه مواقف رائعة تتطلب البسط والتحليل، وقضايا هامة توجب الشرح والتدليل، والمقام بعد لا يتسع لغير النظرة العاجلة، والتعليق الطائر، فرجل «كصلاح الدين الأيوبي» يرهق مؤرخه إرهاقاً عسيراً إذا تحدث بإيجاز عن روائعه وخوارقه، فيضطر اضطراراً إلى رسم الخطوط البارزة تاركاً وراءها من الدقائق ما لا يتسع المجال لتوضيحه وتفصيله، وفي نفسه اعتراف صارخ بالاقتضاب الجائر، وحسبه أن يعلن ذلك لقارئه فيستريح. .

لقد تعددت مظاهر البطولة لدى «صلاح الدين»، فهو شجاع باسل، يقابل الموت بابتسامة مطمئنة فيصرعه مسلحاً بكفايته وموهبته، وهو سياسي ألمعي يستشف الحوادث في حجبها المستترة قبل أن تسفر عن وجهها الصريح، فيأخذ لكل أمر عدته، ويعد لكل موقف أهبته ويشرئب إلى مثل عليا يتنزل بها القرآن الكريم، ويباركها الهدي النبوي الشريف، وهو بعد رجل قدر له أن يقود الإسلام في حرب مقدسة يتكالب عليها الغرب بملوكه وبجيوشه ودوله وأسلحته!، وقد كابد صعاباً هائلة زادته إيماناً بدينه ووطنه، وأعطى أعداءه دروساً بالغة جعلتهم يتحدثون عنه فيطيلون، فصلاح الدين كان ولا يزال مادة خصبة لمؤرخي الغرب وأدبائه، فهم يتتبعون مواقفه محللين، ويلاحقون جهوده مفسرين منذ قدر له أن يقوم بدوره البطولي إلى اليوم، وأترك قليلاً كتّاب التاريخ وعلماءه ممن يتمسكون بالوقائع، ويستشهدون بالحوادث ثم أنظر إلى أصحاب الخيال من الشعراء والقصاص، فقد اتخذوا من حياة البطل الإسلامي مادة دسمة تسعفهم بالمناظر المشوقة والمواقف المدهشة، وقد صحب الإنصاف كثيراً من أقلامهم، فسجلوا مروءته وسماحته تسجيلاً يتردد صداه في صحائفهم المتتابعة، أما بطولته الخارقة فلم يجرؤ أشد الأعداء. . . اضطغاناً على الإسلام أن يحوم حولها بشبهة موهومة، أو يغلفها بستار خادع، فاندفع كتاب أوربا يسجلون للبطل نعمة الله عليه إذ وهبه الإقدام الجريء والقيادة الرشيدة والبطولة الجبارة، وأذكر أني قرأت قصة «لبو كاشيو» في كتابه (ديكامرون) فلم يكتف كاتبها بإثبات سيطرة (صلاح الدين) على

الإنس وحدهم، بل جعل الجن أيضاً يمتثلون أمره، ويخافون عقابه، فهو سليمان آخر يأمر وينهى كما يشاء، ولم ينس المؤلف أن يلم بأخلاق البطل المثالية، فقد تحدث عنها حديث العدل والإنصاف، ومهما امتزج الحق بالأسطورة في قصة (بوكاشيو) فإنها تحمل بذور الواقع السافر، وتومىء بعناصرها الحية إلى الحق الصريح وحسبنا ذلك.

لقد تربى (صلاح الدين) في كنف نور الدين، فورث عنه كثيراً من خلاله الباهرة، ومزاياه الحميدة، ورث عنه التقشف الزاهد، والبعد النازح عن الترف والملاذ، والاقتصار فيما يأكل ويلبس على الضروري اللازم مما يقيم الأود، ويدفىء الجسم، وقد وفد عليه بعض أعدائه في سفارة سياسية فوجده في خيمة صغيرة يجلس على بساط متواضع وبين يديه مصحف، وعلى جانبه سيفه وقوسه، فقال السفير في نفسه: لا شك أن هذا الرجل موفق منصور فقد تركت خصومه على طنافس الحرير يشربون الخمور ويدقون الطبول وينتهكون المحرمات ولن يهزم عاص مطيعاً. .؟ وهذا ما كان، فقد انتصر صلاح الدين على أعدائه بمراقبة ربه وامتثال أوامر دينه واجتناب ما هو محرم من الله فكان أسوة حسنة ومثلاً يضرب للناس.

وإنك لتدهش دهشة غريبة حين تجد كاتباً جامعياً مسلماً يخالف ما توافق عليه المؤرخـون فيقول عن صلاح الدين[1]: لا يكاد يتشمم ريح خطر من ناحية إلا تغيرت نفسه، وغاضت فيها عيون الحلم والصبر، وكانت مشروعاته ومطالبه متعددة لا تنتهي، فكانت حاجته للمال لا تنتهي وكان عماله وجباته من أقسى خلق الله على الناس. ما مر ببلدة تاجر إلا قصم الجباة ظهره، وما بدت على إنسان علامة من علامات اليسار إلا أنذر بعذاب من رجال السلطان، وكان الفلاحون والضعفاء معه في جهد ما أينعت في حقولهم ثمرة إلا تلقفها الجباة، ولا بدت سنبلة قمح إلا استقرت في خزائن السلطان حتى أملق الناس في أيامه وخلفهم على أبواب محن ومجاعات حصدت الناس حصداً. . يقول الدكتور الجامعي ذلك مع أن صلاحاً قد أخذ من مال الفداء يوم المقدس مائتي ألف دينار وعشرين ألفاً فوقها، ففرقها على العلماء والأمراء والفقراء، وأطلق كثيراً من الفقراء بدون فداء، وأغضى عن جواهر الصليبيين وحليهم فلم يعرض لها بسوء، مما لا يصدر عن أرقى رجل مهذب في القرن العشرين، وقد خرجت ابنة الملك «امري» تحمل صلبانها المذهبة وحليها اللامعة المتوهجة، وهمّ أصحابه بها، فحال دون ما يبتغون، بل إن بطريرك القدس جمع أموال البيع والكنائس في صناديق مقفلة وأخبر بها صلاح الدين، فقال: لا يجوز أن نفجعه

---

(١) الدكتور حسين مؤنـس، مجلة الثقافة العدد ٤٦٢.

في ثروته، فليفعل بها ما يشاء؟ فليت شعري، أيكون السلطان بعد ذلك لا يترك إنساناً من المسلمين تبدو عليه علامات اليسار إلا أنذره بالوبال والعذاب! لنتأمل ما سطره الدكتور المسلم ولنقرنه بما ذكره مسيحي أوربي هو صاحب كتاب «تاريخ المؤرخين» إذ يقول ما ترجمته: «ولقد كان من شدة كرمه أن عماله كانوا ينكرون عليه المال حتى إذا جاءت ساعة الحاجة إليه أخرجوا له ما يريد، وهذا من كثرة بذله وعطائه، وكان من عادته أنه إذا استولى على مقاطعة من المقاطعات نشر أعلام كرمه وسخائه على أتباعه وسكان الجهة، فملك بذلك رقابهم، ولما استولوا على دمشق لم يأخذ لنفسه شيئاً من خزائنها، بل وزع كل ما وجد على الأهالي، ويحترم كل من في خدمته، ويعاملهم معاملة لينة، فإذا وقع من أحدهم ما يسيئه كتمه ولم يظهره، أما مجلسه فكان طاهراً لا يجسر فرد على أن يقول سوءاً في جار له، ولم ير يتيماً إلا تحركت فيه عاطفة الشفقة والحنان عليه، وكان فوق هذا محباً لأولاده وأهله، وكثيراً ما شارك أطفاله في لعبهم، وكان يحب العدل ويعاقب كل من خالف أحكامه، فكان يجلس للمظالم بنفسه مرتين في الأسبوع للغني والفقير، في حله وترحاله، وفي سفره ومقامه».

ولو شئنا أن ننقل كثيراً من النصوص المسيحية لغير هذا الكاتب المنصف لضاق بنا القول، دع ما تفيض به الروايات الإسلامية من باهر المزايا وروائع الخيال، مما لا نجد معه عذراً لكاتب يتخيل واهماً ثم يسطر تخيله الموهوم ليقول بعض الناس: إنه منصف معتدل لا متعصب ممالىء!! وهو في الواقع يتعصب على قومه بما بريء منه أكثر الأجانب اعتصاماً بالحيدة والعدالة، وإيثاراً للحق النزيه.. وسنتابع صلاحاً في مسرح حياته لنشهد في سرعة طائرة كيف مثل دوره الرائع، فأصبح رجل الشرق، وبطل المسلمين!.

كان نجم الدين أيوب والد صلاح بطلاً كريماً، نشأ نشأة عصامية، فأبرز كفاية نادرة أفسحت له طريق الرياسة، فصار محافظاً لقلعة تكريت في عهد السلاجقة، ثم تقلبت به الحال حتى اتصل بنور الدين، ووجد في غزواته وفتوحه ميداناً لبطولته، فتألق نجمه في سماء المجد، وعرفته الحروب كمياً باسلاً يعتمد عليه حين يتأزم الموقف، وينبهم المسالك، وقد نشأ في كنفه ولده صلاح، فشب على ما يشب عليه أبناء القادة من حب للكفاح، وولوع بالنضال، وقد رأى نور الدين مثلاً حياً للبطولة الإسلامية في هيامها بالعزة وترفعها عن السفاسف والأهواء، فاشترك في غزواته، وتأمل عن كثب ما يصطرع في الميدان العربي من قتال دام يتفهم بواعثه، ويعرف دواعيه، فتفتحت عينه البصيرة على كتائب الفرنجة تفد كالسيول الجارفة من مواطنها النازحة لتدنس مواطىء العروبة والإسلام، وتضع نير العبودية فوق الأعناق غير عابئة بكرامة الآدمي وحقوق الإنسان، هذه النشأة المبكرة في حلبة الكفاح

وحومة النضال قد وجهت النشىء اللدن إلى مبدأ مقدس يهيم بتحقيقه ويسعى لبلوغه، فاندفع إلى الحومة الحمراء مهاجماً تارة، ومدافعاً تارة، وسمع من والده ما أشعل في صدره الحمية والفداء، فاتجه معه إلى ساحة نور الدين يصدران عن رأيه، ويتمسكان بخطته، حتى تكشفت الأيام عن بطولة جديدة تتفتح في أكمام هذا الناشىء الطموح، فطفق نور الدين يمد يده إليه، ويدعوه إلى مجلسه، ويستشيره في أمره، ويزداد الفتى ثقة بنفسه، فيشير بالخطة، ويصحب أستاذه العظيم في غدواته وروحاته، وقد يشترك معه في حديث علمي بمجلس حافل يحضره الأئمة من الفقهاء والعلماء ويتصدره نور الدين مصغياً لما يروي، ومناقشاً ما يقال، وبذلك وقر حب العلم في نفس الفتى الطماح، فنهل من ينابيع الشريعة، وعكف على دراسة سير القادة من صدور هذه الأمة وأمدته الأيام بنخبة من كرام الأساتذة فأصبح رجل علم وتفكير كما هو بطل رمح وحسام..

هذه النشأة المباركة تجد من ينكرها من مغرضي المؤرخين فيزعمون أن سيرة صلاح الدين الأولى لا تُعرف على وجه التحديد، ويذهبون إلى تضعيف الروايات المتواترة، وتحقير الأسانيد المتتابعة، فلنترك معهم الروايات والأسانيد جانباً، ولنقل إنه ابن بطل حربي وجليس أمير عظيم، وربيب وطن محارب يزحمه الأعداء ويتربص به المتربصون أفلا تكون هذه البيئة وحدها كافية لانبعاث همته واتقاد طموحه، فيكون في نشأته الأولى ملتهب الغيرة، متأجج الحماسة؟! وهل يعقل أن تكون خواتيمه الرائعة نتيجة بدون مقدمة، وغاية بغير سبيل؟! إنك في دنيا الأدب تحكم على شاعر بالإبداع لقصيدة فذة يقولها قوية رائعة فتتأكد أنها وليدة ثقافة عريضة وعاطفة متأججة، أفلا تحكم في دنيا السياسة على بطل فذ قد تعددت غزواته وبهرت فتوحه بأنه لقن أعمال الحرب في نشأته، وشاب على ما شب عليه من هيام بالفتوح والانتصار..

لقد صمم أسد الدين على أن يصحبه معه في غزواته الثلاث إلى مصر، ولو لم يقدر قائد الحملة في صلاح الدين بطولته الرائعة ما صمم على اصطحابه، وفي مصر العزيزة كان أول مجد يسجله صلاح الدين ويدونه التاريخ تدويناً لا تناله الأراجيف، فقد استطاع في الغزوة الأولى أن يبث روح الحمية في بلبيس، فيضمن النصر لجيش يحاربه العدو ويجانبه الصديق، أما في الحملة الثانية فقد صار قائداً معلماً يسير على رأس كتيبة مرموقة، وينفرد بالمحاصرة والهجوم، وقد اعتمد عليه أسد الدين في غزوة الإسكندرية فتقدم إليها ظافراً، وأقام الحصون والقلاع، وثبت بها في رهبة الحصار، وقلة الذخيرة، ونفاد القوت حتى استطاع أن ينجو من مأزق يتعثر به المهرة من القواد، فكسب قلوب أبناء الثغر، وكانوا له فيما بعد جنة سابغة، ودرعاً واقية لا تقدها الرماح!.

مضت الحملتان الأوليان وجاءت الحملة الثالثة ليستقر أصحابها نهائياً في مصر. .
ذلك ما عزم عليه نور الدين حين رأى الفرنجة يحتلون ديار الاسلام في وادي النيل، ويجدون من خونة الوزراء من يفتح لهم الطريق، ويمدهم بخيرات مصر وزروعها وتجارتها وذهبها! وأي مطمع لملك الفرنجة أكثر من أن يجد مصر في قبضة يده تمنحه الخصب والأمن فتطعمه من جوع، وتدفئه من برد، وأية حسرة تعتصر قلب نور الدين حينما يجد أعداء الإسلام يحاربونه بأسلحة مصرية، ويقومون على قتاله بخيرات تتساقط بها حقول النيل! لا بد من تملك مصر تملكاً يعصمها من الصغار والهوان، ومن لها غير أسد الدين ونجم الدين وصلاح. . أولئك القادة الغر من بني أيوب الذين أشربوا روح التضحية والفداء، وهم بعد أولـو خبرة بمصر ودراية تامة بمدنها وحصونها، بل إن بينهم وبين المصريين من وشائج الحب والإخلاص ما لا يقدر على فصمه خليفة وصولي أو وزير خائن! ! . ليذهب أسد الدين ثالثة إلى مصر وليجعل صلاحاً مستشاره الأول وليتقربا معاً إلى شعب مسلم أعزل يبادلهم عواطف الحب والإخلاص، ولتندحر الجيوش الصليبية مقهورة ذليلة تاركة عملاءها من الخونة يعضون بنان الندم آسفين خاسئين، لقد ملك أسد الدين الزمام، ومال إلى التسامح، فعفا عما سلف من الغدر والعقوق، ولكن «شاور» الخائن لا يهدأ له بال، فهو يتآمر على جنود الإسلام من جديد مكاتباً أتباعه من الفرنجة، بل يذهب في الخيانة إلى أبعد مدى يتصوره إنسان، فيدبر مكيدة لاغتيال أسد الدين وابن أخيه، والله أرأف بمصر والإسلام من أن يتحكم فيها خائن أثيم، فقد شاء الله أن تكشف المؤامـرة الخاسئة، وأن يأخذ صلاح الأهبة فيزحف على عدوه الآثم مكبلاً يده ورجله ثم يسوقه إلى الخليفة الفاطمي فيصدر أمره بقتله وترتاح الكنانة من أفعى خاتلة تنفث السموم القاتلة دون ضمير يؤنـب! لقد تمكن صلاح من خصمه الألد فانقشع ظلامه عن الوادي لتأتلق بعد شمس أسد الدين في أفق الوزارة، وليتسلم القوس باريها الحصيف. .

ثم ماذا؟ لقد اتهم بعض المغرضين صلاحاً إذ ائتمر بشاور، وهم يعلمون أن من انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، ولكن الغرض يعمي صاحبه فيدافع عن مجرم آثم تنكر له ذووه، وتبرأ منه نجله الكامل شجاع بن شاور، فأعلن على الملأ خيانة أبيه، ووشى إلى صلاح بما يدبر من دسيسة واغتيال، فكان النجل الطاهر مثال الإنسانية الرفيعة في أقدس معارجها الشماء، وحمل له التاريخ نفحة عبقة تهب نسائمها معطرة بالرحمة والرضوان، أولئك قوم كتب في قلوبهم الإيمان. . يا لله. . كم في صحائف التاريخ من غرائب خارقات؟ ! .

صفا الجو في مصر فأسد الدين وزيرها المغوار يقوم بأمر الإسلام فيها، فيشفي صدور

قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم بما ضمد من جراح وآسى من كلوم، حاسباً أن الدهر سيسعفه بأمد فسيح يمتد به حبل الحياة، ولكن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، فقد انتقل إلى جوار ربه بعد ثلاثة أشهر من وزارته، وانفجرت بالدموع عيون، وتأججت زفرات وأكباد..

مضى أسد الدين وخلفه صلاح، مضى أسد باسل ليحتل مكانه شبل جسور، لقد ألهم الله نور الدين الموافقة على هذا الاختيار، فالوزير الجديد في حلقته الثانية والعشرين من عمره السعيد، وحواليه من القادة من يكبره سناً وتجربة وإدراكاً، وقد يقول قائل: إن العاضد الوصولي قد اختار الشاب الصغير كيلا يستطيع إدارة الأمر وحده، فيلجأ إليه في كل شأن عسير، وسواء أكان ذلك أم سواه فقد أثبت الشاب الباسل كفاية نادرة وتمت نعمة الله عليه في فضلها العميم، ولن يفوتنا موقف دقيق يمر عليه المؤرخون مسرعين، ونقف عنده قليلاً نستوضح دلائله وطواياه، فقد نظر صلاح الدين إلى والده نجم الدين وقد أصبح رئيساً عليه فتعاظمه أن يقعد في مكان يستحقه أبوه في تقديره ومرآه، ماذا يصنع وعواطف الوفاء تخلع عليه حرجاً يستشعره، ويحاول أن يفر منه فلا يقدر، إنه يتقدم إلى أبيه في خشوع وإكبار فيصارحه بأنه يكل إليه الأمر فعليه أن يصدر ما يريد، وعلى صلاح المبادرة بالتنفيذ، ثم يزيد فيعلن أنه سيتلقى وحيه فلا يعجل بإصدار أمر دونه، مهما وضحت الجادة واستقام المذهب، ويرى الوالد وفاء نجله، فيسر في نفسه فرحة قوية يحس له كنشوة السلاف، ثم يصيح من أعماقه: كلا يا بني! فوالله ما غربت عني شمس سطعت أضواؤها عليك، امض كما تشاء في طريقك ولن أبخل عليك بدمي ورأيي مدى الحياة. وسارت الأيام وصلاح يفيء إلى والده نجم الدين مستظلاً بوارف رأيه، والأب الحنون يبذل نصيحته وقوته في صلاح الأمر ودوام السداد، بل إنه كان يعارض ابنه على مسمع ومرأى من الناس، فلا يجد غير الإذعان المخلص، والسمع المطيع، وقد وثق كلا البطلين بسريرة صاحبه فأصبح خلاف الرأي مدعاة الثقة الكاملة والحب الأكيد..

لم يسر صلاح الدين لأول عهده بالوزارة في طريق مفروشة بالورد والريحان، فقد تكاثرت دونه عقبات تعترض راحته وتكدر صفاءه، وقد بذل جهده الجاهد في تذليل الجامح، وتسهيل الوعر، ومصانعة العاصفة، فلجأ إلى الشعب المصري يستميله بتخفيف الضرائب، وإنعاش الأسواق، وإعداد المؤن والأقوات، وكان الفرنجة قد فشلوا في تقدير قوته ومكانته، فشنوا على دمياط هجوماً صليبياً جديداً، وتوافدت سفائنهم تحمل الذخيرة والعتاد، ويقذف جنودها بالحمم على ديار الإسلام في دمياط وما جاورها من الأصقاع، فهرع صلاح بكتائبه الباسلة إلى منازلة الأعداء، ولم يأل البطل جهداً في الدفاع

والاستبسال، فقد كان الفرنجة عظيمي الآمال في النصر، ويرون في الاستماتة سبيلاً إلى زعزعة مكانة صلاح الدين، وأنى ذلك؟ فقد تغلب الجيش الإسلامي على عدوه المغير، وعاد صلاح إلى القاهرة وحوله جموع الشعب تهتف بحياته، وتعتز ببسالته مما أضفى عليه الثبات والاستقرار، وجمع حوله الخول والأنصار.

ولكن الحق لا يعدم أعداءه، فقد عز على مؤتمن الخلافة أن يصفو الأفق للوزير الأيوبي، ورأى في انتصار دمياط دعامة قوية يقوم عليها صرحه المكين، فلجأ إلى الخيانة الدنسة مكاتباً ملوك الفرنجة، وباذلاً وعوده ومغرياته ليعود الصليبيون إلى القاهرة من جديد، وشاءت المصادفات السعيدة أن تقع الرسالة المريبة في يد جندي أيوبي غيور، فتقدم بها إلى صلاح الدين، ونظر البطل فإذا أصدقاء الظاهر ألداء الباطن يدبرون المكايد وينصبون الفخاخ فحسم طريق الشر، وقتل الخائن الآثم قتلة بلقاء؛ أثارت دوياً في أتباعه من جنود السودان، فجاهروا بالعصيان، وتنادوا بالثورة، ولكن الشعب المؤمن من وراء بطله الباسل يعاضد قوته، ويؤازر بطشه، فلم تكد عاصفة الشر تثير الغبار قليلاً في وجه صلاح الدين حتى قابلها بعاصفة ملتهبة قوية فألقى على أعدائه أنجع درس وأقساه وتفرق العصاة أباديد يتلمسون سبيل النجاة ولا سبيل.

ثم انتقل القائد الباسل إلى فلسطين فقاوم الفجرة من الفرنجة مقاومة رهيبة، وأمن الطريق للحجاج من الشراذم العابثة، ورجع إلى القاهرة تسبقه أنباء بطولته، وأخذ يتفرغ للإصلاح الداخلي بهمة دائبة، وعزم نشيط، فشيد دور العلم، وعمر مساجد العبادة، وأقام مدرستين لتدريس المذهب السني، ولم يكن ذا رغبة ملحة في القضاء السريع على المذهب الشيعي، مراعاة لبعض الظروف واستمالة لكثير من القلوب، ولكن نور الدين وهو رئيسه الأول قد كتب إليه في ذلك متعجلاً ملحاً، فخاف أن يتباطأ تباطؤاً تسوء عاقبته لدى نور الدين فدعا للخليفة العباسي على المنابر، وطفق الدعاة ينشرون عقائد أهل السنة.. وقد شاء الموت أن يختار العاضد في هذا الظرف المحرج، فسقطت بموته الدولة الفاطمية دون أن يتعجلها صلاح الدين بضربة حاسمة، وسارت الريح رخاء تبشر بالحظوة والإقبال..

أخذ الوزير في إقامة الخطوط الدفاعية عن مصر، وطفق يقارن العاصمة بحواضر الشام، فلم يجد لها قلعة يعتصم بها الجيش في ساعة الخطر، بل كانت أبواب القاهرة مفتحة تدعو الغازي إلى احتلالها دون عرقلة وتعويق، فشيد القلعة الحصينة التي تشتهر باسمه إلى الآن، وأقام سوراً كبيراً يشمل الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة المعزية، وبذل في ذلك جهداً يعتصر القوة ويشرد الراحة والاطمئنان، وليته تفرغ لرسالته العمرانية دون ما ضجة

وانزعاج، فقد انتبه ذات يوم على مؤامرة سياسية للعصف بالدولة الأيوبية واسترجاع الدولة الفاطمية بمعاونة الخونة ومكاتبة الفرنجة.. فأراد أن يلقي درساً بليغاً على العصاة من المؤتمرين، فشنق رؤوس المكيدة وأعوان الخيانة وضرب بذلك المثل الأليم لمن تحدثه نفسه بزلزلة مخيفة تعصف بالأمن الهادىء، وتستعيد الشقاء البائد في ركب الوصوليين..

وقد ألف الكتاب أن يتحدثوا عن موقف صلاح الدين من سيده نور الدين حديثاً لا يخلو من مبالغة وتهويل، ونحن لا نبرىء صلاحاً من هيامه بمصر، وعمله على الاستقلال بها، فهو قائد طامح يحلم بالمجد والنفوذ، ولكننا نؤ كد أن البطل الأيوبي لم يستطع أن يجابه سيده نور الدين بكلمة مؤ ذية أو رد غير مهذب، بل ظل يدين له بالخضوع والولاء، وقد شاء الله أن ينقذ العالم الإسلامي من شقاق مدمر تنفجر قذائفه بين البطلين العظيمين، فاختار لنور الدين جنته ورضوانه، ووجد صلاح الدين الميدان خالياً بعد سيده العظيم، فحمل رايته، وسار في سبيله إلى أقصى الطريق. ونحن حين نقارن بين الرجلين العظيمين نعترف أن نور الدين كان قديساً مثالياً لا يتعلق بأضواء المجد، وبوارق العظمة، ولكن صلاحاً كان بطلاً واقعياً له أحلامه وآماله، ولديه هواتف حارة تجذبه نحو الأضواء والبوارق، فإذا ارتقى نور الدين مستوى المثاليين في أوج الملائكة فقد رفرف صلاح على هامات البشر دون أن يسف إلى سفح منحدر، أو يقع في هاوية بهماء.

هذا الفارق بين الرجلين يفسر سياسة كليهما في معاملة الأمراء والأتباع، فنور الدين لا يحرص على ضم مدينة إسلامية إلى مملكته، وإذا رأى من حاكم إسلامي مراوغة في حق أو جنوحاً إلى باطل طوى الضلوع على حسرة كظيمة دون أن يجرد لذلك وحده سيفاً باتراً أو يسفك دماً فائراً، أما صلاح الدين فقد جعل من همه استئصال كل مراوغ، ومصارعة كل محتال، كما وحد جميع مدن الشام ومصر تحت قيادته ليقف المسلمون صفاً واحداً من خلفه، وقد عادت سياسته هذه بكثير من الفوز والنجاح، ولو دقق الباحث في فهم محاولاته السياسية في الوحدة الإسلامية لرأى له عذراً يذكر فيحمد، ومجهوداً شاقاً قام به في تضحية واستبسال.

لقد انتفضت مدن الشام انتفاضة مرتجفة بعد موت نور الدين، إذ ترك الراحل العزيز نجلاً صغيراً لا يثبت للزعازع، فطمع الطامعون في ملكه، واستقل كل حاكم ببلده، وقامت فتن وثورات داخلية بين أمراء المسلمين كل يحاول أن يزيد في رقعته، ويفسح في مملكته، مصطنعاً أحط أساليب الوقيعة والاستهتار، والفرنجة من الصليبيين يصفقون للخلاف المشتجر، والنزاع المشتبك، ويرون في ذلك حرباً تدور على المسلمين، فتعصف بريحهم وتمزق قوتهم، دون أن يراق فيها دم صليبي، بل إن بعض الخونة من الأمراء قد

حالف الفرنجة واتخذ من صاحب بيت المقدس ظهيراً يأوي إليه في الشدة، ويدفع الجزية الصاغرة كي يحمي عرشه بسيوف الأعداء، واضطر آخرون من الخونة أن يحالفوا مليكاً صليبياً آخر أفزع صلاح الدين وضايقه، فأخذ يراقب الحوادث في ثورة لا تهدأ ووسواس لا ينقطع حتى إذا جاءه كتاب بعض الأمراء يستعين بحوله وقوته انتهز البادرة اللائحة وجمع قوته الموفورة وخف إلى بلاد الشام يتدارك الفيضان المدمر، فيقيم على سواحله الشواطىء المنيعة قبل أن يفيض أتيه المزبد فلا يدع من شيء إلا أتى عليه.

سار صلاح الدين إلى بلاد الشام مصمماً أن يجعل من قطعها المتناثرة جيشاً متماسكاً يأوي إليه إذا حزب الأمر، ولم تكن سبيله ميسرة ممهدة، فقد تحالف الأمراء على قتله وصادق العدو العدو ليقفا صفاً واحداً أمام المهاجم المغير، ودارت معارك وحروب شملت أمراء الموصل وحلب وسنجار ودمشق وحماة، وغيرها، وانتهت بانتصار صلاح الدين فأصبحت الشام ومصر كلتاهما في قبضته، وتوحدت الجبهة الإسلامية توحداً زادها قوة رهيبة، ولم يأل الرجل في التحبب إلى رجال الشام ومصانعتهم ليزيل ما علق بنفوسهم من حروبه فأكثر من الهدايا والتحف ، وبادر بالإصلاح الداخلي السريع، وأحس الغُيُر على مستقبل الإسلام بارتياح منعش، ولكن الذين في قلوبهم مرض لم يقدروا الموقف تقدير المشفق الحريص، ولم يستطيعوا مجابهة البطل سيفاً لسيف، فعمدوا إلى التآمر مع الإسماعيلية على اغتياله والإسماعيليون حينئذ يعتصمون بالقلاع ويتدرعون بالدسيسة والشكيمة والاغتيال، ورئيسهم «سنان» يتظاهر بالخشونة والتقشف، ويطيل لحيته ويقف على قمة الجبل نهاراً ليلقي مواعظه، فإذا جنه الليل لجأ إلى دسائسه الخاتلات، وقد أصدر أمره باغتيال صلاح الدين، فتوجه جند من شيعته إلى خيمته حتى إذا أنسوا بعض الغفلة من حرسه انكفأ أشجعهم عليه بخنجره طعناً وتمزيقاً، والبطل يحتمي بدروعه تحت ثيابه وغطاء رأسه، فلم تصادف الطعنات مقتلاً منه غير دماء نزفت من خده، ولكن حرسه الباسل قد ثار له فاندفع إلى الخونة يسومهم القتل والاستئصال، وعرف البطل أعداءه من المسلمين فأخذ لنفسه الحذر، وأيقن أنه نجا من الموت المحقق ليتم رسالة الإسلام في سحق الفرنجة من الصليبيين ولن يثنيه عن ذلك تربص واغتيال، فقد توحدت الجبهة الإسلامية تحت لوائه، وأصبح البطل المرموق والقائد المهيب.

لقد دق ناقوس الجهاد، وعليه أن يبادر باستئصال هؤلاء العابثين، وأنّى له ذلك وبين الفريقين هدنة تمتد إلى أربع سنوات. . وصلاح الدين وفيّ أمين لا يخيس بذمة، ولا يغدر بعهد، ولكن أصحاب الخيانة يبدؤون بالغدر، فيقوم صاحب الكرك بقطع القوافل على الحجاج من المسلمين فيسبي النساء ويقتل الرجال، وقد زاد في وقاحته فأخذ يسب الدين

الإسلامي، ويشهر بالرسول العظيم، ويتوعد بالاستيلاء على مكة والمدينة وإبادة ما تضمان من مقدسات.. ويطير النبأ إلى صلاح الدين، فيحقق أمنيته العظيمة في الكفاح، وينادي بالتعبئة الحربية في مصر والشام، فيتدفق ذوو العقيدة إلى القتال مستبسلين ويرى الفرنجة في الجيش المغير طوفاناً مرعباً ينذر بالويل والثبور فتتجمع وتتكتل كتائبهم لتقف في طريق الزاحف المغير، وقد أعملوا الحيلة قبل الالتحام، فعزموا على احتلال منابع الماء ليكون العطش سلاحاً قاتلاً يشهرونه على المسلمين. ثم بدؤوا بالهجوم غير عابئين، ودارت معركة رهيبة بين قوى متعادلة متقاربة فرجع الإفرنج إلى طبرية لينفذوا الحيلة المدبرة، ولكن صلاحاً يسرع إلى احتلالها ويقوم بإحراق ما بها من المساكن، ويحتل مياهها احتلالاً لا يدع بها منفذاً لطامع! أي شيء هذا..! لقد صمم القوم على إهلاك المسلمين بالظمأ، فأصبحوا يتساقطون صرعى العطش المحرق، وملك المسلمون موارد الماء فعظمت حميتهم وارتفعت الروح المعنوية لديهم ارتفاعاً عجل بالنصر السريع، وها هم أولاء الفرنجة يتركون طبرية ويتسللون إلى تلال حطين فيقيمون خيمة لملكهم الشريد، ويتجمعون حوله مستميتين وجنود الإسلام تتعقبهم إلى خطوطهم الجديدة فتدور رحى الحرب من جديد ماحقة ساحقة، ويتساقط صرعى الفرنجة هالكين، وفي قلوبهم حسرات تفعل ما لا تفعل السيوف والرماح، وتحين الساعة الفاصلة فيهزم الجمع ويؤسر الملك «جفري» وصاحب الكرك «أرناط» وأمراء القوم وعليتهم وتسقط الإمارات اللاتينية متخاذلة مترنحة، ويجلس صلاح في خيمته ليرى ملك الفرنجة أسيراً يلوحه الظمأ فيسقيه الماء المثلوج ويهم الملك جفري بسقيا صاحب الكرك البرنس أرناط، فيأبى صلاح الدين يذكر ما تهدد به أرناط المسلمين حين سب نبي الإسلام، ووعد بالاستيلاء على الحرم الشريف، وذبح الرجال واستحياء النساء غادراً بالعهد والمواثيق، ثم يقوم إلى سيفه فيحتز رقبته ويرتعد الملك وأمراؤه هلعاً فيطمئنهم صلاح الدين على مصايرهم المتعلقة بمشيئته، ويرسلهم إلى دمشق في إكرام واحتفاء بالغين ثم يقتل فريقاً من الأسرى نكالاً بما كانوا يصنعون..

أصبح صلاح الدين بعد موقعة حطين مبعث البهجة والفرحة في قلوب المسلمين جميعاً، فانضم إليه من خامره بعض التردد في الالتحاق بجيشه في حين انذعر الأعداء، واضطربت قلوبهم رعباً وهلعاً فما يكاد يهم بمدينة من مدنهم الحصينة حتى يتفرق أهلها مذعورين هائمين، وكان السلطان يسبغ على أعدائه النافرين عطفاً وتسامحاً فلا يهم ببطش أو عدوان بغير موجبه الأكيد، مما جعل الألسن البغيضة تتحول إلى ثناء فواح على شهامته ومروءته..

وكانت عسقلان بحاميتها القوية وموقعها الحصين عقبة كأداء في طريق بيت المقدس،

فحاصرها بعد فراغه من عكا مباشرة، وترك مدينة صور دون حصار، ولو وجه إليها همته الباسلة لسقطت في يده، ولكن عزوفه عنها جعلها شوكة دامية في جنب الإسلام، إذ تجمع حولها النافرون وأصبحت فيما بعد مهب خطر يتهدد المسلمين بين الحين والحين. وذلك خطأ حربي يوجهه الكاتبون إلى صلاح!. ونحن لا ندعي له العصمة في شيء، ولكنا نقول: لعله أراد أن يتفرغ لها بعد بيت المقدس فتنهار قوتها المعنوية وتضطر إلى التسليم دون جهد كبير، وكثيراً ما يرسم القائد خطته الحصينة وتأتي الرياح بما لا تشتهي السفن برغم الحيطة والحذر. لقد فرغ البطل من عسقلان وأسلمت إليه مقاليدها ففتحت الطريق إلى بيت المقدس، وهو يومئذ حرم حصين مقدس تفتديه المهج والأرواح، وكان في نية البطل أن يدخله دون حرب احتراماً لقداسته، على أن يترك من فيه من الفرنجة يرتحلون عنه آمنين مطمئنين وأنّى له ذلك..؟.

والصليبيون يرون الدفاع عن طريق المغفرة والرضوان، وما تركوا أوربا مغتربين ونزحوا إلى آسيا مجاهدين إلا هُياماً به وذوداً عن حرمه الرفيع، لقد خاب رجاء صلاح الدين في المسالمة، ودارت الحرب الطاحنة دون هوادة أو نكوص، وتلمس البطل أسباب النصر وحيله فهاجم المدينة من مكان غير مرموق، وتدفقت الجيوش الإسلامية إلى المعقل الحصين، فقامت الصلوات ودوى التكبير، وتردد الأذان في كل مكان، وانتظر صلاح الدين فلم يدخل المدينة حتى خرج منها جميع الصليبيين، وقد غمره شعور إنساني كريم، فلم يقرر الجزية على غير رجال الجيش وأذن للأهالي المسيحيين بالإقامة في أملاكه، ومن أراد الرحيل فليحمل معه ما شاء من الذخائر والأموال دون اعتراض..! وذلك سلوك مهذب لم يكن ليصدر عن غير إنسان رحيم، بل إنه رأى عدداً من الفرنجة يحملون آباءهم الضعفاء على ظهورهم فدمعت عيناه وأثر في نفسه هذا المنظر الحزين أشد التأثير فأمر لهم بالمال الجزيل، ووزع عليهم الدواب لتنقلهم إلى أماكنهم سالمين.

أما معاملته للنساء فقد كانت مضرب المثل في الحنان، ولا تزال الروايات الصليبية تزدحم بنوادر خارقة عن صلاح الدين، وأذكر أني قرأت قصة كبيرة لكاتب أوربي مسرحي تدور حول إنسانية هذا الرجل العظيمة: فقد ذهبت إليه بعض الصليبيات تطلب ولداً خطفه بعض المسلمين فأمر بالبحث عنه وراقب الأمر بنفسه وأحضر لها الطعام والشراب حتى رجعت قريرة العين تصحب ولدها السليب، وحينما رحلت الملكة «سيبيل» عن بيت المقدس ودعها في محبة وإجلال، وقد تبعها عدد كبير من الباكيات يحملن أطفالهن ويسألن عن أزواجهن، فتأثر البطل تأثراً أليماً وأمر بإطلاق الأسرى دون فدية، فالتأمت الجراح ونامت العيون، فإذا قرنت هذه الصور الوضيئة بما ارتكبه الصليبيون حين فتحوا بيت

المقدس، فقد اندفعوا كالوحوش يذبحون النساء والأطفال والشيوخ حتى ألقى المسلمون بأنفسهم من فوق الأبراج منتحرين، وتدفقت الدماء في شوارع القدس حتى خاضت خيولهم منابعها مخضبة ملطخة تنادي عليهم بالفضيحة والشنار، هذا ما يقوله مؤرخوهم من أمثال «ميشود» لا ما نقوله نحن، فأين الرحمة الإنسانية من القسوة الوحشية الضارية، بل أين أحقاد الصليبية الثائرة من تسامح الإسلام الرفيع؟.

سار صلاح بعد ذلك إلى «كوكب» ثم إلى «طرطوس» ثم إلى اللاذقية ثم إلى كاس ثم إلى غراس، وكان النصر يحالفه في مسيره السريع، غير أن الحملة الصليبية الثالثة التي نفرت من أوربا بعد سقوط بيت المقدس جمع حولها الفلول المنهزمة من الفرنجة ولفظت أوربا إلى الشرق ما تضمه من ذخائر مبيدة وعدة قاصفة، فاستعان بها القادمون والمنتظرون على مهاجمة بعض الحصون، واستعادة ما تمكنوا منه من القلاع، ولم يستطع صلاح الدين أن يجبر عسكره على النضال بعد صراع مديد أورثهم الملل والضيق، فعقد صلحاً مؤقتاً وفي نفسه حسرة ممضة، ثم فاجأته الحمى القاتلة فقضى نحبه بدمشق فأصاب المسلمين من الحزن والأسف والكمد ما يفري الضلوع ويفجع النفوس.

مات صلاح الدين وخلدت الوقائع بطولته النادرة، وسطرت الأيام خلاله الباهرة ناضرة تنفح بالأريحية والوفاء، وضيئة تتألق بالبشر والسماح، ندية تقطر بالرحمة والحنان، كان مثال التواضع والإخلاص، بُني له في دمشق منزل فخم تحرسه الأبهة ويحوطه الجلال فنأى عنه بجانبه وقال: هذا منزل يشتاقه طالب الحياة ونحن طلاب شهادة في سبيل الله، وتوفي عن سبعة وأربعين درهماً في بيته يملكها أحقر صعلوك في بلاد الإسلام، وقد كان ذهب الغنائم يتدفق عن يمينه فلا يحفل ببريقه الخلاب، فهو يهب الأقاليم بزروعها وخيراتها لمن يأنس في ترضيه رأب الصدع وجبر الجروع، ويجلس مجلس القضاء مرتين في الأسبوع، فيستمع إلى الشيخ الكهل، والأرملة المحزونة، والصبي اليتيم، ويسامر أقل جندي في جيشه، كما يسامر أميراً يستظل بالسيوف ويستعين بالقوى والعتاد، ويروي ابن خلكان أنه رتب أوقافاً كبيرة جعلها تحمل أسماء جنوده دون أن يقرن اسمه بأثر جليل أو مسجد حافل، ولعمري ما مات من فعل كل ذلك، بل إننا اليوم على تراخي الأمد، وتناسل الحقب نعطر الصحف بحديثه، ونحيا بذكره، ونأمل أن ينهض فينا من ينتصف للشرق المظلوم من الغرب المفتري كما انتصف صلاح الدين من المسيحية المعادية للإسلام السمح الكريم.

الملك قطز

فارس معركة عين جالوت

نعتقد صادقين أن للإسلام الغلبة والبقاء مهما تألبت عليه قوى الشر وعناصر الفساد، وتلك الحقيقة السافرة هي التي تضطرم لها أوربا غيظاً وحنقاً، فقد جاهد دهاتها في محاربة الإسلام جهاداً لا هوادة فيه، ولم يجدوا بعد الكفاح المرير والإعياء القاتل غير الهزيمة والخذلان، ولهذه الحقيقة السافرة شواهد من التاريخ وبراهين من الواقع، وحديثنا عن معركة «عين جالوت» وبطلها الملك المظفر قطز دليل مؤكد يبرز معدن هذا الدين الحي، دين العزة والرجولة والاستبسال!!

لقد تعرض الإسلام في القرن السابع الهجري لإعصار مدمر رهيب، فقد جهد الغزو التتري الماحق في بلاد فارس مع العدوان الصليبي الآثم في شواطىء النيل على استئصال شأفة الإسلام وتقويض معالمه، وظن المرجفون أن ساعة الإسلام آتية، ولكن مصر الإسلامية الظافرة تسجل في صحائف التاريخ نصر الإسلام ونجاحه، وتـقف أمام الغزاة من الجانبين وقفات رهيبة قاسية ثم تنجلي المعركتان عن فوز ساحق يكلل جيش مصر ويضيء قسمات الإسلام..

لقد تدفقت جيوش التتار من هضاب الصين، فاكتسحت خراسان وهمدان وقزوين، ثم اجتاحت مـرو، ونيسابور، وهراة فقوضت عروشاً وأبادت مدناً، وشبت شبوب النار الجائحة لا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، وقد جرفت فيما جرفت من العروش سلطان ملوك خوارزم، فتفرقوا، وتمزقت أشلاؤهم تحت سنابك الخيل وشواجر الرماح، وبيع من بقي من الأطفال والصبية بيع الرقيق!! وقد كان الملك المظفر «قطز» في طفولته أحد هؤلاء الضحايا الذين جيء بهم من بلاد الأكراد ليباع في أسواق دمشق، غير أنه كان يحمل في نفسه همة عالية، وعزيمة ثابتة، فنشأ

مجاهداً مكافحاً وحرص على الثقافة والفروسية معاً، وقد كان العز بن عبد السلام بدمشق ـ آنئذ ـ يشن الحملات القاسية في تعبئة الشعور العام ضد التتار، ويدعو المسلمين إلى مؤازرة جلال الدين ـ خال الملك المظفر ـ في جلاده الرهيب مع الأعداء، ويرى أن يتجمع المسلمون تحت راية واحدة ليتمكنوا من الوقوف صفاً واحداً أمام الخطر المشترك، وكلما جاءت الأنباء بانتصار جلال الدين طرب له العز واهتز، ودعا فأخلص، فلما حانت خاتمته الأليمة بعد أن أغرق زوجته ونساءه في نهر السند واضطر إلى محاربة إخوانه في العقيدة ممن نكلوا عن مؤزراته في دفع الخطر المتوثب، تحسر العز وأسف.

وسمع قطز بما يكنه الشيخ الكبير لأسرته من حب وإعظام، فسعى إلى مجلسه وتتلمذ عليه وعلى أقرانه من أئمة العلماء، كما أتقن الصيال والوثوب في ميادين الفروسية والبطولة، وقد كان اقترابه من العز نفحة مباركة ميمونة ألهبت مشاعره الوجدانية نحو الإسلام، وجعلته يعد نفسه بطلاً من سماته، فحذق أساليب القتال وضروب الشجاعة، وما زال يقيم الدليل بأفعاله المدهشة على جرأته الثابتة، وحنكته الماهرة، وعواطفه نحو الإسلام تشب وتلتهب، فلم يكن بين الجنود جندياً يأتمر بأمر قائده متى أمر وحيث أراد، ولكنه ـ بتأثير العز بن عبد السلام ـ وضع الفكرة الإسلامية بين عينيه، وسار على منارها أنّى تألق وأضاء، وآية ذلك أن الصالح إسماعيل صاحب دمشق قد هادن أعداء الإسلام من الصليبيين، واستعان بهم في حروبه الكافرة مع صاحب مصر الصالح أيوب. . ونظر المظفر فوجد أعداء الإسلام يقفون معه تحت لواء واحد أمام مصر التي ردت سهام الفرنجة إلى نحورهم، وقدمت أفلاذها العزيزة قرباناً للعقيدة. . وذياداً عن قرآنها، وإذ ذاك يضطرم الغيظ في صدر البطل الباسل فيصيح في إخوانه صيحات مؤنبة منددة، ويحمل الراية مع من معه في دمشق لينضم إلى جيوش النيل الباسلة تاركاً ملكه الخائن يتفتت غيظاً وكمداً حين يرى أعظم كتيبة في جيشه تنخلع من ظلام الباطل إلى ضياء الحق فيتم على يدها النصر الحاسم لمصر.

ويعرف الصالح أيوب صاحب مصر جهاد البطل الأبي فيضمه إلى مماليكه ثم يجتبيه نائبه وظهيره عز الدين أيبك فيجعله من أخلص خلصائه وأصدق أعوانه، وحين خرجت الجيوش المصرية إلى مقاتلة الصليبيين في أرباض دمياط كان «قطز» يقوم

بجهده الموفق فيجمع الكتائب، ويخترق الصعاب حتى إذا وجد الفرنجة يقتحمون السدة السلطانية بالمنصورة تدفق الدم الإسلامي الأبي في عروقه وصرخت أمجاده العريقة، واشتعلت النخوة الإسلامية في رأسه، واندفع إلى السدة يضرب ذات اليمين وذات الشمال حتى درأ عنها الخطر الفاغر، ثم تعقب الهاربين في السواحل المترامية، والمروج الفسيحة فقتل ومزق إلى أن انجلت المعركة بنصر الله فأسر لويس التاسع، وتبدد جنده الفاشل ما بين قتيل وشريد.. فتمت بذلك الكلمة العليا للإسلام.

كان النصر الحاسم الذي بلغه الجيش المصري في نضاله الحميد مذكياً للهمم، ومحيياً ما اندثر من الآمال، وقد ارتفع بالروح الوطنية إلى أوج سامق ألاق، فشعر المصريون بأنهم ذادة الإسلامة وحماته، ولمسوا مواضع القوة في أرواحهم العالية، ومعادنهم النفيسة، ونظموا أهازيج البطولة يرددونها في غدواتهم وروحاتهم فخورين متفائلين، ولكن ما لبثت الأنباء تفد بعد قليل من بغداد أليمة قاسية، فقد داهم هولاكو مدينة السلام بخيانة ابن العلقمي وأعوانه الظاهرين والمستترين، واستأصل ما فيها من الذخائر والأعلاق وأجرى الدماء أنهاراً مائجة، وأسقط الخلافة سقوطاً أليماً، وجلب الدمار والتخريب على قصبة الإسلام وحاضرة المسلمين. ثم زحف بجنوده إلى الغرب مدمراً حاصداً فعبر الفرات واستولى على بلاد الجزيرة وما وليها من ديار بكر وحران ونصيبين والرها.. ثم وصل إلى حلب، وقد اتخذ من الطغيان الآثم منطقاً يبرر به وحشيته المتبربرة، فهو يعمد إلى التهديد والوعيد ثم يثني بالتنفيذ الوحشي لا يرحم طفلاً ولا كهلاً، بل كانت آهات الضحايا وزفرات الصرعى نغمات حلوة تصل إلى أسماع جنوده فيترنحون ثملين، وقد تجردوا من إنسانيتهم الرحيمة وإحساسهم الرقيق، وصاروا يعتقدون أنهم زلزال الأرض لا يقف أمامهم جبل شامخ أو حصن منيع.. وقد اضطربت بلاد الشام اضطراباً عنيفاً لهجوم الطاغية، وتعرضت لبركان مدمر، على حين انطلق الجواسيس ودعاة الهزيمة يبعثون الرعب في النفوس، ويصورون الغزاة المتوحشين في أبشع صورهم الحمراء، وقد ترامت الأنباء الفاجعة إلى القاهرة فبات المصريون منها على شر مستطير..

كان الملك المظفر ـ حينئذ ـ نائباً للسلطنة المصرية، حيث يجلس على العرش شاب خامل هو علي بن عز الدين أيبك، ولم تكن له دراية بغير اللهو والعبث، فمثله

لا يستطيع أن يواجه الموقف الرهيب في أحلك ظلماته، وأخطر مواقفه، فاتجهت الأنظار إلى قطز، ذلك العملاق الجبار الذي يحمل في أعماقه أحر الأحقاد على التتار! هؤلاء الذين شردوا أهله، وفرقوا سلطانهم في خوارزم، وتركوا البؤس يلعب في بلاد التركستان وهضاب فارس، فالتقت الحمية الأبية في نفسه بالروح الإسلامية التي أجج نارها سلطان العلماء العز بن عبد السلام في عروقه، وخلق ذلك منه بطلاً إسلامياً فدائياً لا يستنيم إلى ضيم ولا يركن لخنوع، فملك زمام الأمر وأصبح سلطان البلاد في خطبها!!.

جمع الملك المظفر أعوانه وجنوده وأطلعهم على حقيقة الأمر في بغداد، وأعلمهم أن مصر مطمح الأنفس، ومراد العيون، ولا بد أن الوحش التتري سينقض عليها بجموعه ما بين ساعة وساعة، وقد شاء الله أن تضع أمامه وثيقة لا تقبل النقض، إذ بعث الطاغية رسله بإنذار متعجرف أحمق يقول فيه:

«من ملك الملوك شرقاً وغرباً، القائد الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض، ورافع السماء يعلم الملك قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال أنا جند الله في أرضه خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن لا نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكا، وقد سمعتم أننا فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم البلاد، فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب. فأي أرض تأويكم وأي طريق تحميكم؟ وأي بلاد تنجيكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فإنكم أكلتم الحرام، وخنتم العهود والأيمان، وفشا بينكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون. وليعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، فأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً ولا كافياً ولا حرزاً، وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذ أرسلناكم وما بقي لنا مقصد سواكم،

والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى، وخشي عواقب الردى فأطاع الملك الأعلى».

هذا منطق الطغاة لا يتغير ولا يتبدل في كل زمان ومكان، فهم المدافعون عن الحقوق دائماً، ومع أنهم وثنيون يستشهدون بالقرآن ويدعون أنهم جند الله في أرضه يفتتحون البلاد ويطهرونها من الفساد ويعصفون بمن يأكل الحرام ويخون العهود وينقض الأيمان! أجل أجل هذه هي رسالة التتار الذين أفنوا في بغداد مليوني نفس، وأبادوا شتى الحضارات الزاهرة في الشرق التليد، ولولا موقف مصر الخالدة لعبروا الطريق إلى الأندلس وأوربا يحملون الدمار والوبال ولن تجد فاسقاً في الناس يعترف بفسقه وجوره، بل يجد من الضرورة أن يتشح برداء مموه من الغيرة والحفاظ، كما حاول التتار أن يظهروا مظهراً خادعاً في إنذارهم العجيب.

جمع الملك المظفر جنوده ورجال مملكته، وألهب فيهم جذوات الحمية والإباء، وقد احتشد العلماء والأمراء وأعيان الدولة في يوم مشهود حافل، ووقف العز بن عبد السلام رحمه الله يذكر فضائل الجهاد، ويعد بمثوبة الله في الآخرة وشرف الحياة في الدنيا، وكان الشباب المصري الأبي من التجار والزراع والصناع يقدرون الموقف مع الجنود حق قدره، ويقدمون أنفسهم كتائب غازية تؤازر الجيش الرسمي، وتسانده ذوداً عن الكرامة والوطنية والإسلام!!

وقد رأى بعض المماليك أن تفرض الضرائب، وتجمع الأموال لتكون رصيداً مدخراً يرجع إليه المحاربون حين يعوزهم العتاد في ساحة الجهاد، ولكن سلطان العلماء رضي الله عنه يصيح صيحة تنخفض لها الرؤوس وتنعقد الشفاه فيأمر جميع المماليك بأن ينزلوا أولاً عما عندهم من النفائس والجواهر والحلي.. حتى إذا ما تم ذلك وبقيت للجيش حاجته للمال تبرع الشعب بما يملك عن رضا وسخاء.. وذلك موقف منصف عادل إذ إن الجواهر الثمينة التي تمور بها خزائن الأمراء والحلي الذهبية التي تكتنز لدى المماليك وقد أخذت حراماً من الشعب واجب أن ترد إليه في ساعة العسرة دون اعتراض، ولا سيما قد قاسمهم الشعب جهادهم المرير فوقف معهم في شواطىء دمياط وشعاب فارسكور برد الصليبيين، وها هو ذا ينهض ثانية من خلفهم ليقاتل التتار في أرباض الشام غير مدخر وسعاً أو طاقة، وكانت النتيجة مرضية، فقد

بذل الأمراء ما عندهم، وبذل الشعب ما عنده، وتعاون الفريقان على النضال متربصين إحدى الحسنيين. . النصر. . أو الاستشهاد.

وسار الجيش الباسل، وقائده قطز في طليعته أسوة حسنة للمجاهد الغيور، وقد لمس بعض التردد من الأمر، فصاح صيحة جهيرة: «يا أمراء المسلمين تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون. . من أراد الجهاد فليتبعني، ومن تأخر فإن الله مطلع عليه!. وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين».

وقد أخذ الرجل لجيشه كل حيطة وتدبير، فافترض الفروض البعيدة، ورأى من المحتمل أن يهتبل الصليبيون انشغاله بالتتار فيروعوا دمياط من جديد. . لذلك بادر بردم مصب النيل هناك كيلا تعبر منه السفن غازية كما سبق أن عبرت في الحملة المنهزمة، وأقام حامية قوية من جيشه على الإسكندرية تحفظ الأمن، وتدفع الغير، ثم انتقل إلى «عكا» وكانت بأيدي الصليبيين فأنذر أهلها وتهددهم بما لا طاقة لهم به كيلا يكونوا يداً مع التتار عليه فانكمشوا في جحورهم، وقدموا إليه الهدايا والتحف تزلفاً ومحاباة، مع أنهم عاهدوا التتار من قبل على التحرش بالجيش المصري ومباغتته من الخلف، ولكن تهديد البطل ووعيده قد أثار في نفوسهم ريحاً من الخور فشلت الأقدام عن الحركة، وجمدت السيوف في الأكف، وباؤوا بخذلان من الله كبير.

وفي رحاب الأردن بين التلال الناهضة والوديان الهابطة لدى عين تعرف بعين جالوت تقابل المسلمون والتتار في أحرج موقف تعرض له الباغون منذ اندلعوا كاللهيب العاصف في بلاد الشرق، وقد رأوا أوسمة المماليك الذهبية، وحللهم الغالية وخيولهم الصافنة ورماحهم المحلاة فحسبوا جميع ذلك لقمة سائغة وغنيمة باردة، ونسجوا الأحلام الساحرة لأنفسهم إذ يمتلكون وادي النيل بجنانه الخضر، وسهوله اليانعة، ثم اندفع الفريقان كالأتي المزبد في معركة دامية، وحمل التتار على كتائب مصر حملات عاصفة فردوا الحرس السلطاني إلى الوراء، واختل توازن الجيش الإسلامي لحظات، ولكن القائد المظفر قصد إلى القلب بجميع قوته وقد حشد عزيمته العاتية وطلق حنجرته العالية يصيح: «وا إسلاماه وا إسلاماه» صيحات استجاشت همم المجاهدين البواسل فغمر تيارها الكهربي أرواحهم الظامئة للشهادة، واندفعوا إلى أعدائهم غير مبالين، وتوالى الطعان والضراب في زلزلة مرعبة راجفة!!. والتتار

مذهولون لما يشاهدون، فجنودهم يتساقطون، وصوت القائد المظفر يدوي ـ وا إسلاماه ـ فتنخلع القلوب من الرعب، ويمد جنوده بمدد سماوي متلاحق، ثم تنجلي المعركة العنيفة وقد فضحت التتار فضيحة نكراء فهاموا على وجوههم مشردين في الآفاق، وذاقوا مرارة الهزيمة الماحقة لأول مرة في تاريخهم الدموي الرهيب، وقد سقط القائد العظيم إبان المعركة من فوق فرسه ولكن عناية السماء أدركته فوثب وثبة طائرة على فرس آخر تنحى عنه صاحبه في لحظة بارقة وحمل الراية مستميتاً مستبسلاً ثم تتبع الفلول الهاربة بجنوده فأباد منها خلقاً كثيراً، وقتل القائد التتري «كتبغا» وبعث برأسه إلى القاهرة فضج المصريون بالفرح والهتاف وأقيمت الرايات والأعلام، وشعر كل مصري يعيش على ضفاف النيل أنه صاحب هذا النصر العظيم. .

أما بلاد الشام فقد احتفلت بالملك المظفر احتفالاً بهيجاً ودخل دمشق في موكب هز به الإسلام أعطافه، واختال في جنبات السعد والإقبال، ولكنه لم يشمخ بما تم على يديه، بل سجد شكراً لله، وعفر وجهه في التراب مرات ومرات!!. وكأني به وقد شعر في أعماقه بارتياح منعش حيث أقر عيون المسلمين بالنصر، وانتقم لأسرته الشريدة في خوارزم، وخلد في صفحات التاريخ ذكراً لا تمحوه الأيام!!.

وهنا تقف طويلاً معي لتسمع خاتمة هذا البطل الفدائي العجيب بعد أن تم نصر الله على يديه، وترى كيف تتجمع السحب القاتمة لتطمس نوراً يشع وتمحو كوكباً يتألق. لقد ذهب هذا الفدائي الباسل ضحية مؤامرة دنيئة، فقد ائتمر عليه منافسه «الظاهر بيبرس» مع فريق من أعوانه المغرضين بعد أن وعدهم بالمناصب والأوسمة فانهالوا بحرابهم المسمومة عليه في لحظات صفائه، وخر مضرجاً بدمائه، وكأنه لم يكسب نصراً حمى به الإسلام من وحوش كواسر ذات مخالب وأنياب. . . وكان الأولى بالظاهر أن يذكر أن مليكه الشهيد قد أسلف إليه يداً خالدة إذ أنقذه من مخالب الموت حين خاف من الملك الناصر وكتب إليه يسأله الأمان، فقادته النخوة العالية وتقبل رسالته بقبول حسن، ودعاه إلى مصر ثم توجه إلى لقائه وأنزله بدار الوزارة وجعله قائد جيشه ثم أقطعه (قليوب)، وتلك المنن العجيبة في تسلسلها الرائع لم تجد مكانها من قلب بيبرس. . مع أن الإنسان عبد الإحسان.

لقد نسي الظاهر منة قطز عليه!. . وكان في مقدروه أن ينبذه نبذ النواة فيهيم

على وجهه في الفلوات، وأعجب شيء أنه وجد من المؤرخين من يبرر غدره الشنيع فيقول: إن الملك المظفر قد وعده ولاية حلب في أثناء المعركة ليشد أزره ثم أخلف وعده متشككاً في طويته!!. فلاقى جزاء خلفه... أفيكون ذلك تبريراً سائغاً يجيز الغدر والاغتيال.. لقد أنعم السلطان عليه بعد المعركة ببعض الغنائم ليستل سخائمه فتظاهر برغبته اللئيمة في تقبيل راحته ثم اندفع إلى الرجل المسالم الأعزل بخنجره المسموم يمزق أديماً حشوه همم وعزائم، وأقبل أعوانه من خلفه يحطمون أشلاء تحمل أطيب العناصر، وأكرم الخلال وهكذا يكون المصير.

لقد قضى السلطان المظفر أقل من عام في حكمه، ولكنه دخل التاريخ من أوسع أبوابه حين حمى الإسلام في «عين جالوت»، وكان موفقاً كل التوفيق، إذ كسب بصيحته الخالدة «وا إسلاماه» نصراً تعذر على الجبابرة والعتاة!! ولعمري لولا الإلهام الرباني يدوي صارخاً فيهدي القوة إلى الضعيف، والشجاعة إلى الجبان، والإقدام إلى المحجم ما كسب السلطان هذا النصر المؤزر في حومة الجهاد، فما أجدرنا أن نصيح في أزمات الخطوب وحوالك النذر: وإسلاماه!!

الظّاهِر بيبرس

قاهر التتار والصليبيين

يتمتع الظاهر بيبرس بشهرة شعبية مستفيضة، فقد خلعت عليه أساطير البطولة حللاً زاهية، وتفنن الخياليون في إسباغ العظمة والفتوة والإعجاب على شخصيته الجذابة، فهو من هذه الناحية كالمهلهل، وعنترة، وسيف بن ذي يزن الذين كثرت أنباؤهـم كثرة باعدت بينها وبين الواقع، حتى لقد نسب إلى أحدهم أنه حارب الجن، واستأثر بممالك الأرضين السبع، ومهما يكن من شيوع هذه الأنباء وكثرتها فإنّ دلالتها على البطولة تستمد عناصرها الأولى من كفاح مرير شاق قام به هؤ لاء الأبطال في دنيا الواقع ثم شاء الخيال أن يجسمه تجسيماً يتكامل به إغراؤه الجذاب.

وعلى كثرة ما يروي الخياليون عن بطولة الظاهر فإن كتب التاريخ الواقعية تقصر تقصيراً ملموساً في عرض هذا البطل وكان الأولى بجهوده أن يتضافر كثير من الكتّاب على تحليلها وإيضاحها تمام الإيضاح، فالظاهر بمحاسنه ونقائصه شخصية عجيبة نادرة، ومجال الحديث عن بطل مغامـر جبار مثله لا يخلو من لذة وطرافة، وسنحاول أن نلقي بعض الأضواء على أعماله الرائعة دون أن نقابله بالتصفيق الحاد والهتاف الرنان!..

لقد نزح الظاهر رفيقاً مسلوباً من شواطىء بحر قزوين، وبيع في دمشق لبعض الأمراء وليس له من وسامة الوجه، وائتلاق الصفحة ما يشجع على امتلاكه، فقد رفضه بعض السادة بعد اشترائه!، لكن الوسامة لم تكن في يوم ما ميزاناً صحيحاً لتقدير الرجل، وإذا لم تبد المرآة قسامة جاذبة فقد جلت جبهة ضيغم رئبال، وكان الظاهر في جميع ما قام به رئبالاً مخاطراً دوت بجهوده المحافل، وأسلم الرعب نفوساً جبارة قاهرة كانت لا تتوقع هزيمة مواتية أو تفكر في فرار قاهر محتوم..

وقد بدأت مواهب البطل في أدواره الأولى من حياته ونطقت ملامحه وأعماله بما يمتلك من جرأة واستبسال، فاختاره الملك الصالح رئيساً لإحدى فرق الحرس الخاص، ثم طار في المناصب طيراناً حتى أصبح بعد أمد قصير قائداً لفرقة المماليك البحرية، وفي الناس من يتولون المناصب اللامعة فلا يزدادون بها مكانة ونفوذاً، ولكن فيهم من يخلق من منصبه ولو كان متواضعاً مكاناً مرموقاً تتطلع إليه الأبصار.

وقد كشف الظاهر في قيادته عن عزيمة فدائية باسلة، وتألق اسمه في عدة مواقف فرضت شخصيته فرضاً على النفوس، وخلعت عليه المهابة والإكبار.

وإذا تأملنا أعمال هذا البطل نجد أن المغامرة وحدها أساس ركين ترتكز عليه عظمته.. فقد وقر في نفسه أن يستهين بالموت، ويطرد عن خاطره كل خوف يصدر من ناحيته، فهو لا يحرص في أحرج مواقف البأس على حياته، بل يتقدم إلى الموت الأحمر غير مبال بما سيكون.. وقد ابتسم له الحظ كثيراً فكانت مغامراته المجنونة ترجع عليه بأحسن العواقب، وهي بذلك تتأصل وتعمق ويزداد بها الرجل إيماناً واعتداداً، وهي أيضاً بما تضم من الدهشة والغرابة تبعث على الحب والتقدير والعجب، وهكذا حرص البطل على الموت فوهبت له الحياة..

وأول ميدان نفذ فيه البطل خطته الجريئة كان بالمنصورة أمام الصليبيين الغزاة، فقد احتل الفرنسيون دمياط وتقدموا إلى القاهرة عن طريق البحر الصغير، ووجدوا من الخونة من يمهد لهم الأسباب، فيدلهم على المنافذ والمعابر لقاء عرض زائل تبدده الأيام، وتمضي بلعنته الأجيال، وقد ماجت القاهرة واضطربت لهذا الغزو المفاجىء، وزحفت الجيوش الإسلامية إلى المنصورة والملك مريض طريح، والجنود في حاجة إلى القيادة والعتاد، وكان لويس التاسع قد تقدم الغزاة ليضرب المثل بنفسه في التضحية والاستبسال، فوقف الماء حائلاً طبيعياً بين الغازي المهاجم والشعب المدافع، وفجأة وعلى غير انتظار أو توقع عبر الصليبيون النهر واندفع أشجع فرسانهم الكونت «دارتوا» شقيق الملك ووراءه كتيبة مستبسلة لتهب كالعاصفة تدميراً وقتلاً واستئصالاً، ونظر المصريون فإذا العدو يعصف بمن يعترض طريقه، وإذا الجثث تترامى والرقاب تتطاير وتسقط معفرة في الرغام، والذعر يدب في الأجسام دبيب الكهرباء.. فلا تستقر بموضع أو تجتمع على لقاء..

وفي الميدان الأول لبطولة الظاهر تدركه روح المغامرة وتعصف بصدره الحمية، فلا يبالي بهذا المارد العملاق يحمل سيفه الموشى بالذهب، وتتألق في صدره الأوسمة البراقة، ويباركه النصر في صولته المفاجئة، فيتهادى على الجواد الأشهب ذات اليمين وذات الشمال، أجل هنا تثبت روح المغامرة فتدفع الظاهر إلى امتشاق حسامه والإسراع على رأس فرقته إلى مقاتلة الأسد المتحفز ذي الزئير الصاخب والأجم المنيع، ونظر الكونت «دارتوا» فإذا إعصار يفاجىء إعصاراً، وإذا الظاهر يغامر بحياته فيندفع إلى الصفوف كالمجنون وقد تعلق بصره بالفارس المحجل فعلاه بسيفه وهوى على رقبته بضربة قاتلة ماحقة.. فاندحر الفرنسيون إذ أبصروا قائدهم الباسل يرتمي على الأرض ووراءه حاشيته المستبسلة صريعة مجندلة فقد ركب المصريون أقفيتهم ووثبوا وراء بيبرس يقتلون ويصرعون.. وكانت مغامرة باسلة أذهلت لويس التاسع فوقف يذرف الدموع الحارة على شقيقه الصريع.. ويتسمع الأنباء

عن بطل مصري مغامر فاجأ الإعصار بإعصار أعتى قوة وأعنف استئصالاً، وعرف الجميع مكان القائد الشاب فعلقته النفوس ونيطت به الآمال. .

وقد انهزم الفرنسيون هزيمة منكرة، وولوا على أعقابهم مدحورين وكان مظنوناً أن يتبوأ بيبرس بمصر مكاناً لامعاً يتفق مع ما أسداه إليها من انتصار، ولكن مطامعه الشخصية حالت دون ذلك، فقد تآمر واغتال، ولم يشأ أن يرد البيوت من أبوابها، وهذه نقطة الضعف في تاريخ الرجل، لأن البطل الذي لا يتخذ من الخلق الرفيع دستوراً يسير على نهجه لا يحتل المكان المرتقب في باحة التاريخ الصحيح. والمقياس الخلقي لأعمال الأبطال مقياس دقيق ينخفض به كثير من القيم الخادعة أو هو ـ بعد ـ المقياس العادل الذي نزن به من نكتب عنهم من الأفذاذ، ولو أجمع المؤرخون على الاحتكام إليه والاعتصام به لهوت أقدار عالية، وانخفضت مكانات سامقة لأناس كسبوا المجد البراق عن طريق الوصولية البغيضة والميكافيلية المنكرة. .

وقد ضاقت مصر بما رحبت على الظاهر ففر إلى بلاد الشام وخدم ملوكاً وأمراء كثيرين، وقد زين إلى صاحب الكرك أن يستولي على القاهرة، وما زال به إغراءً وتعليلاً حتى أقنعه إقناعاً تجاوز الاعتقاد إلى العمل فبعث جيشاً كبيراً في طليعته بيبرس ودارت معركة حامية بين كتائب إسلامية تتصارع في غير ميدان، وتسير إلى غايتها تحدوها المطامع المألوفة، والأحقاد المتأججة، وقد انجلت عن هزيمة للمغيرين، وارتداد الجيش الغازي إلى قواعده مثخناً بالجراح.

ولم تكن النتيجة اللازمة لارتداد الجيش المتهجم غير الندم والأسف المرير، فقد تجرع بيبرس كؤوساً أليمة، وضاقت به الشام كما ضاقت مصر به من قبل، وقد أعمل فكره فرأى أن يكتب إلى نائب السلطنة في مصر يستأذنه في القدوم إليها طائعاً عاملاً، وكان جميلاً من (قطز) أن يرحب به، ويفتح صدر الكنانة لكمي باسل دافع عن حريمها المباح بالمنصورة، ثم يقطعه القطائع ليستلين منه قناة شديدة لا تزال تيبس وتعسر متحجرة متصلبة، وفرح بيبرس بعفو (قطز) عنه، وخف إلى مصر وفي نفسه مطامع تدب، وفي صدره آمال تجيش.

وشاء الله أن تصطدم مصر بصخرة عاتية تنهال على رأسها انهيالاً مفزعاً مروعاً، فقد زحفت جيوش التتار عاصفة ماحقة، وانتشرت كالوباء المبيد تكتسح آلاف الأبرياء من سكان خوارزم وبخارى وسمرقند وكرمان، فإذا احتلت بلدة أو عاصمة فالذبح والسلب والاستئصال، حتى كانت ميازيب الأسطح تسيل بدماء القتلى كما تتدفق بغيوث السماء. . .

وواصل الوباء الزاحف سيره إلى بغداد فأسقط الخلافة العباسية، وذبح آلاف المسلمين ورمى بالذخائر المقدسة إلى قاع الفرات، حتى قام من الكتب الملقاة جسر هائل يعبر عليه الناس، وكانت مأساة كبرى لعاصمة الخلافة، ومحنة قاسية للمسلمين المحزونين،

فانتشر الرعب والفزع في جميع البقاع، وتوجست ديار الشام من شر يوشك أن يقع، وكانت الإشاعات المسمومة تنفث حمامها القاتل في النفوس، فرقصت حلب ودمشق وسائر المدن الإسلامية على بركان ثائر يقذف بالحمم، ويرمي بالحتوف، ولم تشأ الأهوال أن تتريث قليلاً، بل زحفت عاجلة إلى بلاد الجزيرة فالموصل، ثم إلى حلب ودمشق وديار بكر وحمص. . وبات الخطر قاب قوسين أو أدنى من مصر، وقد أخذت الأنباء الصاعقة تفت في الأعضاد وتوهي العزائم لولا أن قيض الله لمصر ملكها العظيم (قطز) فجمع الأمراء وعبأ الجنود، وتقدم الجيش إلى لقاء التتار في «عين جالوت» ولم يكن التتار يتوقعون كفاحاً مريراً كما فاجأهم المصريون، فقد ألفوا أن يستعينوا أولاً بالإشاعات المغرضة، والدعايات المسمومة فإذا اشتبك الفريقان تقدموا في جنون حائر لينتزعوا القوة من خصومهم بما يظهرون من تهور واستئصال، ولكن روح المغامرة تتجلى في بطلين عظيمين. .

تتجلى في «قطز» الذي يقف في القلب، وفي «بيبرس» الذي يقوم على الميسرة، ودار الموت الأحمر في ساعة حمي بها القيظ ولفح الهجير، أما التتار فقد عمدوا إلى القلب ليستأصلوا الرأس المدبر، وأما نصر الله فقد أيد أناساً صدقوا ما عاهدوا الله عليه فتراجع (قطز) قليلاً ثم اندفع بجيشه كالمجنون وانقضت معه الميسرة بقيادة بيبرس. . وأظهر المغامران حمية مجنونة لا تعبأ بالحياة فتكسر التتار مندحرين لأول مرة، ووقف قائدهم كتبغا ينظر مدهوشاً مأخوذاً، فعاجله بيبرس بهجوم ماحق أطاح برقبته فهوت تبعث الخور والضعف واليأس!! ماذا حدث يا رباه؟! لقد اندحرت الوحوش الكاسرة على أعقابها وتعقبتها الكتائب المصرية إبادة وإفناء!! ودوى في العالم لأول مرة صوت ينبىء بهزيمة التتار. . وجاء نصر الله والفتح المبين.

ولكن ماذا وراء كل هذه؟. . لقد عادت الأنانية المريضة إلى بيبرس، فتآمر على (قطز) في الطريق، وصعدت روح الملك الشهيد الباسل إلى ربها تشكو صارخة ما اقترفه مغامر لاجىء قدم إلى مصر طريداً فأمنه (قطز) من خوف، وأغناه من احتياج، وقد قيل: إن الملك الشهيد ـ كما سبق أن ألمحنا إلى ذلك ـ كان قد وعد الظاهر بإمارة حلب ثم ضن بها عليه، فكان نصيبه الاغتيال، ومهما يذكر في تبرير هذا المصرع الغادر فإننا نراه مسبة نكراء وجريمة شنعاء، وقد كان له رنين حزين في آفاق الأمة الإسلامية، وكانت فاجعة الشعب المصري أليمة حين خرج لاستقبال الجيش المنتصر طامعاً أن يرى قائده الباسل (قطز) يتوجه بوجهه المتهلل وقامته الفارعة فإذا الخيانة تفوح. . منتنة خبيثة وإذا النفوس تغص بوجدها الدفين، وإذا الضلوع تتقد بالحقد والكراهية، وإذا بيبرس يتقدم الجيش موزعاً الأسلاب مخرساً الأفواه، وإذا النصر الباهر ينعكس في أعماق القلوب جراحاً فاغرة وناراً ذات إحراق. .

لقد قلت في مقدمة هذا البحث: إنا لن نقابل أعمال بيبرس بالهتاف الحاد والتصفيق الشديد، لأننا نتذكر في كل سطر من السطور جريمته الشنعاء مع قطز فننقبض عنه انقباضاً موحشاً، ثم نتذكر بعد ذلك ما أسلفه الظاهر للإسلام من مجد حين أصبح ملكاً مرموقاً يحارب الأعداء في كل مكان، فيعز علينا أن نغمض الطرف عن فتوحه وأياديه، وهو يعد من الذين خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيئاً، فجدير بنا وقد عرضنا صحيفته السوداء، كما خطتها كارثته الدامية، أن نعرض له صحفاً بيضاء تشع بالعزة والكرامة، وهو بعد إنسان يحلق ويسف، وإذا لم يكن قدوة عالية في السلوك الإنساني فحسبه أن يكون مثالاً خارقاً للبطولة النادرة والفداء الساحر، وإذا أمكن التقيد بمبادىء الخلق الرفيع في حياة بطل فذ كعلي بن أبي طالب أو عمر بن عبد العزيز أو نور الدين محمود وغيرهم من أبطال الإسلام فهـؤلاء أناس قاربوا الشقة بين الواقعية والمثالية حتى اتحدتا فيهما اتحاداً يبعث الدهشة والإعجاب فليكونوا مثلاً تحتذى. . ولينهضوا على الأحقاب ألوية تخفق، ومنارات تلوح!.

لقد تولى بيبرس الحكم وأمامه عقبات متجمعة تحتاج إلى دربة حازمة، وكياسة فائقة، فالشعب المصري حزين متألم لما فوجىء به من مصرع ملك عزيز، والأمراء المناصرون لغريمه الشهيد يتربصون به الدائرة، ويمهدون لمطامعهم تحت ستار الثأر والإباء، وهناك غير هذين شرور وأعباء، هناك الصليبيون يربضون على سواحل الشام ينتظرون الفرصة السانحة لقتال المسلمين والتحرش بالمصريين، وهناك الغاصبون من التتار ممن تئج في صدورهم الأحقاد، ويرمض جوانحهم أن يتذكروا أهوال الجيش المصري وما جلبه عليهم من شرور بمكانتهم الساحقة، وجعلتهم في أعين الناس بشراً يهزمون وينتصرون، بعد أن كانوا أبالسة من الجن لا تقوم أمامهم الحواجز ولا تنهض دونهم السـدود، وهناك الإسماعيليون الناقمون يظاهرون العدو ويعتصمون بعدة الغرماء من تتر وصليبيين، ولهم من قلاعهم الحصينة ومكايدهم القاتلة جنة سابغة ودرع لا تقده السيوف. وهناك في الشرق والغرب غير هـؤلاء جميعاً نفوس تتألم لما تقوم به مصر من أمجاد، فلا يفتأ أصحابها ينصبون المكايد ويرصدون الفخاخ، ولا بد من عمل حازم سريع، ولن تنفع القوة وحدها في مواجهة الصعاب إذا لم تسندها سياسة حصيفة ماهرة، وقد تجلت كياسة «بيبرس» في استئصال هذه الصعاب تجلياً باهراً كتب له الخلود والنجاح، وجعل الدنيا كلها تتحدث عنه، وتنسج له من الأساطير غرائب عجيبة يتوارثها الناس حتى تم له الفوز الساحق، وإن إنساناً يكابد هذه المآزق المتراكمة المتجاورة، ثم يسير في طريقه فلا يتعثر بمأزق حتى ينجو منه، مجتهداً في استئصاله ومحقه، إن إنساناً يواجه هذه المآزق المتراكمة ثم ينتصر عليها انتصاراً باهراً تدوي به الدنيا وتترنم به الأساطير جدير حقاً بالرفعة والخلود!.

لقد بدأ الظاهر في استرضاء الجبهة الداخلية من خصومه المسلمين، وهم المصريون المتألمون لمصرع «قطز» من ناحية، والأمراء المغرضون ذوو المطامع السياسية والأهواء الطامحة من ناحية أخرى، فأما المصريون فقد بادر باسترضائهم فأبطل جميع ما أحدثه «قطز» من الضرائب والمكوس، وكان الملك الراحل قد اضطر إليها لمواجهة أعباء الحرب والنهوض بما تتطلب من عدة وعتاد، فانزاح عبء ثقيل ناءت به الكواهل حيناً من الدهر.

وسار الظهر بيبرس خطوة ثانية فأحضر المماليك البحرية المتفرقين في أنحاء مصر يعيثون فساداً في الأرض، ويمعنون سلباً في الأموال، وحصرهم في القاهرة لا يبرحونها لغير حاجة داعية تحدد زماناً ومكاناً بقدر معلوم، فسد بذلك على الناس كوى يتساقط منها الشر كل آن، كما اهتم بالنظام الإداري الحازم فأعد مطافىء الحريق وأماكن الإسعاف، وهيأ البريد الدائب المنتظم، وأدخل نظماً جديدة تتبع في مجالس القضاء والحكم. . لتعود على الرعية بالأمن والاطمئنان، وأقام مقاييس النيل، وأنشأ الجسور والمعابد مخصصاً من يقوم على حراستها بأجر معلوم، واهتم بالصناعة حربية ومدنية فاستغلت عدداً كبيراً من العمال العاطلين، وأقام الأسواق التجارية على سنن خاصة في الاستيراد والتصدير فعاد ذلك على الأمة برغم حروبها المتواصلة بالرفاهية والرخاء. أما الأمراء الذين شقوا عصا الطاعة عليه في دمشق وحلب والكرك فقد أخذهم بالحيلة تارة، وبالقوة تارة أخرى.

وكانت الأصقاع النائية عن مصر لا تكاد تعترف للرجل بولاية شرعية صحيحة، فرأى أن يعيد الخلافة العباسية ليكسب من تعضيدها قوة تجمع القلوب، وتخرس الشفاه، ومن ثم سعى سعياً حثيثاً إلى استدعاء أمير عباسي ذي حاشية وأتباع، فاستقبله بمصر استقبالاً كريماً، وأقام حفلاً بهيجاً جمع عليه القوم من الأمراء والأعيان والعلماء، وتلا نسبه العباسي مجمعاً عليه من عرب ثقات، وقد بالغ الظاهـر في احترام الخليفة الجديد احتراماً أكيداً أمام الناس، فقدمه على نفسه في الدخول إلى القلعة، وجلس دونه في المكانة، وضرب النقود باسمه، وطبيعي أن يقوم الخليفة بعد هذا الاستقبال الرائع بمباركة الظاهر، والدعوة إلى تأييده، وأن يخلع عليه حلة السلطنة ليكون سلطاناً شرعياً يستمد رياسته من الخليفة العباسي، فلا ينحرش به أمير أو يتبرك بحكمه أتباع. وتلك خطة حفظت للظاهر ملكه فقطعت السبيل على كل متمرد ثائر. .

والعجيب أن الظاهر خاف على سلطانه من إنسان صنعه على عينيه وأمده بقوته، فحبسه في مكان خاص، وعاق أمراء الدولة ووجهاءها عن رؤيته كي لا تتأثل به الصلات، وتمتد معه أسباب الوداد، فيصبح ذا خطر حقيقي يعز به ويذل، مما يؤكـد أن الخلافة المصطنعة مناورة سياسية ماهرة حفظت حق الظاهر وأيدته، ولكنها سلبت سلطتها المباشرة. . فأصبحت بريقاً خادعاً، وسراباً يحسبه الظمآن ماء دون ارتواء، وإذن فقد تغلب

«الظاهر» بما صنع على المنازعات الداخلية، وكفى نفسه أضرار طابور خامس يصنع داخل الصفوف المتآخية ما يصنعه العدو الخارجي بجيشه المتجمع، وعتاده الكثيف، وعليه الآن أن يتجه إلى عدويه الحقيقيين: شراذم الصليب الرابضة بالشام، وكتائب التتار المتأهبة على ضفاف الفرات، ففي هاتين الجبهتين يكمن الخطر الحقيقي على الإسلام، وفي هاتين الجبهتين يضع «الظاهر» تاج البطولة الظافر على رأسه الأشم!..

فقد بدأ بمناورة الإمارات اللاتينية، فجاءت رسل أنطاكية تطلب الصلح على شروط معتدلة قبلها الظاهر بارتياح، ولكن الغدر الشائن يكمن خلف هذا المظهر الخادع، فإن الصليبيين يحرصون على كسب الوقت بالأخذ والرد، في حين يتأهبون لهجوم تفد أسلحته من أوربا دون انقطاع، ولم تمض أيام حتى نقضت العقود، وأخل أصحاب الشروط بما تعاهدوا عليه من التزام أكيد، فلم يكن بد من النزال الماحق دون رحمة أو استعطاف، ولهذا جرد البطل جيشاً سار هو على رأسه إلى عكا، وكانت محاطة بخندق يحتمي به الصليبيون ويستظهرون بقلعتها، مرسلين نبالهم وسهامهم إلى الجيش المغير، وقد أغلقوا الأبواب، وأقاموا المتاريس، وأخذوا لكل طارىء عدته الواقية، ولكن «بيبرس» تمكن من ردم الخندق، وحمل حملة مستميتة على الأبواب، فانفرجت انفراجاً يـؤذن بالوبال الصارم ينصب على الأعداء، وتعرض الصليبيون لمذبحة مروعة عاد إثمها المنكر على قوم من أهل الكتاب لا يرقبون في مؤمـن إلاً ولا ذمة..

وقد دارت المعركة الصليبية أكثر من عشر سنوات بين الظاهر وأعدائه حتى انكمش الفرنجة في ساحل ضيق يتربصون بأنفسهم الدوائر، ووقف خليفة صلاح الدين ووارث عرشه بمصر يصل ما انقطع من جهاده المستبسل المرير الدائب، فهو مرة أولى في (قيسارية) يزاحم الفدائيين من «الهوسبتالين» مزاحمة مجاهدة مرهقة.. فـهؤلاء المتعصبون ينذرون أنفسهم للموت، استجابة لوعود أكدها أسقف موتور، فيدفعون بأنفسهم مستيئسين وخلفهم نساؤهـم يقدمن أزواجهن ضحية رخيصة هينة طمعاً في جنة يباركها يسوع المسيح!، هـؤلاء الفدائيون يرون في جيش الظاهر موتاً حاضراً، فتتراجع فلولهم على أعقابها، ويتقدم الجيش الإسلامي متوجاً بالنصر فيقطع القطائع، ويفرق الأسلاب والغنائم، وقائده منه بمنزلة الرأس من الجسم، يدبر ويشير ثم يثب ممتلئاً عزيمة وتصميماً!.

وهو مرة ثانية في «حمص» ينقذها من مخالب (بوهمند) صاحب أنطاكية حتى إذا استتم له النصر، سارع إلى «صفد» فحاصر قلعتها الحصينة ثلاثة أسابيع فتضطر حاميتها إلى الإذعان فالهروب، ناجية بأرواحها دون أن تستصحب سلاحاً أو ذخيرة، وكأنها ترضى من الغنيمة بالفرار لا بالإياب..

وهو مرة ثالثة يثب إلى يافا ويمزقها شر ممزق، ثم يتوجه إلى شمال سورية فيهاجم البلاد المحيطة بها، ويعمد إلى أنطاكية الحصينة لتدور رحى حرب حمراء فاجعة يضطر بها رجال الحامية إلى التسليم وعددهم ثمانية آلاف، على أن يؤمنوا حياتهم، تاركين وراءهم خزي الأبد، ومذعنين لفاتح قاهر عنيد، وقد هزت كارثة أنطاكية أوربا الصليبية هزاً عنيفاً، فباتت تعض بنان الندم على ما تسوقه من خراف واهنة تكابد حتفها الرهيب في الشرق دون أمل تلمح بوادره في ليل حالك بئيس!.

وتوالت روائع الظاهر وبواهره حتى استنزف قوى الدخيل الماكر، وآل أمره إلى الانزواء في حصن أو حصنين فأي جهاد قام به هذا البطل المغامر، وكيف تسنى له أن يصعد إلى القمة السامقة، متوجاً بالنجاح العظيم؟.

تلك هي الجبهة الأولى، أما الجبهة الثانية فجبهة التتار الحاقدة الموتورة ذات الغيظ الكمين، فقد أرمضها أن يقف الجيش المصري بعين جالوت في طريقها إلى غايتها الدموية الرهيبة، وكان التتاريون يحيطون أنفسهم بدعاية خادعة ذات ضباب كثيف، فهم كما يزعمون أنهم لعنة الله في الأرض أرسلها على من غضب عليهم من عباده الآثمين، وهم مؤيدون بنصر يزلزلون به الجبال، ويفجرون البراكين، فحين اندحرت فلولهم المهزومة في «عين جالوت» انكشف ضباب هذه الدعاية الواسعة، وعلم الناس أن التتر أصحاب قوة عاتية أخذت تصطدم بالصخور صخرة وراء صخرة حتى أوشكت أن تتحطم وتنهد، وقد بلؤوا بمحالفة الصليبيين محالفة باغية ليقفوا معهم في صف واحد أمام العدو المشترك الجريء، وقد نفذت نصوص هذه المعاهدة في أكثر بنودها، فإذا التحم الجيش المصري بالصليبيين انبرى له الجيش التتاري في جبهة ثانية ليشتت جهوده، ويبعثر قواه، وإذا ذهب بيبرس لمقاتلة التتار ثار الصليبيون في جبهة مضادة ليردوا ما أسلف لهم الجيش التتاري من يد تذكر بالحمد والثناء! والمصريون بين أولئك وهؤلاء يقدمون من حرب إلى حرب، ومن نضال إلى نضال، وقائدهم أمامهم يضرب لهم المثل بعرقه في النضال، واستبساله في الكفاح، وقد أغار «هولاكو» على (البيرة) وحاصرها ونصب حولها المجانيق، فخف إليها «بيبرس» مغيثاً ناصراً، ودب الرعب في قلوب التتار ففزعوا لرؤية بيبرس، وأسلموا سيقانهم للريح هاربين!..

وقد مات هولاكو وأعقبه نجله (أباقا) فسار على سنة والده في عداء مصر ومحالفة الصليبيين، بل إنه توسع كثيراً في هذا الميدان، فصاهر أمبراطور القسطنطينية وتزوج ابنته، وأرسل الوفود إلى بابوات روما وأباطرة أوربا ليضمهم إلى صفه في الكفاح المشترك العنيف، وقامت بينه وبين المسلمين معارك شديدة كان النصر في أكثرها لبيبرس، ولكنه كان نصراً

غالياً يكتسب في طريق وعر شاق، ولا تقطف ثمرته المستعصية دون نضال مرير، وقد تخللته رغبات خادعة، في الصلح والتهادن كان يضطر إليها الظاهر اضطراراً ليقوم بهجوم مفاجىء على معاقل الصليبيين، ثم لا يلبث أن يشم رائحة الخيانة التتارية ليرتد سريعاً إلى ميدانه الشاق الكريه، وقد أرسل إلى الظاهر أحد أمرائه يذكرون ما يعانون في القتال والمحاصرة من شدة وعناء، فكتب إليهم يقول: إنا بحمد الله ما خصصنا عنكم براحة ودعة، وما أنتم في ضيق ونحن في سعة، وليس بيننا إلا من يباشر الحروب وينقل الأحجار، وقد تساوينا في هذه الأمور وليس ثم ما تضيق به الصدور.

ولعمري تلك رسالة تنطق بالبلاء والجهد، وتصور الكفاح المستميت الذي يقوم به الجيش الإسلامي في كل ميدان حتى ما يجد متنفساً وادعاً يعقب بعض الراحة والهدوء، وصدق القائل: لولا المشقة ساد الناس كلهم!.

وإذا كان تحالف التتار مع الصليبيين منطقاً طبيعياً توحي به الحوادث المتوقعة فإن من الغريب الشاذ أن يتحالف الإسماعيليون وهم بعد مسلمون موحدون مع الصليبيين فيكونوا عدواً ثالثاً يوجه مكايده النكراء إلى المسلمين، ولا تنس أن الإسماعيلية طائفة إرهابية تتخذ من الغدر والاغتيال والمغامرة المجنونة أسلحة ذريعة لتحقيق المآرب وإشعال الثورات، وقد احتال «بيبرس» حتى اقتحم حصونهم وشرد عصائبهم، وضم كثيراً منهم إلى صفه، وكان الأولى بهذا الجهد الجاهد أن ينصرف إلى أعداء الإسلام لو فهم الإسماعيليون أسرار دينهم، وخضعوا لما يوحيه من اتحاد وأخوة، ولكن روح الإسلام قد جهلها الإسماعيليون واستشفها زعيم مغولي هو الملك المسلم «بركة خان» فأرسل جنوده لمساعدة الملك الظاهر ضد ابن عمه هولاكو. وحارب المغول بعضهم بعضاً، لكنهم كانوا فريقين مختلفين. . . فريق لمس هداية الإيمان فاستضاء بنوره، وفريق غرق في الوثنية المظلمة في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ماطر، وابتهج المسلمون بإخوانهم في الدين ابتهاجاً تفتحت به القلوب، وانشرحت له الصدور على حين اكتأب الوثنيون من المغول اكتئاباً خلع النفوس وأظلم العيون، و«بركة» هذا هو الملك العظيم الذي اعتنق الإسلام عن رغبة صادقة، فقد هيأت له المصادفات السعيدة من أطلعوه على القرآن، فأفهموه روح الإسلام ومبادئه القويمة ذات النهج الصحيح كما ألمّ بما يدعو إليه الدين الحنيف السمح من حرية ومساواة وعدالة، وما ينادي به في دنيا الأخلاق العالية من حياة طاهرة يغمرها الصدق والإخاء والأمانة، وقد أدرك هذا الزعيم بفطرته الطاهرة البيضاء تعاليم محمد فصادفت منه نفساً عالية كريمة تدعو إلى الحق والخير والجمال، ولك أن تمتلىء إعجاباً بمثل هذا الغالب المنتصر الذي يعتنق الإسلام عن طواعية واختيار، فلم يفرض عليه بالسيف فرضاً كما يزعم ذلك المتخرصون.

وقد وصلت رسل «بركة خان» إلى القاهرة فاحتفل بهم الظاهر احتفالاً رائعاً، وخلع عليهم خلعاً نفيسة غالية وبعث معهم الهدايا النادرة، بل أمر خطباء المساجد بأن يدعوا للملك المغولي بعد الدعاء لبيبرس على منابر دمشق، ومكة، والقدس، والقاهرة، فانظر كيف يرأب الإسلام قلوباً متباعدة، وكيف يفرق الكفر نفوساً متآخية، بل استمع إلى الملك «بركة» يقول في كتاب أرسله إلى الظاهر: لقد حاربت «هولاكو» الذي هو أخي من لحمي ودمي إعلاء لكلمة الله العليا وتعصباً لدين الإسلام، لأنه باغ، والباغي كافر بالله ورسوله. فيا لها من أخوة صادقة في الإسلام يعتصم بها أتباع الفكرة المحمدية في كل مكان وزمان، وتلتئم بها جراح ناغرة توشك أن تنفجر؛ لولا أن تداركتها رحمة الله بالبلسم الناجع، والشفاء السريع، ﴿واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذْ كنتمْ أعداءً فـألَّفَ بين قلوبِكُم فأصبحتُمْ بنعمَتِهِ إخواناً، وكنتم على شفا حُفْرَةٍ من النارِ فأنقذكُمْ منها﴾.

وقد تكللت جهود «بيبرس» بالنجاح، ففرق شمل التتار، وأصبحوا شراذم تفترق، وتجتمع لتسلب قافلة عابرة أو تحارب في جبهة محدودة، أما أن يتحدوا في جيش كثيف ملتئم يرهب الدنيا بزحفه المتوحش فهذا ما تقادم عليه العهد، وأصبح تاريخاً يسرد، وذكرى أليمة يتردد صداها البعيد!..

ولك أن تقدر عظمة الظاهر ومكانته في الشرق والغرب بعد أن قهر أوربا الصليبية، وبدد طغيان الهمج من المغول، فقد اكتسب مجداً قوياً يجلجل حديثه في الآذان، وانطلق الحداة في بواديهم النازحة يهزجون بوقائعه الغريبة كحوادث رائعة تخال من الخرافة، وهي صدق تلمسه اليد ويراه العيان، وقد رجع ذات مرة من بعض غزواته الظافرة إلى القاهرة فوجد في عاصمة ملكه خمسة وعشرين رسولاً لخمسة وعشرين ملكاً من ملوك الأرض يحملون الهدايا والنفائس، ويطلبون المحالفة والتعاهد بعد أن امتد سلطانه الشاسع الأطراف على إمبراطورية كبيرة يحدها المحيط الهندي جنوباً، والبحر الأسود شمالاً، والفرات شرقاً، وتونس غرباً، وكأني به وقد سبح بخاطره فرأى أن ما تم له من المجد العظيم لم يكن ليخطر على باله يوم قبض على زمام الحكم بمصر متآمراً مع شيعته، بل حين اغتصب صغيراً من بلاد «القفجاق» ليؤ دي رسالة خالدة ويكتب في تاريخ الإسلام صحيفة بيضاء... إنه الكفاح الصابر المرير يسانده الحظ الموفق السعيد، فيؤديان للأمم الناهضة رسالة البعث والحياة.. ويكتبان حديث المجد والخلود لكل عصامي باسل جاهد فظفر، وبنى فشيد، ورجا فتحقق الرجاء.

مُوسَى بن أُبي الغسّان

فارس غرناطة

إننا نعجب بالبطل الكمي إذا قاد الجحافل الجرارة من نصر إلى نصر، وقذف بأبطاله المغاوير في ميدان الدفاع عن العزة فأحرز المفاخر الرائعة بجهادهم المستميت، وتركوا لاسمه الخالد صدى يدوي، وذكراً يتردد، وهو من ورائهم يرسم الخطة ويدير المعركة حتى يقتعد غارب المجد، معتمداً على جنوده الأشاوس، وقواه الهائلة مع ما منحه الله من شجاعة حازمة وعقل مدبر حصيف..

ولكن العجب يتجاوز حده فيصل إلى الروعة والإدهاش حين نرى بطلاً آخر لا يملك من الجنود كتائب متزاحمة، ولا يحرز من الذخيرة كمية متناسبة، بل يركن إلى نفر قلائل من ذوي العزم، ويقف أمام عدد محتشد متكاثر، يمرح في آلاته وأسلحته وقذائفه، ومع ذلك كله نرى البطل المغامر؛ يقذف بنفسه في لجج الموت، ويتصور أن كتيبته المحدودة العدد قوة عاتية فيهجم بها كالإعصار وينقض أمامها كالصاعقة، لا يعبأ بعاقبة، ولا يهتم بموت، بل إنه ليتأكد من الخاتمة الرهيبة، ثم لا يني في اندفاعه عن تلبية نداء البطولة مرحباً بالاستشهاد في سبيل المبدأ والعقيدة، فإذا أبطأ عليه قليلاً طار إليه موفور الكرامة، مرفوع الرأس ليعلم الأجيال القادمة أن الموت في نور الحرية يفضل الحياة في المذلة والاستعباد، وهذا ما فعله البطل الأندلسي العظيم «موسى بن أبي الغسان».

ونحن لا نستطيع أن نعقد موازنة بين هذا البطل العظيم وغيره ممن اعتمدوا في انتصاراتهم على الذخيرة الموفورة والعدد الكثير، فبطلنا المغوار فدائي يطلب الشهادة غير متوقع جاهاً في دولة أو منصباً في مملكة، والآخر رجل باسل تزدحم في صدوره الآمال، ويترقب اليوم الذي يتألق فيه كوكبه على مسرح السياسة والسلطان، وبهذا الأمل المشرق يندفع بجيشه الحافل وعدده المتكاثر، ولئن جاز لنا أن نقدر فيه روائع البطولة وعظمة القيادة فإن تقديرنا العظيم يزداد ويمتد إلى أقصى مدى يتاح لذلك الذي فقد الأمل في أحلك مواقفه، فثبت في الكريهة قدميه ليموت مرفوع الجبين كريم الإباء.

كان موسى بن أبي الغسان فارس غرناطة من أشجع من عرفهم التاريخ من الأبطال، وهو ينتمي إلى أكرم أصول العرب في غرناطة ولهذا فقد أورثه محتده العربي همة عاليةً وإباءً بارزاً

واتخذه الشباب الغرناطي مثلاً نادراً في الفروسية والبطولة، وتطلعت العقائل من وراء الخدور ليشهدنه ممتطياً جواده، في درعه السابغ، وسيفه اللامع، وقد سارت أحاديث بطولته فأرهبت العدو الزاحف، ولو تقدم به الزمن حيناً لاستطاع أن ينقذ الإسلام هناك بكفايته وفدائيته، ولكنه أتى في الرمق الأخير فشاهد الاحتضار الفادح فما استطاع أن يعيد الحياة إلى ميت طريح.

كانت غرناطة في أيامها الأخيرة مصابة بما أصيبت به الأندلس عامة من تنازع المطامع، وتناحر الأهواء واشتداد الفتن والثورات، وتسلط الأجنبيات من بنات النصارى ذوات الضغائن والأحقاد على الصعاليك من الملوك والوزراء، ولئن كان «ابن حزم» قد قال في أيامه: «إنها قضية لم يأت الدهر بمثلها، أربعة رجال يسمي كل واحد منهم نفسه أمير المؤ منين، أحدهم بأشبيلية، والثاني بالجزيرة الخضراء، والثالث بمالقة، والرابع بسبتة» فإن الشر بعد ابن حزم قد تفاقم وتطاير، حتى كادت كل مدينة أن تصبح بنفسها ذات ملك وإدارة وجيش!. في حين أخذ العدو يتجمع ويتآزر، فاتحاً عينيه على المدن الإسلامية ينصب الأشراك ويقيم الثورات، ويبعث الدسائس والأرصاد حتى أفلح في تقويض الصرح الشاهق، فانهار متخاذل الدعائم، مفتت اللبنات، وكان من الحظ الأشأم أن سلمت غرناطة مقاليدها قبل مصرعها الأخير إلى أبي عبد الله بن الأحمر، وهو ملك لم يخلق للقيادة والكفاح، بل انحصرت آماله وانكمشت آفاقه في مدى يحتقره ذوو الهمم والمطامع. ثم هو في الوقت نفسه يرضى بأن يكون آلة مسخرة في يد «فردناند الخامس».. يضرب به ذوي قرابته من المسلمين، فتقوم الثورات الداخلية، وتتزايد الحرب الأهلية ثم يهيىء له ملك الفرنجة محاربة عمه «محمد بن سعيد الزغل» فتنقسم غرناطة الصغرى إلى قسمين: قسم يحكمه أبو عبد الله، وقسم يسيطر عليه عمه. ويهتبل «فردناند» فرصة التناحر الداخلي فينقض أولاً على «الزغل» ويتخلص منه خلوصاً يضمن له السيطرة على بلاده المحدودة.. وإذ ذاك يتابع خطته الماكرة فيزحف إلى غرناطة، وهي يومئذ عزلاء شلاء.. فيهجم عليها هجوم الصاعقة وتحين الساعة الفاصلة لتصطرع القلة المتخاذلة مع العدو الحاقد في قوته العاتية، وبأسه الشديد.

إن سياسة «فرق تسد» تلك التي يستغلها الاستعمار الغربي في عصرنا الراهن ليست وليدة هذا القرن، ولكن جذورها تمتد في أعماق الأجيال إلى مدى شاسع الأطراف يعرفه من يطالع صحف التاريخ، ويلم بالبواعث الأصلية لسقوط الحضارات، وانهيار الأمجاد. ومع أن تاريخ الأندلس في عهد ملوك الطوائف حافل بشتى العظات البالغة والعبر القاسية، فإن هذا الملك الصغير قد أغمض عينيه عما يزدحم به الأفق من غواش دامسة، وأوصد أذنه عما تقدم به الناصحون من رأب الصدع وجمع الكلمة، ولن نعفي مع ذلك عمه من التثريب والملامة، فقد كان عليه أن يكون أشد حصافة وأوسع إدراكاً، فيجنح إلى المسالمة في جو

تحوم فيه النسور الجارحة فوق ضعاف العصافير، ولكنها الأنانية المفرطة التي تقدس الذات وتهوي بالمثل الرفيعة مهما رجفت الأهوال وتطايرت الخطوب.. وها هو ذا «فرديناند» يزحف بخيله ورجله ليمحو العروبة والإسلام من ربوعها الزاهرة.. وليصفع هذين القزمين صفعة أليمة تهوي بهما إلى القاع!! ثم تدور الدائرة فلا تبقى لدى الرجلين غير ذكريات حزينة يلفها الأسى وتكفنها الأشجان..

لقد سارت جيوش العدو إلى غرناطة، وقد حسبتها مائدة حلوة الازدراد، ومنهلاً عذب الورود «ففرديناند» أدرى الناس بتضعضع ابن الأحمر وتخاذله، ولكنه لا يدري أن الأقدار قد اصطفت موسى بن أبي الغسان ليجرعه كؤوس العلقم والصاب، فقد بادر القائد العربي الباسل إلى تنظيم السرايا وتهيئة العدد، وأخذ يقود الكتائب بنفسه وينقض على الجمع المتكاثر مع الصفوة المختارة من جنوده فيثخن ويصرع!! ويظهر من خوارق البطولة ما يفوق الظنون ويعدو الأوهام، حتى تحير «فرديناند» في أمره، وأصبح اسم موسى مثار القلق والفزع من نفسه فهو يعجب لقائد في كتيبة صغيرة يفر أمامه الطوفان اللجب كقطيع متخاذل تفزعه طلبة رئبال جريء..

وإذ لم تجد القوة الطاغية في بأس البطل الكمي فقد عمد العدو إلى حصار غرناطة من كل ناحية، فواجه موسى أزمة اقتصادية حادة كانت أشد عليه من طعن السيوف والرماح، فقد نفدت المؤ ن وتلوت بطون الجياع من الأطفال والنساء والكهول..

ولكنه اعتمد على ذكائه اللماح فوضع بنفسه نظاماً خاصاً لتوزيع الطعام، وقاد الفرق الفدائية من الشباب الباسل للتسلل بين الثغرات واختطاف المؤ ن من براثن الأعداء..

ونظر العدو إلى الكتائب الصغيرة تنقض انقضاضاً طائراً؛ فتخطف المـؤن وتسرع بها إلى البطون الساغبة والأحشاء المنخوبة فتطعم من جوع وتدفىء من برد.. ولم يجد الحصار شيئاً في تضعضع القوى، وانخذال العزيمة كما كانوا يظنون.. وإذ ذاك صمم «فرديناند» على اقتحام أسوار المدينة، وأصدر أمره السريع بالزحف، ولكن عين موسى تمتد إلى خارج الأسوار فتدرك ما طرأ من التجمع والتحفز، ويرى أن يتخذ للموقف عدته، فيجهز كتائبه ويخرج إلى اللقاء دون ما اكتراث بالحشد الزاخر والعتاد الوافر، ودارت معركة رهيبة بين قوتين غير متكافئتين، وأبلى المسلمون بلاءً حسناً فقتلوا من أعدائهم جموعاً كثيرة، ولكن الكثرة الكاثرة تتغلب وتتقدم، فانسحب موسى إلى الوراء، وهو يضطرم غيظاً لما يشاهد، فقد عدم السلاح والرجال إلا نفراً لم تغن شجاعتِهم شيئاً إزاء ما يواجهون من فيضان صليبي يكتسح السهول ويعشي الأنظار، وقد بادر القائد الفدائي فأغلق أبواب غرناطة،

وتراجع ليبحث في الأمر بعد أن تفاقم الشر واندفع اللهيب!!.

لقد اجتمع أبوعبد الله بن الأحمر مع رجاله وأعيان دولته يتشاورون فيما عسى أن يكون، وقد سد عليهم اليأس كل سبيل فشبح الهزيمة يدنو ويقترب، وقد نفدت المؤن، وتراكمت الجثث، وأخذ حاكم المدينة أبو القاسم بن عبد الملك يشرح الموقف على حقيقته، وقد نكست الرؤوس، واندلعت الحسرة في القلوب، وأجمع الحاضرون على أن الشعب لم يعد يستطيع دفاعاً في حومة خاسرة مهلكة، فالاستسلام وحده هو الحل الأصوب للمأزق الضائق. ولئن أقنع هذا جميع الرؤساء ممن يتشاورون فإن موسى وحده ينفرد بالمعارضة، ويرى مواصلة الدفاع مفضلاً أن تفنى قوات المدينة ويصرع أبطالها بعد أن يصرعوا أضعاف عددهم من أعدائهم وإذ ذاك يدفع العدو ثمن غرناطة باهظاً فتتعاظم النكبة، وينقلب نصره إلى مأتم نواح!..

رأي جريء تدفعه غيرة الشباب، ويمليه طموح القائد وفدائيته، ولكنه مرهق عسير لا سبيل لتنفيذه بحال، فقد أقر المجتمعون الصلح، ووفد عليهم رسول «فرديناند» يحمل شروطه المغرية موشاة بوعوده المعسولة، وخداعه البراق، وشروط العدو مقبولة في مثل هذا المأزق البهيم لو تمسك بها صاحبها، فارتبط بما تعاقد عليه من مواثيق، ولكنه يقدمها بيمينه ليمزقها بشماله بعد أن ينتهي التوقيع، وتستسلم المدينة إلى عدوها المغير!!.

قرأ موسى شروط العدو فماذا رأى..؟ رأى سبعة وستين شرطاً تتضمن إخلاص العدو ووفاءه.. فهو يود إطلاق سراح الأسرى من المسلمين والنصارى بلا فدية.. ثم يطمئن العرب على دينهم وأعراضهم وحريتهم مع إجازة من يريد الهجرة إلى بلاد المغرب، كما أنه سيقطع أبا عبد الله بن الأحمر ضياعاً واسعة يعيش فيها بقية حياته.. وعلى المدينة أن تقدم خمسمائة شاب من أبطالها رهينة تضمن الوفاء والطاعة وأن يقسم الملك وكبار القادة يمين الولاء لملكي قشتالة وأرغون!..

قرأ الشروط وابتسم.. فهو يعلم أن هذا الغادر قد نكث كثيراً بما سبق أن تعاهد عليه، فبالأمس القريب عاهد صاحب «مالقة» حتى إذا تمكن منه قذف به في بئر مظلمة رهيبة، ثم ساق المسلمين أرقاء إلى أشبيلية فسلط عليهم الأسنة والحراب، وأقام المشانق والأنطاع، وأجبرهم على الانسلاخ من دينهم العزيز، وانتهك حرمات المساجد وعبث بقوانين الإسلام، وصنع ما يصنع الحاقد الألد، وقد تمكن من غريمه الواهن الضعيف فشرب من دمه، ونثر أشلاءه على الثرى أكداساً فوق أكداس!.

لقد قرأ المجتمعون الشروط وانفرد موسى بالمعارضة، وذهب أبو عبد الله ليسلم مفاتيح المدينة، على حين انطلق موسى فلبس درعه السابغة، وركب جواده الأصيل وأعد

من شبابه الفدائيين كتيبة باسلة تقذف بأرواحها في صفوف العدو، وقد تعاقد الأبطال على أن يقوموا بهجوم جنوني ماحق، فهم قلة ضئيلة لا تلبث أن تتجمع عليهم الكتائب فتعصف بهم في أقرب مدى يتاح، فعليهم ـ وقد صمموا على الاستشهاد ـ أن يدعوا منطق الروية والتدبير، فيعملوا سيوفهم ذات اليمين وذات الشمال طائرين متوثبين ليأخذوا بالثأر الناقم، قبل أن يتهاووا إلى مصارعهم مستشهدين. . وطارت النسور إلى ميدانها الرهيب فكأن إعصاراً يهب فيكتسح الصفوف. . وفتح الفرنجة أعينهم على كتيبة صغيرة تمحق ما تأتي عليه. . وقائدها الباسل يطير من صف إلى صف فينثر الأشلاء ويقطع الرقاب، ولقد تجمع الطوفان العرمرم بعد أن أذهلته روعة المفاجأة وأحاط بالفدائيين مناضلاً مجالداً، وبعد كفاح عاصف مرير صعدت أرواح الشهداء قريرة مغتبطة برضوان الله، أما موسى العظيم فقد اعتورته السيوف وتقاذفته الرماح، فما وجدت من دروعه السوابغ منفذاً تصيب منه مقتلاً يرديه إلا بعد أن ذبح كثيراً من أعدائه وحين تكاثر عليه الجمع قذف بنفسه إلى الموج فاحتضنه النهر دون أن يسلم جثته للباغين. . وكأني به وقد قرّ عيناً بما صنع فودع الحياة وقد أعذر نفسه أمام ضميره، ذلك الضمير الثائر الطموح الذي ارتفع بصاحبه عن ضعف البشرية واستسلامها وطار به أفق ساحق لا تبلغه ذات جناح!!.

واحسرتاه. . لو كان هذا الموقف الخالد لبطل غربي لأقيمت له النصب ودونت في شجاعته الأسفار، ولأصبح اسمه مقطوعة رائعة من أناشيد البطولة تتردد على الشفاه وتصدح بها الأوتار، ولكنا لا نجد من مؤرخي المسلمين من يعكف على دراسة سيرة هذا الفارس الأشم. . إلا كلمات متناثرة تتفرق وتتباعد، فإذا لم يكن مصرعه النبيل الأبي مذكياً للعواطف، وملهباً للأحاسيس، فيخلده الشعراء في ملاحمهم والقصاص في رواياتهم، فأي موقف بعده يتخذ مهبطاً للإلهام وأفقاً للشعاع. . وفي تاريخ الإسلام مئات من الأبطال، قدموا أنفسهم للموت، وهم يدركون نهايتهم الرهيبة، ويرونها رأي العين دون أن يقعد بهم خور أو ينكص بهم إحجام!!، فأين ما كتبه مؤلفو العرب عن هؤلاء؟! إن الذل الاستعماري قد جرى في العروق ودب في العظام، فأصبح الكاتب المسلم يفرد المجلدات الواسعة ليتحدث عن نابليون وجاريبالدي والإسكندر. . ثم يضن ببحثه على بطل ممتاز كموسى بن أبي الغسان لا يكاد يلتفت إليه شاعر محلق، أو مؤرخ محقق أو قصاص أديب.

وقد كان ما توقع البطل الفدائي أن يكون. . فقد غدر «فرديناند» بما أخذه على نفسه وطفق ينتحل الأسباب الظالمة لمحاكمة المسلمين، وأوقد المحارق لإعدام البررة ممن ثبتوا على دينهم، واضطر كثيرون إلى التنصر لساناً لا قلباً، وانتهكت أعراض وذبحت رقاب.

وتسألني أين كان المسلمون في المشرق حين ذاك، وقد صرع الإسلام في الأندلس فما

وجد ظهيراً يلوذ به أو سنداً يحميه.. لقد تطوع بعض الكتّاب بالإجابة على هذا السؤال فأبدى معاذير مختلفة لا تمنع المؤاخذة والملامة، وهي بعد فروض واهية لا تثبت لتمحيص دقيق، أو ميزان مستقيم، فمما لا شك فيه أن العثمانيين وحدهم في قوتهم الباسلة، وسلطانهم المرهوب، كانوا أقدر المسلمين على إغاثة اللهيف ونجدة المكروب، ولكن أفقهم المحدود جمد الدم في العروق فلم تعصف بنفوسهم حمية أو تدفع بمعونتهم نخوة!.

أجل لقد وجد من الكتاب من يبرر تقصير المسلمين عامة عن النهوض بالأندلس من كبوتها الماحقة، فيقول عن أهل المغرب في العدوة: إنهم كانوا في ثورة مضطربة لحروب نشبت بين أفخاذ بني مرين، فما استطاعوا أن يقوموا بواجب الإسلام في نصرة إخوانهم المسلمين في حين احتل الإسبان ثغور العدوة، فحاصروا غرناطة جنوباً وشرقاً بالأساطيل، وشمالاً وغرباً بالجنود! كما يقال في معرض التبرير عن بني الإسلام في مصر وتركيا حديث كله عجب!! فقد زعم الزاعمون أن قايتباي رجل مصر، قد تشاور مع بايزيد الثاني صاحب تركيا على إنقاذ غرناطة، ولكن «فرديناند» أقنع سلطان مصر بوساطة سفيره الماكر «بطرس مارتير» بأن الإسبان يدفعون عن أنفسهم أناساً غصبوا ديارهم ونهبوا أموالهم.. فاقتنع الرجل بما سمع، وآثر السلامة مع صاحبه بايزيد، ولعمري إن كلمة الحق ليجب أن تقال قاسية أليمة في هؤلاء المتواكلين عامة، وفي الأتراك بنوع خاص: فبنو مصر والمغرب قد يلتمس لهم بعض العذر في قلة الحيلة وضعف الجهد، أما بنو عثمان فما كانوا في الواقع يحرصون على ازدهار الإسلام وانتعاشه حرصهم على الغنائم والأسلاب وما يتبعها من السيطرة النافذة والظل المديد، ولو نفذ هؤلاء تعاليم الإسلام فيما ملكوا من الدول وفتحوا من البلاد لأشرقت شمس الإسلام في أماكن يلفها الظلام وتغمرها الدياجير، ولكن مستعمراتهم الواهنة ما كادت تحس تخاذلهم المترنح حتى انتفضت تخلع عنها نير الذل والاستعباد، ولو أنست هذه الشعوب رحمة الإسلام وعدالته في أناس لا يحملون منه غير اسمه لقدست في إكبار دين الحرية والعدالة والمساواة.. وحسبك أن مصر - وهي المسلمة العريقة - قد لقيت من عنت بني عثمان ما جعل أبناءها ينقمون على إخوانهم في الدين ما يلقون على أيديهم من الذلة والاغتصاب.. فما بالك بأمم لم تعرف شيئاً عن منابع الإسلام ومبادئه الكريمة في الرحمة والحرية والمساواة!!. هؤلاء هم الأتراك العثمانيون!.

أما ملوك الإسلام الآخرون في شتى ممالكهم المتناثرة فقد حملوا معهم - في تغافلهم الشائن وتكاسلهم المؤسف - أكبر تبعة توجه إلى إخوة جمع بينهم الدين ووحدتهم المشاعر والأحاسيس، سلام على الأندلس الشهيدة.. وتحية عاطرة إلى روح شهيدها الفدائي موسى بن أبي الغسان في فردوسه البهيج.

الإمام شامل

بطل القوقاز

حين زار الأمير عبد القادر الجزائري قصر «فرساي» شاهد لوحات كثيرة تصور حروبه مع الفرنسيين وتبرز انتصاراتهم واضحة مجلية، فالتفت إلى من حوله من كبار المسؤولين في باريس وقال: لماذا لا تصورون هزائمكم هنا كما صورتم انتصاراتكم كي تصيبوا الحق؟!.

وحين دعي الإمام الشيخ شامل إلى إحدى حفلات القيصرية بروسيا بعد استسلامه جلس بجانب الإمبراطور إسكندر الثاني على المائدة فالتفت إليه القيصر مبتسماً ثم قال: إنني فخور جداً أن أرى في مثل هذا اليوم السعيد رجلاً عظيماً مثلكم في ضيافتي، فالتفت الشيخ شامل إلى جليسه ثم قال:

لو أن شخصكم الكريم كان في أسري وضيافتي لكان سروري أعظم وافتخاري أجلّ.. أرأيت إلى العزة العالية لدى البطلين الكبيرين.. وتساءلت عن هذا النمط من الأفذاذ الذين تحدوا صواعق الحرب ومكتشفات العلم التدميرية فوقفوا بحقهم وإيمانهم أمام الطغيان موقف القريع من القريع وما وهنوا لما أصابهم من بلاء، بل أضافوا إليهم ذخيرة من الصبر والثبات.

لقد هجمت جيوش القيصرية على بلاد الداغستان الإسلامية التي تقع على الضفة الغربية من بحر الخزر، وعلى المنحدر الشرقي لجبال القوقاز متوهمة أن طريق الهجوم معبد ذلول، لأن العالم الإسلامي إذا كان من التفكك والتخاذل، بحيث لا يستطيع أن يحمي عضواً منه فيجب أن تنهار جميع الأعضاء.. ولكن هذه الجيوش وجدت القدر يدخر لها البطل القوقازي المسلم الإمام الشيخ شامل ليؤدي دور عبد القادر في الجزائر، وعبد الكريم الخطاب في المغرب، وعمر المختار في ليبيا، وأحمد عرابي في مصر، بل ليفوقهم جميعاً شدة مراس وقوة احتمال.

على أن من العجب العاجب أن تسجل صفحات البطولة ـ في العربية ـ جميع ما قام

به هؤلاء الأبطال من صراع دون أن تسجل صفحة للشيخ شامل، فقد حاولت أن أعثر على الكثير من روائعه فلم أجد شيئاً ذا بال مما أريد، ولولا بضع مقالات للأستاذ برهان الدين الداغستاني بـ «الرسالة»، وعدة تعليقات للأمير شكيب أرسلان بكتاب حاضر العالم الإسلامي، ما استطعت أن أعد هذا الباب.

لقد تفرد «شامل» وحده بين لداته السابقين بأنه قضى خمسة وعشرين عاماً يكافح القوة الحاشدة، وهي أطول مدة عرفت لبطل إسلامي حارب الاستعمار، وإني لأقرأ آيات بطولته فأعلم أن من الناس من يخيل إلي أنهم ليسوا من فصيلة الإنسان، بل وهبهم الله قوة تتحدى الزمن وتخضع الطبيعة لعنصرها الفعال، وإلا فكيف يقف بطل عظيم كالإمام شامل بأسلحته البدائية أمام القوة الطوفانية خمسة وعشرين عاماً لا يهدأ ولا يستكين.

أذكر أنني قلت في مقدمة ما كتبته آنفاً عن موسى بن أبي الغسان: «نعجب بالبطل الكمي إذا قاد الجحافل الجرارة من نصر إلى نصر وقذف بأبطاله المغاوير في ميدان الدفاع عن العزة فأحرز المفاخر الرائعة بجهادهم المستميت، وتركوا لاسمه الخالد صدى يدوي، وذكراً يتردد، وهو من ورائهم يرسم الخطة، ويدير المعركة حتى يقتعد غارب المجد معتمداً على جنوده الأشاوس، وقواه الهائلة، ولكن العجب يتجاوز حده فيصل إلى الروعة والإدهاش حين نرى بطلاً آخر لا يملك من الجنود كتائب متزاحمة، ولا يحرز من الذخيرة كمية متناسبة، بل يركن إلى نفر قلائل من ذوي العزم، ويقف أمام عدد محتشد متكاثر يموج في آلاته وأسلحته وقذائفه، ومع ذلك كله نرى البطل المغامر يقذف بنفسه في لجج الموت ويتصور أن كتيبته المحدودة قوة عاتية فيهجم بها كالإعصار، وينقض أمامها كالصاعقة لا يعبأ بعاقبة، ولا يهتم بموت، بل إنه ليتأكد من الخاتمة الرهيبة ثم لا يني في اندفاعه ملبياً نداء البطولة، ومرحباً بالاستشهاد في سبيل مبدئه الأصيل . . ». هذا بعض ما قلته عن موسى بن أبي الغسان فارس غرناطة، وإني أقوله اليوم عن الشيخ «شامل» ولداته من أمثال عبد القادر، وعرابي، والمختار، وعبد الكريم! لكي يعلم كتاب التاريخ أن هؤلاء بجهادهم المرير أصدق بطولة من قواد الأسلحة والجيوش وأرباب السفك والتدمير من أمثال الإسكندر، وجنكيز خان، وتيمورلنك، ونابليون . . هؤلاء الذين سخروا القوى المتراصة للعدوان والطغيان . . ونحسبهم في ذلك في طليعة الأبطال.

وبعد فمن هو الشيخ شامل . . ؟ وكيف أدى دوره . . ؟ وما ميدانه الذي شهد روائع بطولته؟ هذه أسئلة كاشفة سنجيب عليها الآن.

بلاد القوقاز؛ كانت تسمى أيام الفتح الإسلامي بلاد الخزر؛ وهي نواح جبلية مرهقة

يسكنها أناس شداد صلاب الأجسام، وقد لاقى المسلمون من لدن عمر بن الخطاب إلى ما قبل نهاية الدولة الأموية في فتحها صعوبات مرهقة عنيفة، فإن طبيعتها الجبلية كانت تتيح لأبنائها من التغلب أكثر مما تتيحه قوة الغازي الظافر، هذا إلى ما جبلوا عليه من القوة الصارمة والبأس العارم، وقد لبثوا أكثر من مائة عام حتى فهموا روح الإسلام وتشربوا مبادئه العادلة، فدخلوا في دين الله أفواجاً، وأصبحوا بعد ذلك أشد الناس حماسة للحنفية المحمدية، وأكثر المسلمين اعتداداً بدينهم الأثيل، وقد تقلبت بهم مظاهر الحكم من قرن لقرن حتى غزاهم السلطان العثماني «مراد الثالث» فاستكانوا لصولة الدولة العثمانية حيناً، ثم نازعها الإيرانيون حكم البلاد حين دب الوهن إلى الرجل المريض، وما زالت بلاد الداغستان تتذبذب بين تركيا وفارس حتى دهمها الغزو الروسي في أوائل القرن التاسع عشر فشمرت للكفاح عن بصيرة واعتداد.

كان أبطال القوقاز لا يهجمون بغضب في مصاولة الأتراك أو الإيرانيين، لأنهم كانوا في اعتقادهم مسلمين مثلهم، ولو أحسن العثمانيون سياستهم في هذه البلاد لجعلوا منها سياجاً يقيهم بلاء القيصرية الروسية فيكونون قوة عاملة في جيش الإسلام، ولكن الطيش التركي اندفع يناوىء بلاداً تشاطره مشاعره وآماله، وتدين بمبادئه ومعتقداته فعمت الكارثة الجميع.

لقد زحف الطوفان الروسي على بلاد عزلاء لا تملك غير سواعد أبنائها، فهبوا عن بكرة أبيهم تحت قيادة البطل الأمير «سورخاي خان» وصدقوا البلاء في معارك حمراء ردت السلاح مغلولاً منكسراً في صدور المعتدين، ولكن المال الخادع شرى نفوساً كثيرة، فهب المغرضون يعلنون أن الروس أصحاب عدالة وحرية ومساواة، ثم أخذوا ينشرون الأراجيف ويبالغون في مقدار سطوة الجيش الروسي وأدواته الجهنمية في الفتك والتدمير متعللين بأن العقل الناصح يدعو إلى مسايرة العدو القوي، وأن السلم أجدى من حرب غير متكافئة؛ ستأكل الشباب القوقازي في غير نجاح، ثم تستسلم البلاد في النهاية إلى فاتحها القاهر العنيد. . واندفع الوصوليون من هؤلاء المرجفين إلى المناداة بصداقة روسيا مع وجوب نقل نظمها في الإدارة والتعليم والجيش سريعاً إلى البلاد، وإرسال البعوث العلمية لترد حضارتها وترجع ثانية إلى شواطىء بحر قزوين فتطلع على الناس برسالة البعث الحضاري الجديد. . ونظر المجاهدون فإذا المال يخدع، والدعاية تعنف وتستشري، والرأي العام حائر متذبذب لا يجد أمامه طريق الثبات والاستقرار، فنهض ذوو الغيرة من المسلمين إلى تزييف ما يقال، وأسرعوا فجمعوا عزائمهم المخلصة تحت قيادة الشيخ محمد الغازي الكمراوي بعد أن استشهد الأمير «سورخاي خان» بأعوام، وكان القائد الجديد عالماً فاضلاً كسابقه إلا أنه لجأ

أولاً إلى إنارة الأذهان وتعبئة النفوس بطريق الخطب والمؤلفات حتى قضى على مركبات النقص لدى بعض المتضائلين المبهورين، وكون كتائب بدائية زحف بها على معاقل الاحتلال وظفر بالاستشهاد بعد أن حدد أهداف النضال في وجوب طرد الغاصب، واتباع الشريعة الإسلامية في تنظيم الدولة ورعاية الحقوق والواجبات، وخلفه الغازي الظافر «حمزة بك» فواصل الجهاد بالرأي والسيف، وجمع القلوب على التآزر والتلاحم في مجالدة الأعداء ثم أدركته الشهادة كزميليه السالفين ليأخذ الراية من بعده المجاهد الباسل الشيخ شامل بطل الأبطال.

لم يكن الأمير «شامل» بعيداً عن المعمعة قبل أن يتصدر القيادة، فقد كان تلميذاً مخلصاً للغازي الكمراوي، قرأ كتبه وسمع خطبه ثم انخرط في كتائبه فداهم معه المستعمرين في وقائع شهيرة جهيرة وفي الجولة الأخيرة التي استشهد فيها الكمراوي كان شامل إلى جواره (٢٨ من أكتوبر سنة ١٨٣٢) فضيق الروس حصار المجاهدين في منزل جبلي، وخرج الغازي مستبسلاً ليفك الحصار فاستشهد، ونظر شامل فإذا أمامه قائده يفوز بإحدى الحسنيين فرخصت الحياة في عينه وخرج من المنزل وسيفه في يده هاتفاً بشعار الإسلام لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله ثم ضرب بسلاحه وحده ذات اليمين وذات الشمال غير مكترث بما سيكون... وذعر الروس لهذا المارد الذي انبثق وسط جموعهم من الأرض فجأة وفتك بمن حوله ممن وقع عليهم السيف، فخاف الجبناء واندحروا ووجد البطل نفسه وحيداً فابتسم، غير أنه لمح الكتائب تتجمع بعد ذهول المفاجأة لتصده فلاذ بالفرار وظل الأعداء يتابعونه بالسهام والقسي إلى أن أصابته قذائف نافذة أسالت دمه، فلم يلتفت إلى جرحه الغائر، وواصل العدْو مجروح الكتف والصدر والظهر حتى التجأ إلى مغارة أكنته وامتدت به العلة ثلاثة أشهر كان حمزة بك في أثنائها قد تولى القيادة فارتاح الجريح لمواصلة القتال وقرّ عيناً، حين أيقن أنه أدرك ثأر أستاذه بما صرع سيفه من أجناد!، وأخذ يتماثل للشفاء فما تم له على أيسر وجه حتى أصبح رفيق القائد الجديد وصاحب مشورته إلى أن لقي الله فتطلعت الأنظار إليه فصدق الظن وأعلن الكفاح.

كان «الشيخ شامل» قائداً بعيد النظر، فقد أدرك للوهلة الأولى أنه أمام قوات جرارة لا ينقطع لها مدد، ولديها من السلاح والعتاد والقوة ما يكفل لها إخماد أي وثبة تنتفض.. وهو في موضعه من القيادة لا يجد لديه غير أناس يؤ منون بحقهم على قلة في العدد، وضآلة في المعدات، ومن سبقه من الزعماء لم يستطع أن يدير الأمر إدارة شاملة، فليس هناك فرق لإعداد المتطوعين، ولا مصانع للأسلحة، ولا خزانة لتوفير المال وتهيئته، وكل ما لديه جماعة متحمسون عزموا على النضال دون أن يأخذوا للحرب أسبابها الدافعة للنجاح، فواجه

الخطر في ميدانه، وملك عليه أقطاره الشاسعة كيلا يفلت من المجاهدين الزمام. . ومن ثم فقد أقام معسكرات للتدريب، وحدد السن المهيئة لحمل السلاح، وعين الضباط من المدربين، وفرض المال والطعام لمن بذلوا أنفسهم للجهاد، ثم اهتم بالناحية المالية فأنشأ بيت المال على غرار النظام الإسلامي في صدر الإسلام، وقسم الغنائم متقيداً بآية الأنفال: خمس لبيت المال، وأربعة أخماس للمجاهدين والمحاربين، ولم يغفل الناحية الدينية، بل جعلها مصدر الحماسة الدافعة، إذ عين الوعاظ والمرشدين وأرسلهم إلى الأقاليم والدساكر يشجعون على الجهاد ويتلون آيات الدفاع والقوة، ومن ورائهم قضاة الشرع وجباة الزكاة ونواب الأمير يعيدون الخلافة الراشدة بالنصح للرعية والمساواة بين الناس وإقامة حدود الله واتباع هدى الإسلام. . ونظر القوقازيون فإذا البطل القائد حازم يقظ، بعيد النظر، يريد أن يقف على أرض صلبة قبل أن يقتحم الميدان، فنهضوا إلى تأييده من كل فج، وسرهم أن يشهدوا بأعينهم قيام حكومة إسلامية في الداغستان ظلت أكثر من ربع قرن تحت قيادة شامل تنفذ أحكام الشريعة، وتعد للأعداء ما تستطيع من قوة ومن رباط الخيل، وتعلن أن الحياة كفاح، وأن الشهادة في نصرة الحق مفخرة خالدة في الدنيا، ورضوان من الله في دار الإسلام.

وكان لهذه الإدارة الحازمة أثرها القوي في اندحار الأعداء حتى اضطر القائد الروسي المحنك «كرف» أن ينسحب بقطيعه الصاخب محتمياً بقلعة (شورا) في يأس وخذلان، وسرى نسيم الفوز عبقاً فواحاً فقوى العزائم، ودفع اليائسين إلى رحاب الأمل فأصبحوا يؤمنون بمهارة شامل وكفايته. . ويعلمون عن يقين أنه ربان السفينة في بحرها الصاخب المواج! أما الروسيون فقد طار طائرهم ولم يصدقوا في موسكو وما حولها أن القائد القوفازي يستطيع بنفر ممن حوله أن يهزم جيوش الإمبراطورية القيصرية ذات اللجب والضجيج. . واندفع شعراء الروس ومن بينهم (تولستوي) نفسه إلى تمجيد الجيش الروسي ليبعثوا فيه عزائم الأبطال فلا يلطخ تاريخ بلاده باندحار مشين.

وكأن القوم أرادوا أن ينهوا الحرب بالخديعة فبعثوا إلى الأمير شامل يعلنون إليه أنهم يعتبرونه أميراً على بلاد الداغتسان ومن حقه أن يحكم البلاد، على أن يعترف بالسيادة الروسية، وينهض إلى (تفليس)، فيقابل الحاكم الروسي، ويوقعا معاً معاهدة سياسية تنص على الاعتراف بحق البطل في الإمارة مع قبوله السيطرة الخارجية للإمبراطور الروسي إسكندر الثاني. وقد ضحك الشيخ الباسل من آمالهم الكاذبة، وأعلن أنه الأمير الشرعي للبلاد، فقد تولى القيادة بعد أن بايعه جميع المسلمين منذ اغتيل أميرهم حمزة بك. . وهم بعد أصحاب الأمر، وقد وسدوه إليه دون أن يحتاج إلى اعتراف غاصب دخيل، يحاول أن يبسط سيطرته بأساليب منكرة من العدوان!

وقد جاء الرد الصريح صدمة مذهلة لمن توقعوا أنه في عدده القليل وأزماته المتكررة سيميل إلى الإذعان، ومن يقرأ رسائل الأمير وكتبه يدرك مدى إيمانه بحق بلاده، وسخطه على الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فهم في رأيه (كفار) يحاربون الإسلام في أحد معاقله.. ولا بد لأبناء الحنيفية من النضال حتى ينحدر العدوان وهو إذ يبتدىء إحدى رسائله إلى بعض أعزائه يقول:

«من أمير المؤمنين شامل إلى والده الأعز جمال الدين، أما بعد فلقد وقع بيننا وبين الكفار وقائع وحروب لم يقع مثلها إلى الآن في ديار داغستان يومي الأحد والاثنين بالمدافع الكبار والصغار، ونصرنا الله تعالى وأيدنا تأييد النبي ﷺ، وخذل أولئك الملايين أينما توجهوا ورجعوا مقهورين بحيث لا يرجعون إلى ديارنا بعد، فحمدنا الله وشكرناه، ولعل هذا بسبب بركات دعواتكم وخشوعكم وتضرعكم والسلام..».

على أنه في غمرات ضيقة قد اتجه إلى البلاط العثماني ليمده ببعض العون في قتاله المرير، ولكن خاقان البحر والبرا ورئيس وزرائه الصدر الأعظم وأرباب مشورته من ذوي الحذر والخذلان لم يكونوا من المروءة والقوة بحيث تتحقق فيهم الآمال فصموا وعموا، ورجع رسول الأمير دون طائل.

وإذا كان لنا أن نأخذ من التاريخ عبرة فلننظر الآن على ضوء فجائع الاستعمار في بلاد القوقاز، والهند، ومصر، والجزائر، والمغرب، والشام، كم يكون لهذه الدول مجتمعة متحدة من البطش والنفاذ إذا شعر كل إنسان أنه عضو في جسم واحد، كما قال نبي الإسلام، وهل كان نداء «شامل» يذهب بدداً إذا كانت دول الإسلام متماسكة متآلفة، فيحارب وحده دون نصير، ويبطش بيده دون حسام!

هذا وقد رأف الله بالبطل الفدائي فساق إليه من المسلمين من أجاد صناعة المدافع، فظهر لأعدائه مسلحاً بمثل سلاحهم الرهيب، ولئن بذل في تهيئته فوق طاقته وطاقة بلاده من المال والجهد فقد كانت ثمرة البذل شهية رائعة، إذ أوقعت الذعر من جديد في قلوب الروس، ونشط الزعماء الجراكسة من حوله فكتبوا إليه بالولاء، ودعوه ليخلص بلاد الجركس من أعدائهم وأعدائه، ولم تشأ أريحيته الباسلة أن تخيب رجاءهم فيه فاجتاز نهر «ترن» بجيشه ومدافعه، ورحب الجركسيون بالبطل الوافد ترحيب الشقيق بالشقيق.. ولكن الروسيين تنبهوا للخطر الداهم، إذ لم يعد كفاح «شامل» مقصوراً على بلاد الداغستان وحدها، بل إن الإمارات الأخرى ستنحاز إليه معتصمة ببأسه العنيد.

وكان الأمر أصعب من أن يحتمله عدو خسر في سبيل استعماره عشرات الآلاف من

الأجناد فاستغاث القائد بالقيصر، وجاءه المدد المزيد كالطوفان فحاصروا البطل في رحلته وقطعوا عليه جسور النهر، ودوت المدافع المسعورة الحاقدة في طلقات لا تنقطع، وكان الموقف فوق طاقة «شامل» إلا أنه جاهد وكافح حتى استطاع بعد لأي أن ينفذ بقوته، وكانت مهارة قائد مدفعيته «الحاج يحيى» مضرب الأمثال في الاستماتة والفداء، وقد وجدت من يلومون الأمر على سرعة إجابته لإخوانه الجركسيين دون أن يحسب للمستقبل حسابه العسير. . والحق أن الرجل لا يلام لأنه قد تعود النصر في بلاده، فرأى أن يجرب حظه في أرض سواها، ولعله كان يحاول أن يجمع الكلمة ليقف بالمسلمين صفاً واحداً فجاءت الريح بغير مشتهاه، على أنه لم يهدأ برهة بعد عودته، بل استعد لمعارك فاصلة أحرز فيها الانتصار، واتسع سلطانه على البلاد ومن بينها ما أشار إليه الأستاذ برهان الدين الداغستاني، نقلاً عن مجلة الرسالة (٧٢٩) حيث قال:

«اتسع نفوذ الشيخ شامل في بلاد الداغستان وسارت بأخباره الركبان وكثرت مصادماته الناجحة ضد الروسيين. . وفي أوائل صيف الخريف في اليوم العاشر من محرم عام ١٢٨٠ = ١٨٥٣ قام الشيخ شامل بحركة جريئة أوقعت الرعب في قلوب حاميات الروس ببلاد القوقاز كلها، ففي ذلك اليوم ساق سيلاً عظيماً من قواته ومدفعيته واجتاز بها حدود بلاد الكرج، وحاصر قلعة «زنطة» حصاراً محكماً قوياً، واضطر حاميتها إلى التسليم في النهاية ثم بعث البعوث والسرايا إلى القرى المتناثرة في تلك الجهات فأغارت عليها وأخذت الأسرى وغنمت الأموال الكثيرة ثم رجع إلى مقر قيادته داخل حدود الداغستان بعد أن قتل من الأعداء نحو (٢,٠٠٠) قتيل، وأسر نحو (٨٩٤) أسيراً، وغنم من الأموال والأسلحة مقداراً عظيماً، وكان بين الأسرى الجنرال (جوجوزه) قائد حامية زنطة وبين السبايا زوجته وبنته وكثيرات غيرهن من كرائم العقيلات وبنات الأشرف فبقي هؤلاء الأسرى عند الشيخ شامل نحو تسعة أشهر حتى تبودلت الأسرى في مشهد عظيم بعد بضع مفاوضات، وأخذ شامل أموالاً كثيرة فداء للأسرى الزائدين، والسبايا من النساء والأولاد، وكان يوماً مشهوداً عم فيه البشر الجميع».

وكان المظنون بالشيخ شامل أن يوالي هجماته بعد هذه الانتصارات، ولكن حرب القرم وضعت أوزارها سنة ١٨٥٦ وكانت بين الروس من ناحية والحلفاء من الأتراك والإنجليز والفرنسيين من ناحية ثانية وبانتهائها تفرغت روسيا لحرب الرجل، فجهزت قوة عسكرية من ستين ألف مقاتل، وقذفت بهم إلى القوقاز مع ما يستطيعون حمله من المدافع والبارود والخيل، فثابر البطل وجالد، ولكن كثيراً من أتباعه كان قد أرهقهم النضال في مدى ربع قرن دون أن يصلوا إلى قرار، فرأوا أن يركنوا إلى المسالمة بعد أن أصابهم البلاء

وأكلتهم السنون بحروبها الجائحة وفجاءاتها الدامية، وانتشر الوصوليون من جديد ليتحدثوا عن حرب الإبادة التي تعتزمها روسيا في بلاد الداغستان حتى تصل إلى رأس شامل، وأخذ الذهب يتدفق دون حساب فيأخذ ببريقه أبصار طائفة من المخلفين الذين يقولون في كل زمان ومكان: شغلتنا أموالنا وأهلونا، فإذا وجدوا الغنائم مع الأبطال صاحوا صيحة السابقين: دعونا نتبعكم.. وها هم أولاء يرون الذهب في غير كفة «شامل» فأقبلوا عليه متهافتين، على أن يبذلوا الثمن في توهين النفوس وإضعاف العزائم، وقد حوصر البطل محاصرة عنيفة في مقر قيادته بالقلعة، ولكنه جاهد بالقلة القليلة حتى فك الحصار ثم اعتصم بمن بقي معه في قلعة (غوينب) وهم ثلاثمائة بطل أمام ستين ألف طاغ يحكمون الحصار ويتظاهرون بالمدفع والبارود، وجاء قائد الحملة الروسية يطلب التسليم من الشيخ فاشترط عليه أن يبقى على من معه من المجاهدين والأبطال مع من يلوذ بهم من النساء والأطفال، وكان لا بد مما ليس منه بد، فسلم الأسد نفسه تسليم الشجاع الصنديد بعد أن أدى واجب البطولة وحفظ الكرامة الإسلامية، إذ أبى على نفسه أن يقول القائل: «سلمت البلاد دون دفاع» ثم ألقى سلاحه مكرهاً بعد خمسة وعشرين عاماً لم تخل فيها ساعة واحدة من عناء، وسافر إلى روسيا فقابله القيصر مقابلة الشجاع الباسل الصنديد، ولكنه عمل على احتجازه داخل البلاد كيلا تتاح له فرصة سانحة للتجمع والوثوب، فظل قرابة عشر سنوات معتقلاً في مدينة «كالوغة» يعاني الغربة والشيخوخة والأسى، ولكنه يروح عن نفسه بالتلاوة والصيام، ويتأسى بمن أوذوا من قبله في الله فيستشعر نسمات العزاء..

ثم أذن له الحاكمون بأداء فريضة الحج فانتقل إلى الحجاز بعد أن طاف في أثناء سفره بكثير من عواصم الإسلام فشاهده إخوانه، ورأى من احتفائهم به واهتمامهم ببطولته ما صادف لديه موضع الارتياح، ولقد اختار المدينة المنورة سكناً طيباً فظل بها حتى آثره الله بجواره في ٢٥ من ذي القعدة سنة ١٢٩٧ (٢٨ من مايو سنة ١٨٧٠) ودفن في البقيع الطاهر بجوار قبة العباس عم رسول الله ﷺ، فانضم إلى الرفقة المختارة من أبطال بدر وأحد، والقادسية واليرموك، مع الذين أنعم الله عليهم من الصالحين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً. ذلك الفضل من الله..

الأمير عبد القادر

بطل الجزائر

كان من سياسة الدولة العثمانية أن تسيطر سيطرة مطلقة على أكثر الممالك الإسلامية دون استثناء، فهي تجمع في قبضتها القوة الغالبة دون أن تتيح لهذه الممالك أن تعد من الجيوش ما يكون عوناً لها في الشدائد، وكان الوالي العثماني يصل إلى مقر عمله مع حامية من الأتراك تكفي لإرهاب الناس وتخويفهم دون أن تحفظ أمناً أو توفر عدالة، بل إنها كانت في أكثر الأحوال مبعث الاضطراب بما تثيره من إغارة على المتاجر، ونهب للأسواق، وليتها إذ حتمت سياسة الإضعاف الحربي بالشعوب الخاضعة؛ طوعت لها بأن تأخذ في تكاملها الطبيعي، لكي تساعد على رقي العلوم والفنون والصناعات بها رقياً يدفع إلى التقدم الحضاري، بل صممت على سحق ما يبعث هذا الترقي واجتثاث جذوره، فحين جاء السلطان سليم مثلاً إلى مصر؛ وشاهد ما بها من التقدم المعماري، ومن بها من المهرة في الصناعة والهندسة والبناء أمر بتقويض هذه الذخائر الرائعة في دنيا الفنون والتشييد، ثم حملها إلى الآستانة مع من يقوم عليها من المهندسين وحذّاق الصناعات، وكان من آثار ذلك كله أن أصبحت الشعوب الإسلامية ضعيفة واهنة لا تجد الجيش المدافع، ولا العلم المسعف، ولا الفن الملهم، وتطلعت الأمم الغربية إلى انتهابها بغياً وعدواناً حين رأت «الرجل المريض» في درجة من الإعياء لا تسمح له بأن يصون عاصمته فقط، فضلاً على ما يسيطر عليه من ممالك كثيرة لا تحسن أساليب الدفاع إذا هاجمها العدوان، ولو أن الدولة العثمانية نظرت إلى هذه الممالك نظرة الأخوة المنصفة ما تركتها من الهوان والضعف في حالة متهافتة تطمع فيها كل راغب، ولجعلت منها درعاً واقية لها قبل أن تكون قوة غالبة ترهب الأعداء، وهكذا أضاعت سياسة العثمانيين شعوب الإسلام إضاعة عادت على المسلمين في مدى قرنين أو أكثر بالتفكك والانحلال.

هذه مقدمة موجزة أذكر أني قرأت ما يشير إليها من زمن بعيد بأحد أعداد الرسالة للكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ أحمد رمزي، وقد حاولت الرجوع إليها الآن لأنقل من كلام الرجل بأسلوبه الرائع ما يقوم بالبسط الشافي والتحليل الناقد فلم أوفق إلى تاريخها المحدود، وهأنذا أشير إليها الآن لتكون تمهيداً طبيعياً للحديث عن البطل الخالد عبد القادر الجزائري كما فعل الأستاذ الكبير.

لقد كانت الجزائر أحد هذه الشعوب المستضامة التي جردها العثمانيون من كل سلاح، حتى تطلعت إليها فرنسا بعد أن ضاعت ممتلكاتها الاستعمارية في الهند وأمريكا، وبعد أن فشل نابليون في احتلال مصر، ورأى الفرنسيون أن يتجهوا وجهة أخرى تمكن لهم أن ينهبوا بعض الشعوب المستضامة نهباً ينكره الخلق الحر، ويأباه الضمير النبيل، وقد كانت الجزائر أول دولة في المغرب تتلقى الضربة الأولى وحدها أمام العاصفة، مؤدية ضريبة الشعوب الأبية في عزم قاهر وإصرار عنيد.

لقد أفاق الشعب العربي في الجزائر صبيحة يوم ١٩ من يونية سنة ١٨٣٠ على نذير فاجع يعلن نزول القوات الفرنسية في مرسى سيدي فرج، إذ هجم القائد الفرنسي على البلاد دون إنذار موجه، وصوب مدافعه إلى الآمنين من السكان، واحتل بعض البلاد القريبة، وملأ البحر بسفنه وأساطيله، والأرض بحديده وناره، ولم تستطع حامية تركيا أن تثبت لحظة واحدة إذ ذاك، فآثرت التسليم وانسحبت آمنة وادعة إلى الآستانة لتخبر بما كان فقط فلا تجد لدى السلطان وأشياعه غير السكوت والاستخذاء.

ولكن الحمية الإسلامية تتحدى الموت فتتكالب الجموع محتشدة مصممة على الدفاع، وتنازل بأسلحتها البدائية قوات منظمة حذقت أساليب العدوان، وتأهبت له بأحدث ما أنتجته أوربا المعتدية من ذخيرة وعتاد، ومع اندحار العرب المستبسلين أمام طلقات المدافع المتتالية وفوهات البراكين المتفجرة، فقد صمموا على مواصلة القتال، وقد آلمهم أن يلتفتوا ذات اليمين وذات الشمال فيجدوا جميع إخوانهم لا يحسون بكارثتهم الدهماء، وإذا أحسوا بها فلن يجدوا لديهم من القوة ما يسعف بالمعونة والإمداد.. حتى الدولة العلية ـ كما كانت تسمى ـ قد أصمت أذنها عن كل نداء، وكأنها ترى العدوان حقاً مشروعاً لا يدفع إلى المقاومة والنضال.

وقد أحسن الجزائريون الظن بسلطان مراكش فبايعوه ملكاً على بلادهم ليسارع بجيشه إلى إنقاذهم، وأنّى له، وهو الآخر ضعيف لا يملك وسائل الدفاع عن نفسه، ومع ذلك ثارت في نفسه الحمية بعض الوقت فاستعد للنزال وهيأ جيشه للكريهة، ولكن تحذير فرنسا له أرهبه وجعله يؤثر التراجع، تاركاً إخوانه يواجهون وحدهم مصيرهم المرير، وشاء الله أن يهبهم قائداً جريئاً، وشاباً غيوراً يستعذب الموت ذياداً عن بلاده، وحفاظاً على عروبته وإسلامه، ذلكم هو الأمير البطل عبد القادر الجزائري ذو التاريخ الفواح والروائع الخالدات.. نشأ الأمير الشاب في أسرة محترمة ذات رياسة روحية يلتف حولها الناس مكبرين لائذين، فأبوه محيي الدين عالم روحي ورع يقود بلده إلى مراشد الخير والفلاح ويدعو إلى شريعة الإسلام وهديه الحميد، وهو رجل سخي الكف كثير العطاء يجد لذاذته

النفسية في إطعام الوفود واستقبال اللائذين، وقد نشأ نجله في كنفه فأنهله موارد الثقافة الإسلامية منذ شب عن الطوق، فحفظ القرآن، وروى الحديث وتأدب بأدب السلف الصالح من صدور الفضيلة وأعيان الأدب، كما ظهرت موهبته الشعرية مبكرة فكان ينظم القصائد البديعة ويتدفق لسانه بالسلسل العذب من البيان الرائق، هذا إلى ما اتجه إليه من ممارسة ضروب الفروسية بأنواعها الذائعة في عصره من ركوب الخيل، وإرسال النبال والقسي ومصاولة الرماح والسيوف في مواقع الأهوال، ثم طمحت به أشواقه إلى الرحلة في دنيا الإسلام، فسافر مع أبيه لأداء فريضة الحج وانتهزها فرصة سانحة لرؤية بلاد التوحيد، فنزل مصر وشافه وجوهها وعلماءها وأمضى بدمشق زمناً ليس بالقصير، ثم اتجه إلى بغداد بعد أن أدى الفريضة الواجبة في البلد الحرام، وظل يتنقل في مدى ثلاث سنوات مع أبيه بين ديار إخوانه وذوي اعتقاده حتى رجع يحمل ذكريات طيبة عما شاهد، وقد درس التاريخ الإسلامي على مدى عصوره السالفة في شتى عواصمه من أموية وعباسية وفاطمية، ولا شيء كالتاريخ الإسلامي يطفح بالبطولة فيلهم الرجولة والاستبسال.

وقل أن يتاح للعالم الباحث أن يكون شاعراً سباقاً، إذ إن الذهن المثقل بثمار المعرفة يعوق جناح الشعر عن الانطلاق والتحليق في أرحب الآفاق، فيجيء شعر العلماء هادئاً ورتيباً، ولكن الأمير من هـؤلاء الذين خرجوا على القاعدة فنظم الشعر بقوة وإبداع فجاء شعره سليماً من شوائب عصره، فليس به البديع المستكره، ولا التصنع المتكلف وإنما ينهج نهج ذوي الأصالة من صدور العصر الأموي والعهد العباسي، ولو أنصف مؤرخو الأدب لجعلوا الأمير رائد التحرر من البديع قبل أن يظهر البارودي في مجال الأدب بسنوات، ولكن شهرة البارودي جعلته ينتزع زيادة التركيب الحي، والنسج المتلاحم في الشعر، وهي مسألة تحتاج إلى نظر جديد، ولك أن تسمع بعض أبيات الأمير كشاهد لما نقول:

تسائلني أم البنين وإنها	لأعلم من تحت السماء بأحوالي
ألا فاسألي جيش الفرنسيين تعلمي	بأن منايا هم بكفي وعسالي
ومن عادة السادات بالجيش تحتمي	وبي يحتمي جيشي ويمنع أبطالي

وقوله:

ومن عجب صبري لكل كريهة	وحملي لأثقال تجل عن العد
ولست أهاب البيض كلا ولا القنا	بيوم قصير الهام للبيض كالغمد
ولا هالني زحف الصفوف وصوتها	بيوم يشيب الطفل فيه مع المرد
وأرجاؤه أضحت ظلاماً وبرقه	سيوفاً وأصوات المدافع كالرعد

فليت شعري أفي هذا النظم جناس مستنكر أو طباق مستثقل أو أثر من آثار الأدب

الملوكي الذائع في عصر عبد القادر. . ؟ وإذا كان نظم الأمير على هذا المنوال فلم يسجل له ذلك في ميدان التقدير وهو بعد: الأمير العالم، والشاعر البطل الجريء.

تولى الأمير الشاب قيادة بلاده وهو في الخامسة والعشرين من عمره، بعد أن ظهرت مواهبه الحربية في الموقعة الأولى مع الفرنسيين. . وقد كانت الآمال متجهة إلى تولية والده الشيخ، ولكنه آثر ابنه بالقيادة، إذ رأى في شبابه وحفاظه وإيمانه ما يرشحه للنصر المنشود. . وإنها لتبعة مرهقة نهض بها البطل على أرهب طريق وأخشاه!.

كان القائد يدرك خطورة موقفه، فهو يعرف أن الدولة العثمانية لا تستطيع أن تغني عنه شيئاً، وأن الشعوب العربية من حوله لا تجد من القوة ما يسمح لها بمؤازرتـه في محنة الجزائر، كما يعرف أن الدولة الفرنسية قد حشدت جحافلها الجرارة ومبيداتها الساحقة مستعينة بما أتيح لها من حديث المكتشفات في ميادين الحروب، وما تمرس به «مارشالوها» من أساليب القتال على احتلال شعب مسالم أعزل لا يوحي مظهره السلبي بمقاومة جادة!! أدرك الأمير هذه الخطورة إدراكاً تاماً، ولكنه لبى نداء البطولة حين تحمل تبعة القتال، فكان مثله مثل الشهم الأبي يرى النار تندلع في بيته وتحاصر أولاده وذويه فيقدم على اقتحام اللهيب لإنقاذ ما يستطيع إنقاذه وإن داهمه الخطر من كل مكان. . على أن الله عز وجل قد أخزى الباطل على يده فاستطاع بإيمانه الصابر أن يشتت شمل الدخلاء في معارك فاصلات!.

لقد نازل الجنرال «بويه» منازلة حامية، فاستطاع أن يطارده من معاقله الحصينة إذ قسم جيشه العربي إلى فرق مختلفة، ووقف في الطليعة يتحدى القذائف الصاعقة دون مبالاة حتى اضطرت فرنسا إلى عزل «بويه» وتعيين الجنرال «ديمشيل» مكانه! وكأن القائد الجديد أراد أن يثبت كفايته فحشد جميع قواته ليواجه بها البطل الشاب مواجهة تقضي عليه، ولم يكن يدور بخلده أنه سيقف أمام جيش باسل يخضع لقيادة فدائية ماهرة، فما اشتبك الفريقان حتى أخذت ظنون «ديمشيل» تخيب، وواجهه الفشل من كل مكان، إذ إن سرعة عبد القادر وقدرته الباهرة على التجمع والالتفاف والانسحاب وفق ما يوحي به الموقف من مفاجآت، هذه القدرة الباهرة أحبطت مكايد القائد المعتز بمهارته، فجمع مستشاريه ليناقش الموقف في ضوء ما رأى من الثبات، ومال الرأي بأصحابه إلى مهادنة البطل، فسارع بتوقيع معاهدة «ديمشيل» الشهيرة، وبمقتضاها تعترف فرنسا مقهورة بسيادة الأمير على جميع العمالة الوهرانية، وتوجب له الحق أن يعين قناصله في كل مكان، وأن يستورد الأسلحة من أي مكان يريد، وقد كان ذلك نصراً حاسماً للأمير، إذ أصبح صاحب الحق الشرعي في البلاد، وامتد سلطانه إلى أماكن متناثرة في الجزائر، لأن طبيعة البلاد تباعد ما بين المدن في الساحل الجزائري، فكان هذا البعد مما يصعب تجمع الوطنيين، وإن أتاح لهم في بعض

الأحوال أن يعتصموا بالمغاور والكهوف.

اعتقد الأمير أن الهدنة مع الأعداء لن تدوم، إذ إنهم اضطروا إليها اضطراراً ليجمعوا جنودهم في معركة مقبلة متجنبين ما تورطوا فيه من أخطاء، ومن ثم أعد للموقف عدته، وأرسل مبعوثيه إلى المدن المختلفة يجمع السلاح ويجبي الزكاة، ثم رتب جيشاً منظماً على أحدث ما وصل إلى سمعه من نظام الدول المتحضرة، واهتم بالفرسان والمشاة والمدفعية، ثم رأى أن يستعين بإخوانه الأقربين من بعض الضباط في تونس ومراكش وتركيا، وهم قلة من الأفراد شاءت لهم كرامتهم أن يخفوا إلى الجزائر مناضلين، فكانت لهم أعمال التدريب الحربي في دروس مرتبة مستوفاة، ولم يغفل عبد القادر وضع قانون صارم للجيش يوضح قواعد الترقي ونظام المرابطة ويعين الرتب ويمنح الأوسمة.

ولو وجه الأمير كل اهتمامه إلى هذه الناحية لاستنفد الوقت الطويل، ولكنه اهتم معها بشؤون الزراعة والتجارة والتعليم، وأقام المخازن لادخار الحبوب والأقوات، وفرض العقوبات المجزية على المحتكرين ومروجي الإشاعات، ومهما يكن من شيء فقد أنشأ دولة وهيأ جيشاً واستعد للمستقبل بما يستطيع!!.

وقد كان الظن بجميع القبائل العربية والبربرية أن تبذل جهدها الجاهد في مناصرة الأمير، ولكن المال الرخيص استطاع أن يجذب إلى فرنسا نفراً من الوصوليين لا يخلو منهم زمان أو مكان، فاحتالت لكي تستميل إليها قبيلتي الدوائر والزمالة، فاستعد البطل لمحاربتهم، وكتب إلى الجنرال الفرنسي «تريزيل» مطالباً بتسليمهم، فهم بحكم المعاهدة السابقة من أتباعه. ولكن الاستعمار كان ينتهز هذه الفرصة ليغضب الأمير بالرفض، وينقض المعاهدة في قحة فاشتعلت الحرب فجأة، وسار البطل بجيشه الباسل ليحرز الانتصار في معارك متتابعة أخذت تتوالى دون انقطاع، فلم تفته معركة دون أن ينجلي معدن عبد القادر كالذهب الخالص بين اللهب!

فلقد وقف في موقعة (خنق النطاح) بين الصفوف الأولى يحث المجاهدين على الثبات، ويدعوهم إلى التقدم من خلفه، فحمل عليه فارس فرنسي برمحه يريد أن يلتمس منه مقتلاً صائباً، ولكن الرمح مر من تحت إبطه دون أن يصل إليه فشد عليه الأمير في سرعة نادرة وهوى بسيفه على كتفه فقده نصفين! فأشعل بذلك عزائم الجزائريين. وقد حاول المستعمر أن ينتقم فهجمت كوكبة ثائرة على البطل في ميدانه ولكنه ثبت لها مع أصحابه ثبات من لم يبال بالحياة، فقد طعن فرسه الباسل ثماني طعنات بحراب العدو، ثم رماه أحدهم بالرصاص فوقع صريعاً، وترجل البطل في مكانه حتى وجد فرساً آخر امتطاه واندفع يشجع المسلمين. وكان فقهه الغزير وإدراكه البصير لتاريخ الصدر الأول من رجال

الإسلام يسعفه بعبارات التحميس والتشجيع، فهو يخطب في وسط المعركة ليذكر الناس ببدر وأُحد والأحزاب، ثم يندفع إلى المعمعة مردداً أسماء علي وحمزة، وخالد، وسعد، وطارق، وأبي عبيدة. . فيكون لحديثه من التأثير ما يفوق عتاد العدو وذخيرته، وقد بلغه ذات مرة أن المشاة نفد عتادهم من الرصاص فبادر إليهم بما يكفيهم منه وقذائف العدو تهوي فوق رأسه في ذهابه وإيابه، ولكن ثقته بالله كانت تدفعه إلى الموت ليصدق القتال.

وإذا كان الفضل ما شهدت به الأعداء فإن الداهية الإنجليزي الشهير المستر تشرشل كتب تاريخ عبد القادر كتابة تحفل بالدهشة والإعجاب لما أبداه الأمير من استبسال، فسجل وقائع انتصاره تسجيل المأخوذ وكان مما قال:

«إن أعمال الأمير كبيرة جداً إذا قورنت بسنه، ولكنها صغيرة بجانب ذكائه الفريد، فقد احتاجت فرنسا إلى مائة ألف عسكري لتقف في وجهه عدا الإمدادات الخارجية والمساعدات الأدبية مع أن الأمير البطل لم يكن حوله غير عشرة آلاف من الوطنيين أكثرهم لا يعرف كيف يستخدم السلاح».

ثم يقول بعد أن يذكر سرعته النادرة ونشاطه الفائق في حرب العصابات: «لقد عجب الفرنسيون من شجاعة هذا البطل، وظهوره فجأة واختفائه سريعاً وفق ما يتطلبه الموقف، وقد سمعت جنرالات كثيرين يدهشون لبراعته وسرعته في الوثوب والاختفاء، وقد كان ذا شهامة حية، فهو يحسن معاملة الأسرى ويخصهم بالشفقة والمرحمة، بل إنه كان يكافىء من يأتيه بالأسير حياً مكافأة طيبة، هذا إلى أن والدته كانت تعنى مثله بالأسيرات عناية تنسيهن المحن والأرزاء، وقد جاءه مرة أحد أعوانه بأربع من أسيرات النساء فحول وجهه عنهن في شهامة وقال كلمته المأثورة: «الأسد يقنص الحيوان القوي، أما ابن آوى فيقع على الضعيف».

هذا وقد أغنته الحيلة الماهرة غناءً حميداً، فكان يرسم الخطة الداهية لا تكلفه غير اليسير لتترك وراءها خسارة فادحة في جموع المحتلين، نظر ذات مرة موقعة فرأى جيوش الأعداء تسد السبيل أمامه، وقد نصبوا خيامهم وشرعوا مدافعهم وتأهبوا لمصاولته، وليس في مقدوره أن يهجم بأعوانه في معسكرهم فيتعرض لإبادة منكرة، فخلا لنفسه لحظات ثم أحضر ثلاثة جمال فشد على كل جمل حزمتين كبيرتين من الحلفاء ودس بينهما قطعاً من القطران والقار ثم أضرم النار بكل حزمة فذعرت الجمال وانطلقت تجوس خلال المعسكر قاذفة بنثار النار المتساقطة على الخيام، ورأى العدو اللهيب يشتعل من حوله، ومن خلفه كتائب عبد القادر تدوي بالرصاص والقذائف فظن الأمر خطيراً، وانطلق الفرنسيون يجفلون هاربين متصايحين فداهمهم الجيش العربي واستولى على جميع ما تركوه من الذخيرة والمتاع ورجع البطل منصوراً يوزع الأسلحة المسلوبة على أبطاله ويهيئهم لقتال قريب.

أما افتتانه الحربي فقد ظهر بجلاء في مدينته الحربية السيارة، إذ رأى أن طبيعة جهاده المتنقل تفرض عليه أن ينشىء مدينة حافلة بالأسواق والمتاع والمؤن تتبعه أنّى سار، فإذا اضطر إلى إعداد ميدان حربي جديد نظر فوجد المدينة وقد نصبت بخيامها وأثاثها وتجارتها، ونهضت قائمة من حوله لتمد جيشه بما يريد، وكان يقسمها أقساماً مختلفة، فناحية للجند وناحية للقواد، وشارع لضرب السلاح، وفسطاط كبير لاجتماع المجلس العمومي، ومسجد فسيح للصلاة، ومستشفى للعلاج، والحق أن هذه المدينة العجيبة كانت موضع غيظ الفرنسيين واستثارتهم، فقد حاولوا أن ينشئوا مدينة على غـرارها فعز عليهم أن يحاكوها مع كثرة ما لديهم من المال والعتاد والرجال ووفرة من كانوا يحشدونه معهم من المهندسين والبنائين وحذاق الصناعات، ثم رأوا أن يصوبوا إليها هجومهم مهما تكبدوا في سبيل إفنائها من الصعاب، فنازلوا الأمير عليها منازلة مرهقة حتى استطاعوا ببعض أساليب الخيانة بوساطة الضعفاء من الوصوليين أن يضرموا فيها اللهيب ثم يهجموا بقذائفهم قبل محاولة إطفائها. . وكان فناؤهـا الأليم تحت ألسنة النيران مدعاة حزن أكيد للأمير وأصحابه، ولكنه لم يسمح للحزن البائس أن يستبد به فجمع عسكره ليقول: «كل شيء كنا نحبه وتعلقت به أفكارنا كان يعوق حركتنا ويحول دون ما نريد، والآن صرنا بعد ضياع المدينة أحراراً متجردين» ولـك أن تعجب بالبطل الفذ إذ يحاول في ظلمات الليل الحالك أن يوجد بصيصاً ضئيلاً من الضياء يهدي الحائرين ويبعث العزيمة على الثبات، وتلك همة سامقة لا تتاح لكل بطل ولكن تختص بها القلة من الأفذاذ.

ولـك أن تعجب حين تعلم أن المعارك الدامية بين طوفان الاحتلال الداهم على أرض الجزائر، وبين القلة من رجال الأمير قد اطردت سبعة عشر عاماً لا تكاد تبدأ حتى تشب، والأمير مثابر على النضال لا يخرج من موقعة «خنق النطاح» حتى يصطدم بموقعة في رأس (برج العين)، ولا ينتصر في غزوة (المقطع) حتى يعاود المعركة في (معسكر)، وكان قلبه يتقطع حين يرى جنوده يتساقطون من حوله دون أن يخلفهم مدد يقف موقف المستشهدين، في حين تتدافع كتائب العدو، فترمي الشواطىء كل يوم منهم بعشرات الآلاف موقرين بقذائفهم وخيولهم وبنادقهم دون أن ينقطع مد هذا الفيضان، وقد زاد من فداحة خطبه ما قام به جاره المراكشي من تواطؤ مع «جنرالات» فرنسا، فهو يشن الحرب على الأمير من ناحيته ليقع عبد القادر وسط شقي الرحى بين عربي غادر، ومحتل باغ. . ثم يفكر البطل في أمره فيميل إلى إنهاء الموقف، ويقدم شروطاً للجنرال «لامور سيير» يطير لها فرحاً فيقبل الصلح، على أن يغادر عبد القادر موطنه مع أهله وحاشيته إلى بعض بلاد الشرق، ولكن الجنرال الغادر يخدع الأمير فيأمر باتجاه سفينته إلى باريس ليقع أسيراً في يد

أعدائه حتى تسعفه الظروف بالفكاك بعد سنوات ثقال، فيُلقي عصاه بدمشق كما اختار، قال الأستاذ «محمد أسامة عليبة» في بحث له عن البطل بمجلة الرسالة (العدد رقم ٧٨٤):

«وقد لام المسؤولون في فرنسا الجنرال «لامور سيير» على عدم أسر الأمير بدلاً من قبول تسليمه فقال الجنرال: لو حاولت أسر الأمير وزحفت عليه لهذا الغرض ما رجعت بغير خيمته وسجادته، فإنه يختفي في الصحراء دائماً بحيث لا أستطيع الوصول إليه.. وإن الظفر الذي أحرزه في حربه معنا هو ثمرة ما قررناه، فارجعوه إن شئتم إلى موطنه وردوا إليه القوة التي بقيت معه، ثم اقبضوا عليه عنوة إن قدرتم فإني ما قبلت أنا والحاكم العمومي تسليمه على شروطه إلا حرصاً على راحة فرنسا وجنودها، وضناً بأموالها الكثيرة التي تنفق في هذا السبيل».

ثم قال الأستاذ: «وبعد إقامته في بلاد الشرق سافر مرة إلى باريس لبعض الشئون، فزار قصر فرساي ودخل إلى مكان فيه صور الوقائع التي دارت بينه وبين فرنسا، وكان النصر فيها لهم، فقال للجنرال المحافظ على القصر: «لماذا لم تثبتوا صور الملاحم التي كانت فيها الهزيمة لجيوشكم والدائرة عليهم!» فضحك الجنرال ومن حضر معه من الأعيان وأيدوا كلام الأمير!».

على أن إقامته بدمشق كانت خيراً وبركة على أبناء العروبة في ديار الشام، فقد استقبل لأول قدومه بمظاهر الحفاوة والإجلال، وكان منزله كعبة الناس من كل فج، وقد أبدى الأمير من ضروب الشهامة والمروءة ما جعله مضرب المثل في الفتوة العربية، والهمة الإسلامية، والأريحية العالية!، وكانت أبرز مواقفه شهامة وغيرة يوم زحفت جموع الدروز ببنادقهم وسيوفهم إلى منازل المسيحيين لإبادتهم، فوقف الأمير حائلاً دون الطغيان المتعصب، وجعل داره الكبيرة حرماً آمناً للنصارى، بل أعلن استعداده لمنازلة الباغين من أولي العدوان مردداً آيات التسامح والأخوة في القرآن، وأحاديث البر المتواصل في الهدي النبوي، وكان بموقفه ذلك مفخرة للإنسانية، ومثلاً صادقاً للمسلم الأصيل، وقد صادف إذ ذاك استحسان جميع الناس بالشرق والغرب فجاءته أوسمة التقدير من الملوك والرؤساء والسلاطين، وهي بعد لا تزينه في شيء كما ازدانت الرجولة الأبية بتاريخه الحفيل.

وقد اتجه في مقره الجديد إلى التأليف، فأصدر كتباً علمية في الفقه والتصوف والتوحيد، لعل من أهمها كتابي «المواقف» و«ذكرى العاقل» أما ديوانه الشعري فقد عمل على جمعه وتدوينه فجاء تحفة أدبية ممتازة، وقد دعونا في صدر هذا المقال إلى دراسته الفنية من جديد ليأخذ الشاعر به وضعه الصحيح بين المعاصرين، وهكذا ظل الأمير يجاهد بقلمه بعد أن ناضل بسيفه حتى لقي ربه سنة ١٣٠٠ هـ فضجت عليه الجموع، وانتقل إلى جوار الله في مشهد حاشد حزين..

عمر المختار

بطل ليبيا الكبير

يخطىء من يظن أن الجذوة الملتهبة التي أوقدها الإسلام في صدور أبنائه قد خمدت على تناسل الأحقاب، ومرور السنين، فمهما تألب الباطل على الحق بجيوشه وعدده فلن يستطيع أن يقوض العزة الإسلامية المنيعة التي يعتصم بها أبناء الإسلام والتي يذكي القرآن الكريم أوارها في القلوب فتدفع بأصحابها إلى التضحية والاستشهاد، ويسجل ذووها الأبرار للعالم المتربص أن المسلمين خير أمة أخرجت للناس.

والذين يذيعون الإفك عن الإسلام وأبنائه المستبسلين، تنقبض صدورهم غيظاً وألماً حين تقدم إليهم شخصية فذة متوثبة كشخصية الشهيد عمر المختار، ذلك البطل الأعزل الذي انتزع سلاحه من عدوه المتوحش، ووقف برهطه الضئيل أمام جيوش الاحتلال المتلاحقة فأطاح برقابها، ومزق أشلاءها وجعلها أضحوكة الناس في كل مكان، وأعلم أوربا المتوحشة كيف تندحر الذئاب العاوية أمام الآساد البسلاء، وكيف يروعها الزئير المجلجل فترتعد فرائصها المتخاذلة، وتُلقي السلاح مذعورة مقهورة ثم تتجمع وتحتشد لتثبت أقدامها أمام فئة محدودة مجهودة تعتصم بدين عزيز، وتتسلح بإيمان قوي يدك الحصون ويهوي بالآطام.

أجل! تنقبض صدور أعداء الإسلام غيظاً حين نقدم لهم بطلاً فدائياً سرت دماء العروبة في عروقه، ورفرفت روح الإسلام بين جوانحه، فرفعته إلى أفق زاهر تتألق فيه البطولة والكرامة والفداء، وإنك لتتصوره في ملابسه الفضفاضة الواسعة، ولحيته البيضاء الناصعة وكهولته الفتية الشامخة، وقد حمل السيف في كفه واعتلى جواده، يتفقد حصونه المنيعة في قلعة (الجبل الأخضر)، ويستشف خطط عدوه المسلح المتحفز! ثم يمضي بكتيبته القليلة ليهاجم الدبابات الزاحفة، والقنابل الصاعقة، والموت العاصف في بسالة خارقة وإيمان معجز ثم تنكشف غياهب المواقع الدامية عن انتصارات مشرفة تتلاحق وتتابع.. ويعترف أعداؤه المسلحون بعجزهم الفاضح فيلجؤون إلى الدسيسة والرشوة والوقيعة!.. ليحولوا بين الأسد وأبطاله البسلاء، ويبذلوا النضار والجاه والسلطان لمن يؤازرهم في

احتلالهم الآسن البغيض، ولكن الليث يصمد للخطوب، ويزأر في وجه العاصفة الكالح، ويتحدى القوة والخيانة والذهب. . حتى إذا جاءت الساعة الفاصلة ثبت على ظهر جواده مع كوكبة فدائية من جنده، وصال في ميدان اللهب المشتعل صولات البطولة والتضحية، ولولا أن منظاره يسقط من عينيه في موقعته الأخيرة فتغيم الدنيا في وجهه، ويتخبط على جواده باحثاً عن مصباحه الوضيء، لولا تلك المصادفة الأليمة ما استطاع العدو أن يأخذ بعنان جواده فيسوقه إلى محاكمة ظالمة أثيمة يظفر فيها البطل بالاستشهاد، ويكتب في سجل التاريخ أنصع صحيفة عاطرة تسطر آيات العظمة والفداء.

نشأ عمر المختار في بيئة عربية مسلمة، تدين بالمروءة والكرامة والعزة، وقد وجد في البادية حقلاً فسيحاً لإنماء مواهبه العربية، واكتمال رجولته الأبية، كما وجد في دينه منهلاً عذباً يغذي الأرواح الظامئة للمجد والحرية والإيمان، فقرأ الذكر الحكيم ودرس الحديث الشريف.

وسرت تعاليم الإسلام حارة، دافقة في دمائه، وصعدت إلى عقله الناهض وضيئة متألقة، فشع متوهجاً يضيء الحنادس، ويكشف الخطوب، وبرزت فضائله الكاملة، فعينه السيد المهدي السنوسي شيخاً لزاوية (القصور) يقيم القضاء بين الناس، وينشر العلم والثقافة الإسلامية في رهطه المتجمع حوله، ويضرب بسلوكه الممتاز مثلاً عالياً للأخلاق الإسلامية العظيمة فيطعم السائل، ويقري الضيف، ويعفو عن المسيء، ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ثم ترشحه مواهبه إلى السفارة عن بلاده في إحدى زوايا السودان فينهض برسالته الغالية، وتتجمع حوله القلوب والأبصار ثم يكر ثانية إلى وطنه الجريح ليحمل به مشعل الثورة والجهاد!!.

وقد كانت إيطاليا تريد منافسة إنجلترا وفرنسا في استعمار الشرق لتنهب معهما قسطها من تراثه المبدد، وكنزه المستباح، فدرست بلاده دراسة فاحصة، ووجدت «ليبيا» في زعمها فريسة سهلة المنال، ومنهلاً عذب الورود، فأهلوها في أكثرهم بدو ينتهجون أسلوب الصحراء في معيشتهم وحياتهم، وليس لديهم من الدربة الحربية ما يقفهم أمام الغزاة المدججين بأفتك الأسلحة وأخطر الأدوات الفاتكة، والدولة العثمانية المريضة مشغولة بمرهقاتها الجسيمة عن الصمود للغازي المحتشد، ومن ثم فقد هاجم الأسطول الإيطالي مدينة «بنغازي» وأمطرها وابلاً من قنابله الحاصدة، ومدافعه المدمرة، وخرج سكان البدو من أصقاعهم المتباعدة يدافعون عن الحمى الجريح، ويقفون عزلاً أمام أسطول ضخم عاصف وعدو متجمع متكاثر، وخطط منظمة مدروسة، وقد استطاعوا برغم هذه الفروق الشاسعة الأطراف بين القوتين المتصارعتين أن يرهبوا عدوهم الآثم فألقوا عليه دروساً

قاسية، طأطأ لها رأسه صاغراً، وأخلفوا ظنه الأبله، في النصر السريع، والسيطرة العاجلة، وكان عمر المختار في طليعة المجاهدين من صناديد البادية، وأبطال الصحراء، فتولى حراسة منطقة خطيرة يترصدها العدو، وكسب لها المنعة والاعتصام، غير أن انسحاب الجيش العثماني نهائياً من طرابلس قد وقع من نفسه موقعاً أليماً، وشاهد تذمر الليبيين، وغضبهم الصارخ لما عدوه تقصيراً بليغاً في حق العروبة والإسلام، ووقعت بين الفريقين محن أليمة حين أصر الجيش المنسحب على حمل معداته الحربية، في حين أصر الليبيون على استخدامها في كفاحهم الرهيب، واندفع الغلاة من أولئك وهـؤلاء إلى القتال والتراشق، وتساقط الصرعى من الجانبين شهيداً خلف شهيد، ولكن عمر المختار يملك زمام نفسه في هذا المأزق الكريه، فيجمع شيعته وأتباعه، ويدعوهم إلى الكف عن مصاولة إخوانهم المسلمين مهما أرهقوهم بما لا يطيقون. . وكللت جهوده بالنجاح، فيتراجع المحنقون عن القتال، وفي نفوسهم غيظ دفين، وأسف قاتل، ولولا حكمة المختار وبعد نظره لما حسم الأمر في موقف تغلي به الصدور وتتواثب النوازع الهوج!!

وهكذا نجد من الفرقة والتخاذل والاستسلام معاول هدامة في كيان الوحدة الإسلامية، وقد كان على الجيش العثماني إذ آثر الانسحاب ألا يضن بأسلحته على أناس كان يقاتل من أجلهم، ومهما قيل في تبرير موقفه من أنه يفي باشتراطات دولية ظالمة، فما كان له الحق في أن يناجز قوماً يحتاجون إلى القوة في أزمتهم الحرجة، ولو رزق قادة الأمة حمية صادقة لعز عليهم أن يتركوا إخوانهم المجاهدين يتساقطون تحت وابل من الرعود العاصفة دون أن يجدوا موئلاً يعتصمون بمناعته الحصينة لا أن يشتبكوا معهم في قتال مؤسـف مرير تتقهقر بسببه الدعوة إلى الحرية والاستقلال آلاف الخطوات إلى الوراء!!.

وقد طال أمد الحرب بين إيطاليا وليبيا، وتفنن المحتلون في مكايدهم النكراء، فكانوا يستميلون الخونة من الليبيين بالأمل الكاذب، والذهب اللعين، ويتخذون منهم عيوناً راصدة تتبع المجاهدين وتنشر بينهم بذور القطيعة والتفرقة كما تصور إيطاليا وجيوشها وأسلحتها وعتادها في صور رهيبة مفزعة لتفت في الأعضاء وتدعو إلى اليأس والاستسلام، وهي من جهة أخرى تبذل الوعود المعسولة لمن يتخلف عن الجهاد، وينكص على عقبه مع المرتدين، ولكن الصفوة المختارة ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه قد ضربوا عرض الحائط بما يسمعون من تهديد وإغراء وسعوا إلى بيعة (السنوسي) أميراً على برقة، وعرضوا في كتاب البيعة إلى ما سنه الإسلام من الشورى والمساواة والكفاح، ورسموا الصورة المثلى للأمير المكافح في وطن جريح، وكانوا يأملون أن تتوحد الجهود المخلصة على يديه فيقود أبناء وطنه إلى الاستقلال، ولبثوا ينتظرون مقدمه السريع من مصر، ولكنه تخلف بها أمداً طويلاً

وذهب عمر المختار يناشده العودة في غير طائل، ثم قفل راجعاً إلى حومة جهاده فترصد له الإيطاليون وداهموه في ثلاث سيارات حافلة بوسائل الموت والتدمير، ولكن المعجزة الكبرى تتم للمختار بانتصاره على أعدائه، فقد قتل مهاجميه وحمل أسلحتهم إلى قومه، واستطاع بكتيبته المحدودة أن يقهر الطغيان في موقف خائن دنيء، ويعود إلى وطنه مرفوع الرأس عريض الآمال..

لقد بدأت إيطاليا تقوم بهجماتها الحمراء على الوطنيين، فكانت تشن الغارة تلو الغارة دون أن تصل إلى نصر يطمئنها قليلاً إلى الاستقرار، وكانت تنوء تحت أثقال فادحة من الغيظ والألم حين ترى الفشل يلاحقها في كل ميدان، وصحف العالم من حولها تهزأ بالتيائها العاجز أمام مئات من البدو يذيقونها الموت ويلطخون سمعتها الحربية بالأوحال، وقد زحفت في موقعة (البريقة) بجيش كثيف يناهز خمسة آلاف مع أكثر من مائة سيارة مدرعة وأطنان من القنابل المحرقة، وكانت الكارثة فادحة حين رجع الجيش المدجج مقهوراً، وصال الكماة من جنود البادية على الغزاة المسلحين صولات رهيبة أسالت دماءهم كل مسيل، ولا ننكر أن كثيراً من الفدائيين الأباة قد رزقوا الشهادة تحت وابل المدافع الرعناء، ولكن ما تكبدته إيطاليا من نكبات فادحة في الأرواح والعتاد، قد كتب لهؤلاء الشهداء فخراً عاطراً تعبق به صحائف الأجيال.

لقد تسلم عمر المختار قيادة الجبل الأخضر وهو غابة معشبة تكسوها المروج الخضراء، وتمتد عليها الظلال الوارفة إلى مدى فسيح فياح، وأرضها مغطاة بالشجر الفارع المياد، وفيها من الزيتون والصنوبر والصفصاف وأنواع الزهور والورود ألوان بهيجة تأخذ بالعيون والألباب فإذا هب النسيم عليه تهادى ثملاً بالعطور الفائحة، مثقلاً بالأنفاس العبقة ذات السحر الخلاب، وقد تفجرت منه العيون الدافقة على طول أربعمائة كيلو متر لترسل ماءها الفضي إلى السهول الواسعة في الوادي الفسيح، وفي هذا المكان الشاعري الملهم ربض الأسد المختار محتمياً بكهوفه ومغاراته، متحصناً بآطامه وصخوره، وقد لاذ به تلاميذه الفدائيون وجنوده المغاوير، وطارت شهرته إلى الأقاصي النائية فجذب إليه عشاق الكرامة وأبناء الحرية من مختلف الأودية، وأصبح عمر العظيم قائداً لجيش فدائي يتكاثر ويتزايد، وهو في سنه العالية وكهولته البيضاء يتعهده بالحراسة والدربة، ويسهر على حمايته وتحصينه، كما يرسم له خطط القتال، ويتقدمه في أحلك أزماته، وأخطر مواقفه، فبات الإيطاليون منه على ذعر فاتك، وحقد لهيف!!.

ولم تفلح تلك الوعود المعسولة التي غرر بها الأعداء فريقاً من مشايخ البدو، ومع استكانة بعض المخدوعين إلى وعودهم الزائفة فقد سار المخلصون الأشاوس خلف عمر

المختار، ونظروا إلى حلفاء الاستعمار نظرات السخرية والازدراء، وقد أحس الإيطاليون أنفسهم بقلة جدوى أشياعهم في حرب عمر!! فعمدوا إلى القوة الرعناء، وشهدوا مع الأمير البدوي مواقع دامية كانت تعود عليه بالنصر والذيوع.

وقد يرى بعض الناس عجباً فيما كانت تحمله أنباء المكافح العملاق من الانتصار على جيش فاتك يتحصن بدباباته ومدرعاته، ولكن إيمان الوطنيين وطبيعة الصحراء ووعورة الطريق وجبن الطليان الشهير الذائع!! كل هذه كانت حوافز قوية ساعدت الفدائيين على الصيال والوثوب، كما وضعت العوائق الشائكة أمام آلات لم تألف الآطام والسهول!! وفضيحة الجندي الإيطالي في ميادين الكفاح ذائعة مضحكة، فهي تصفه دائماً بالجبن والحذر والانهيار، ولو كان لعمر المختار عشر معشار أسلحة عدوه ما ترك في إفريقية إيطالياً واحداً يتنسم هواء الصحراء.

إن الخشوع الغامر ليظلك بجناجه حين تجد الكفاح الليبي المستبسل يعيد إلى ذاكرتك وعينيك معاً، صوراً من البطولة العربية في عصور الإسلام الزاهرة، فهؤلاء هم البدو الصناديد ينسلون من الأغوار والأنجاد في ثيابهم الفضفاضة، وعمائمهم البيضاء وخيولهم الصافنة السريعة، وسيوفهم اللامعة البراقة، وها هي ذي الصحراء الممتدة بآجامها ورمالها وأغوارها تذكرك بكتائب علي وسعد وخالد، ثم ها هو ذا عمر المختار يقف أمام العدو فيروعه بالهول الراصد. ويذيبه بالبأس الصارم، ثم يحين ميعاد الصلاة فيقسم الجيش إلى معسكرين، ويصلي بالطائفة الأولى صلاة الخوف، فإذا أتمت صلاتها حملت عدتها وواجهت العدو مستبسلة مجالدة، وتأتي الطائفة الأخرى لتأخذ مكانها خلف الإمام المنتظر، وتتم صلاتها في هيبة وخشوع. أجل كل شيء يذكر ببدر، والقادسية، واليرموك، ولو وجد عمر المختار مساعدة فعالة من أبناء الإسلام في أقطارهم المتاخمة لتكلل جهاده بالكفاح، كما كان جهاد السابقين، ولكن العدو متجمع، والصديق متدابر، والخيانة متيقظة وإرادة الله فوق الجميع.

لقد اعترف القائد الإيطالي (جرازياني) بأن المعارك التي وقعت بين جنوده وجنود المختار مئتان وثلاث وستون معركة في مدة لا تتجاوز عشرين شهراً، ويقول الكاتب الليبي الأستاذ أحمد محمود تعليقاً على ذلك: إن هذه المدة هي التي تبتدىء بتولية «جرازياني» قيادة الجيش الإيطالي ببرقة، وتنتهي بموت عمر المختار، فإذا أضفنا إلى هذا العدد الضخم الذي وقع في مدة عشرين شهراً ما وقع قبله من وقائع في مدة عشرين سنة كان السيد عمر يحمل علم الجهاد فيها قارب عدد معاركه الألف[1].

(١) من كتاب عمر الخيام ـ ص ٤٥ للأستاذ أحمد محمود.

مواقع كثيرة، وحروب متطاولة، وخسارات متتالية، هذا هو ما أيأس إيطاليا من القتال، وهي في عدتها المدمرة وقطيعها المتلاطم، وثروتها الطائلة، ولكنه لم يئن من عزيمة الصنديد الكهل الذي جفت موارده، ونفدت ذخائره، وتألب عليه حاسدوه ومناوئوه. فقد أشاع المغرضون من رواة الإفك وشيعة البهتان ـ أن المختار يحارب لمآرب شخصي ـ، وأن إيطاليا تمد إليه يد المصافحة والسلام، فيعتصم بالإباء الجموح. وقد كذب المتخرصون فيما يأفكون، فعمر المختار قد سعى إلى المسالمة سعياً وقبل الهدنة مرات تلو مرات، فما وجد من أعدائه غير المراوغة والتربص والانتهاز، فهم يكسبون الوقت فقط بما يبدونه من حب زائف للمسالمة، ثم إنهم يجمعون ـ آن ذاك ـ عتادهم وأسلحتهم ليصيبوا من غريمهم مقتلاً نافذاً، إذ يأمن شرهم فلا يتحصن بسلاح أو يستصحب كتيبة! وقد سار عمر في طريق المسالمة إلى أبعد مدى يرضى به كهل مكدود يتساقط أعوانه من حوله! على أن يضمن لدينه العزة والسيادة، ولوطنه الحرية والسلامة، وقد قامت مفاوضات عديدة بين الفريقين ووضع عمر المختار شروطاً معقولة للتسليم يمكن أن نلخص أهمها فيما يلي:

١ ـ ألا تتدخل الحكومة الإيطالية في أمور الدين، وللوطنيين كل الحق في الخارجين عليه، والمتهاونين في أداء واجباته.

٢ ـ أن تكون اللغة العربية معترفاً بها رسمياً في دوائر الحكومة الإيطالية.

٣ ـ أن يكون الموظفون من الوطنيين والإيطاليين.

٤ ـ أن تنشأ مدارس خاصة للتوحيد والشريعة الإسلامية.

٥ ـ أن تكون إدارة الأوقاف تحت هيئة مسلمة وبإشراف رئيس مسلم ونظار مسلمين!

٦ ـ أن تفتح مدارس لتعليم اللغة العربية مع الإيطالية، وألا يحرم الوطنيون من التعليم العالي.

٧ ـ أن ترد الحكومة جميع الأملاك المغتصبة من الأهالي إلى أصحابها.

٨ ـ أن يكون للأمة رئيس تختاره بمحض إرادتها، وله مجلس من كبار الأمة.

٩ ـ أن يكون للوطنيين الحق في شراء السلاح وحمله واستيراده من أي قطر أجنبي (إذا امتنعت إيطاليا عن بيعه).

فاقرأ معي هذه الشروط مرة ومرة، فإنك لا تجد فيها تزمتاً كريهاً أو غرضاً مقنوعاً . . ؟ لا شيء إلا ما يحرص عليه العربي الغيور! دين يجب أن تنشر تعاليمه وينير ضياؤه فلا يقف

الإيطاليون ليضعوا السحب الكثيفة على الأشعة الوهاجة، ولغة حبيبة يجب أن يهتف بها كل ليبي يؤمن بعظمة الرسول العربي، ويهيم بقرآنه وحديثه وسيرته، وشريعة سماوية ذات مواد ومبادىء يجب أن يتفهمها المسلمون تفهماً بصيراً يدفعهم إلى تقديسها، وتنفيذها، ليضمنوا صلاح الدنيا ومثوبة الآخرة، ورياسة حرة يختارها الشعب بمحض إرادته، فينشر كنانته بنفسه ليصطفي أصلبها عوداً وأصدقها بأساً وأصحها عقيدة، ثم عدة قوية تحمي العقيدة واللغة والشعب في زمن يحتقر الضعيف الواهن، ويخفي رأسه للصارم العنيف!

هذا ما اشترطه عمر المختار! وطبيعي أن يقابل بالرفض الصريح من دولة باغية تحتل أمة مهضومة، فهي تريد أن تعصف بدينها ولغتها وتاريخها وتمتص بعد ذلك ما تجده لديها من كنوز وخيرات، لولا ثبات عمر لتحقق للدخلاء ما يأملون في أقل مدى يتاح، وقد كابدت إيطاليا الأهوال من بطولته حتى نفد الصبر، واشتعل الغيظ، فلم يبق إلا أن تستميل من بني وطنه من يقبلون شروطاً جديدة لا تمت إلى شروط المختار بسبب، فهم يريدون تسريح الكتائب الوطنية، ونزع جميع الأسلحة من الوطنيين مع معاقبة أعوان المختار ونقلهم إلى أية جهة يريدون، كما تكون رياسة جميع الضباط لضابط إيطالي، يأمر وينهى كما يشاء، وقد أعلنت الحكومة الإيطالية أنها تتعهد بعد ذلك بمعاش قدره خمسون ألف فرنك شهرياً لعمر المختار، وتبني له مسجداً ومئذنة، وقد ظنت أنها بذلك تدفع البطل المكافح إلى الاستسلام والخنوع، ولكن هيهات، فقد رفض الشروط الظالمة، وقوبل رفضه بمعارضة لئيمة من ذوي الأغراض أوقعت الفرقة في الصفوف وأوهت القوة في الكفاح، وعمر لا يحفل بما تأتي به الحوادث من خطوب، فحسبه أن يعتصم بعرينه في الجبل الأخضر ولتسر الأيام بعد ذلك كما يريد خالقها أن تسير. .

سار المختار إلى حصنه الأشم، وقد تناثرت الشائعات المسمومة حول موقفه من الغزاة، وأحاط المرجفون إباءه بما شاء لهم غرضهم الدنيء، وعدوه جانحاً إلى التعلق بالأنهام في مطالبه المشروعة وحقه الصريح، ولكنه قتل كل دسيسة تحاك حوله بنداء جهير وجهه إلى بني وطنه يستعرض فيه مطالبه العادلة، وما تفرضه إيطاليا على الوطن من قيود، ويميط اللثام عما تقدم المفاوضات، وما لحقها من عروض ووعيد. . ويقول في صراحة سافرة:

«فليعلم كل مجاهد أن غرض الحكومة الإيطالية إنما هو بث الفتن والدسائس لتمزيق شملنا، وتفكيك أواصر اتحادنا، فتتم لها السيطرة القاهرة، وليشهد العالم أجمع أن نياتنا نحو الحكومة الإيطالية شريفة، وما مقصدنا إلا المطالبة بالحرية، ولكنها ترمي إلى القضاء على كل حركة قومية تدعو إلى نهوض الشعب الطرابلسي وتقدمه، وها نحن الآن ندفع عن

كياننا ونبذل دماءنا الزكية فداء للوطن، في سبيل الوصول إلى الغاية المنشودة»[1].

وقد عجز الجيش الإيطالي عجزاً تاماً عن مواجهة مئات من الفدائيين يعتصمون بزعامة المختار في الجبل الأخضر، وكنت تعجب للدبابات الزاحفة، والمدافع المنطلقة، والقنابل المحرقة تنهال جميعها على الجبل المنيع فتتحداها صخوره الصلبة وقممه السامقة، وأبطاله الكماة ويهزؤون بالرعد المجلجل، والموت القاصف كأنهم يستمطرون رذاذاً من الغيث لا قذائف من الموت، وقد امتدت الأيام على الهجوم الحربي فما رجعت بغير الفضيحة على ثعالب روما العاوية في بطاح إفريقية تتلمس الانتصار ولات حين!

وأمام هذا الفشل الفاضح فكر الإيطاليون في حصار اقتصادي يحدث ما لا يحدث الهجوم الحربي فقطعوا جميع المواصلات المؤدية إلى الجبل، واحتلوا جغبوب المصرية و «أوجلة، وفزان، وجالوا، والكفرة» ووجدوا من صنائعهم الأنذال من برروا هذه النكبات الفادحة للمواطنين، إذ زعموا أن إيطاليا تبحث عن حقوقها المشروعة في بلاد تنطق بالعربية، وتدين بالإسلام. . . ويجد هذا الزعم صدى لدى الكثيرين، فيذعنون للمحتل الآثم كصاحب حق تجب طاعته، وينظرون إلى الفدائيين وكأنهم يبحثون عن مأرب شخصي لا يتعلق بكرامة البلاد، واستعادة إبائها الأسير ومجدها الذبيح! . . عجباً! . . عجباً . .

لقد فصل الايطاليون عن الجبل الأخضر جميع من يجاورونه من السكان. . فساقوا إلى «العقيلة» من هؤلاء ثمانين ألف عربي بحيواناتهم وخيامهم ومؤنهم، وهناك تلقفهم الأوبئة والأمراض في بقعة ضيقة لا تتسع لخمسة آلاف فقط. . وطار الفناء إلى وجهائهم وذوي الرياسة من ذويهم فجعلوا يتساقطون عشرات خلف عشرات حتى بلغوا خمسة عشر ألفاً.

واضطر المحتلون إلى إعادتهم ثانية كفلول جيش منهزم ضاع أبطاله في غير ميدان، وليت هؤلاء الضحايا انضموا إلى كتائب المختار فرزقوا الشهادة حيث تحمد، أو ساهموا في النصر حيث يتاح! .

وقد كانت الأسواق المصرية آخر خيط يصل المختار بالحياة، فمنها كانت تتسرب المؤن الضرورية إلى الأحرار المستبسلين، وبرذاذها المتقطر ـ على فترات متفرقة ـ يقاومون جيشاً تئز طائراته، وتدوي مدافعه. فعجل القائد الإيطالي بإقامة الأسلاك الشائكة على الحدود المصرية فأضاف هذا الإجراء أهوالاً إلى أهوال ـ فما وهن المجاهدون لما أصابهم ـ،

---

(١) ص ٩٤ من المصدر السابق.

وكان إيمان «عمر» وحده يضيء له الحنادس، ويكتسح أمامه الظلمات.

وقد شاء الله أن يعجل بالخاتمة على غير ما يتوقع الفدائيون الأحرار فقد علم المحتلون أن القائد الشيخ يقوم بجولات استكشافية في غبش الظلام فيحيط بما يفعله أعـداؤه من حوله، متلافياً ما قد يجر عليه من الصعاب، وإذ ذاك أقاموا كميناً هائلاً بأسلحته وقذائفه في ناحيتين متقابلتين، وجاء البطل كعادته في كتيبة لا تتجاوز الأربعين فهاجمها الفريق الأول فاستبسل المدافعون حتى كادوا يحرزون النصر، ولكن الكمين الثاني ينقض من الخلف فيوقع الكماة البسلاء بين المطرقة والسندان، ومع ذلك لم يفقد القائد العظيم شجاعته في أخطر موقف تعرض له، بل صال وجال متحامياً رصاص مهاجميه لولا أن جواده سقط صريعاً بقذيفة صائبة فسقط عمر على الأرض وطار منظاره عن عينيه فلم ير شيئاً مما حوله، وحاول النهوض في ضبابه المتلاحم فأخذه الجنود من كل ناحية وسيق إلى المحاكمة الغادرة في محكمة كان قضاتها هم خصومه الموتورين، وهيهات أن يعتدل في يد ظالم طاغية ميزان.. فيجنح قليلاً إلى الإنصاف...

لقد توقع البغاة أن يرتجف الكهل الأسير بين أيديهم فيحاول المراوغة والاستكانة، وينتحل الأعذار المريبة في موقف يلمع فيه السيف، وتتراقص به أشباح الدماء، ولكن دهشتهم تتجاوز أقصاها حين يرونه ثابت الجأش، مرتفع الهامة.. يجيب على الاتهامات المدونة بكل زراية واستخفاف!! وصاحب الحق لا يعبأ بباطل وإن شحذ الأسنة والرماح.

فقد قال له رئيس المحكمة في غطرسة منتفخة: هل أنت قائد الثوار المحاربين؟ فأجاب نعم، فسأله ثانياً: هل شهرت السلاح في وجه القوات الإيطالية؟ فقال نعم، فسأله ثالثاً: هل أمرت بتحصيل الضرائب من الأهالي؟ فكانت الإجابة نعم عالية صريحة، ولما تضايق الرئيس لعزة غريمه صاح متبرماً: هل لديك ما تقول...؟ فسمع الإجابة «لا» عزيزة كريمة، وكان ما توقع عمر أن يكون، فقد صدر الحكم بإعدامه شنقاً، فما ارتعشت به هزة أو اختلجت في عروقه نابضة، ثم عجل بالتنفيذ أمام جمهور محتشد ليكون الشهيد العظيم عبرة بالغة لمن يطالب بعزة وإباء.

وصعدت روح المختار لتتبوأ مكانها مع الذين أنعم الله عليهم من الصديقين والشهداء، ولتضيف إلى صحائف الأبطال صحيفة عبقة فواحة تسجل لأبناء الإسلام عزة قائد باسل رفض الزائف من المال، والبهرج من المجد، وتكالبت عليه السنون العجاف بما تحمل من جبروت وحرمان فظل شامخ الرأس عزيز النفس، يصيح بمخالفيه لن أهزم ومعي في الحياة روح الإسلام وعدالة محمد، ولي في الآخرة سكينة المؤمـن ومثوبة الاستشهاد..


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



فهــرس